الصراع

بين

الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية



بقلم

السيد أبو الحسن علي الحسيني الندوي

أمين ندوة العلماء العام بلكهنؤ - الهند
وعضو المجمع العلمي العربي بدمشق - سوريا

دار القلم
كويت

دار الأنصار

١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

دار القلم – الكويت – شارع السور – عمارة السور
ص . ب ٢٠١٤٦ – هاتف ٤٢٥١٦٠ – برقياً توزيعكو

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة بين يدى الكتاب

إن هناك صراعاً فكرياً ، بل معركة فكرية فى عبارة أصح ، فى جميع الأقطار الإسلامية فى هذا الوقت ، نحن نستطيع أن نسميها صراعاً ومعركة بين الأفكار والقيم الإسلامية ، والأفكار والقيم الغربية ، وهى المعركة الحامية الحاسمة الحقيقية التى يخوضها العالم الإسلامى اليوم وهى التى ستقرر مصيره ، وهى معركة تتضاءل أمامها جميع المعارك التى يغالى فى تصويرها أو تهويلها الكتّاب والمؤلفون ، فكل معركة — غير المعركة الكبرى التى ننوه بها — إما معركة محلية ، أو معركة فرعية ، أو معركة وهمية . إن تاريخ هذه الأقطار القديم وحب الشعوب المسلمة للإسلام وصلتها القوية العميقة به ، والاسم الذى قاتل دونه المقاتلون وتيسر به الظفر بالحرية أو المحافظة عليها إذا كانت من قبل، كل هذه الحقائق تثبت أن هذه الأرض التى نشبت فيها هذه المعركة لا مكان فيها إلا للأفكار الإسلامية والقيم الإسلامية ، ولا يسمح فيها إلا لمنهج ونظام دعا إليهما الإسلام .

لكن الطبقة التى تملك زمام هذه البلاد إن عقليتها وثقافتها وتربيتها ومصالحها الشخصية والسياسية كل ذلك يقضى أن تزدهر فيها القيم الغربية والأفكار الغربية ، وأن تتبع هذه البلاد الدول الغربية شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، وهى تغير مفاهيمها الدينية وتقاليدها القومية وقوانينها الإسلامية بالأوضاع الغربية أو تطورها إذا عاكست هذا الهدف وحالت دون الوصول إلى هذه الغاية ، وفى عبارة وجيزة : تصهر هذه البلاد بتؤدة وأناة ولكن بوعى وإلحاح فى بوتقة الحضارة الغربية .

ومن هذه الأقطار ما قد قطع أشواطاً بعيدة فى هذه الرحلة ووصل إلى هدفه المنشود أو كاد ، ومنها ما وقف حائراً على مفترق الطرق ولـكن يبدو أن موعده قريب .

إننى أعتقد أن ذلك أضخم مشكله للأقطار الإسلامية ، وهى مشكلة حقيقية لا صلة لها بالأوهام والأحلام ، إن ضعف الأقطار الإسلامية الداخلى ونفـــوذ الحضارة الغربية واحتلالها واستيلاء الأفـكار الغربية المـادى والسياسى يرسم فى الأفق عـلامة استفهام واضحة ضخمة أمام الأقطار الإسلامية كلها ، ولا تستطيع أن تتقدم خطوة واحدة بدون أن تجيب عليها جواباً حاسماً .

أى موقف تتخذه هذه البلاد نحو هذه الحضارة ! ؟

وأى منهج تسير عليه لتوفيق مجتمعها بالحيـاة العصرية وتحقيق مطالب العصر الحديث ! ؟

وإلى أى مدى تثبت ذكاءها وشجاعتها الخلقية لمواجهة هذه المعضلة ؟

إن وضع الجواب على هذا السؤال هو الذى يحدد مكانة هذه الشعوب فى خريطـة العالم ويعرف به مستقبل الإسلام فى هذه البلاد ومدى وفائها لرساله الإسلام الخالدة العامة .

كنا نشعر بحاجة شديدة إلى استعراض هذه المسأله وما قام به العاملون الموجهون من جهود فى اتجاهات مختلفة ، ودراستها دراسة مؤرخ محايد وباحث نزيه ، وتحليلها من غير بخـل وإسراف ، والتنبيه إلى طريق سوى لنهضة المجتمع الإسلامى الذى لا يتحتم عليه التمسك بالعقائد والأخلاق ومنهج الحياة الإسلامية فحسب ، بل عليه تقع مسئولية الدعوة والتوجيه والقيادة والوصاية على العالم أيضاً ، ولا تتحتم عليه المسايرة لركب الحياة السريع فحسب بل قيادته كذلك .

إن جميع الأقطار الإسلامية وأخص منها ما تحررت حديثاً فى حاجة إلى بحث عميق

فى هذا الموضوع لأن أدنى انحراف أو زلة قدم سوف تهوى بها إلى مكان سحيق و تبعدها عن هدفها الصحيح بعدة قرون وأجيال .

وبهذا الدافع كتبت مقالا مسهباً فى أوائل سنة ١٣٨٢ هـ لم يلبث أن تحـــول إلى كتاب نشر فى شعبان سنة ١٣٨٢ هـ ـ فبراير ١٩٦٣ باسم « موقف العالم الإسلامى تجاه الحضارة الغربية » واعتنت به الأوساط العلمية والدينية فى العالم العربى .

وقد أُتيح لى السفر إلى أوربا بعد نشر الـكتاب ورأيت مركز هـذه الحضارة ومعقلها عن كثب ، وشاهدتها فى بيئتهـا وعقر دارها ، واستفدت من هـذه الرحلة فى الاطلاع على بعض المصادر العلمية الحديثة ، وزدت فيه زيادات قيمة مهمة جاءت ضعف ما كان عليه الـكتاب حتى أصبح بذلك كتاباً جديداً ، وهو ينشر الآن تحت عنوان « الصراع بين الفـكرة الإسلامية والفـكرة الغربية فى الأقطار الإسلامية » .

وأدعو الله أخيراً أن يوفق قادتنا وزعماءنا إلى فهم مسئوليتهم الدقيقـة الضخمة وأداء هذه المسئولية بحول الله وقوته بأحسن ما يمكن .

وقد ساعد المؤلف فى تأليف الـكتاب ونقل بعض المواد إلى العربية الأساتذة سعيد الأعظمى ومحمد اجتباء الندوى ومحمد الحسنى مساعدة غالية فلهم شـكر المؤلف وتقديره ودعواته .

أبو الحسن على الحسنى الندوى

بستان نورولى — المدنية المنورة

١٣٨٥/١/٩ هـ — ١٩٦٥/٥/١٠

الموقف الأول

من الحضارة الغربية

الموقف السلبي

العالم الاسلامي امام مشكلة الحضارة الغربية :

واجه العالم الإسلامي في منتصف القرن التاسع عشر المسيحي مشكلة في غاية الدقة والتعقد والخطورة ، وعلى الموقف الذي يتخذه تجاه هذه المشكلة الحاسمة يتوقف مستقبله كعالم له شخصيته وكيانه .

هي مشكلة الحضارة الغربية الفتية ، الدافقة بالحياة والنشاط والطموح وقوة الانتشار والاستيلاء ، وهي من أقوى الحضارات البشرية التي عرفها التاريخ ، والتي لم تكن إلا مظهراً من مظاهر العوامل التي تكونت واختمرت قديماً ، وظهرت في أوانها .

واجه العالم الإسلامي هذه المشكلة وجهاً لوجه ، لأنه هو زعيم الرسالة الدينية والخلقية ، وصاحب الوصاية على المجتمع البشري ، بعدما انسحبت الديانات القديمة من معترك الحياة ، وصاحب القوة الكبرى التي يحسب لها الحساب ، وصاحب الدول الواسعة في هذا القرن ، فكان تحدي هذه الحضارة ، المادية الآلية للعالم الإسلامي أعظم من تحديها لأي أمة ، ولأي حضارة ، ولأي مجتمع بطبيعة الحال .

المزيج الغريب :

وكانت هذه الحضارة — بمعناها الواسع — مجموع عقائد ومناهج فكرية ، وفلسفات ونظم سياسية واقتصادية ، وعلوم طبيعية وعمرانية واجتماعية ، وتجارب خاصة مرت بها الشعوب الأوربية التي تزعمت هذه الحضارة في رحلتها الطويلة ، وكانت مظهر تقدم العلم البشري وعلوم الطبيعة وعلم الآلات والعلوم الرياضية ، ومجموع نتائج

جهود علماء وباحثين عبر القرون .

فكانت مزيجاً غريباً من أجزاء لا يكون الحكم عليها واحداً متشابهاً ، كانت مزيجاً من السليم والسقيم ، ومن الصواب والخطأ ، فى النتائج والأحكام . ومن البديهيات فى العلم التى لا تقبل الجدال والشك ، ومن التخمينات والتحكمات فى الآراء والدعاوى التى تقبل المناقشة الطويلة والجدال الكثير ، ومما هو خميرة من الاختبارات والبحوث الطويلة ، ومما هو فج لا يزال فى دور التجربة والاختبار ، والنشوء والارتقاء ، ومما لا يختص بإقليم أو عنصر ، من علوم تطبيقية ، وبالعكس مما تجلت فيه الطبيعة الأوربية ، وأثّرت فيه البيئة الغربية وولدته حوادث تاريخية خاصة اكتوت بنارها هذه الأمم ، ومما له صلة قوية عميقة بالدين والعقائد ، ومما لا صلة له بالدين مطلقاً ، وذلك الذى زاد فى تعقد هذه المشكلة وخطورتها ، وأحرج مركز العالم الإسلامى ، وكان فيه بلاء ومحنة لذكاء قادته وزعمائه ، وأصحاب التوجيه فيه .

الموقف الاول السلبى :

وكانت هنالك ثلاثة مواقف يستطيع العالم الإسلامى أن يقفها أمام هذه المشكلة الطريفة ، لا أرى لهذه الثلاثة رابعاً .

كان الموقف الأول السلبية ، وهو أن يرفض العالم الإسلامى هذه الحضارة وما جاءت به بتاتاً ، ويقف منها موقف المعارض الثائر ، أو موقف المعتزل الحائد ، لا يقتبس منها شيئاً ولا يسمح بدخول علم من العلوم التى كان للأوربيين فيهاالتفوق والاختصاص ، ولا ينتفع بتجارب الغرب فى مجالات الطبيعة والكيمياء والرياضة وعلم الميكانيكا ، ولا يستورد شيئاً من الآلات ، والصنائع والأجهزة ، وأدوات الحرب والبضائع ومرافق الحياة .

حكم هذا الموقف طبعيا وشرعيا ، ونتائجه :

وهذا لا بد ينتج التخلف الشديد عن ركب الحياة ، ويقطع صلة هذا الجزء عن باقى العالم ، ويكون جزيرة منقطعة لا مناعة لها ولا قيمة ، والبر لا مكان فيه للجزر المنقطعة الصغيرة ، ولا حرب مع الطبيعة البشرية ، ومنطق الحوادث والحقائق ، وهو — بصرف النظر عن كل هذا — ضيق فى العقل ، وتعطيل للقوى الفطرية ، وجناية على الإسلام ، وسوء تفسير للدين الذى يحثّ على استعمال العقل والتفكير فى الكون(١) واقتباس الصالح النافع أينما كان مصدره(٢) ويأمر بإعداد القوة الممكنة للدفاع عن الدين وإرهاب العدو(٣) وينظر إلى الإنسان كخليفة الله فى هذه الأرض(٤) سخّر له البحار والأنهار ، وسخّر له الشمس والقمر ، وسخر له الليل والنهار ، وآتاه من كل ما سأله بلسان المقال أو بلسان الحال(٥) وامتنّ على عباده بإنزال الحديد الذى فيه بأس شديد ومنافع للنّاس(٦) وضرب رسوله المثل لأمته باقتباس بعض أساليب الحرب والدفاع من غير المسلمين وغير العرب ، فحفر الخندق فى الأحزاب كما كان يحفره الفرس . وعلى هذه السيرة سار أصحابه وفقهاء أمته من بعده ، فكانوا يسايرون الزمن

---

(١) « إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار» (آل عمران ١٩٠ — ١٩١) .

(٢) «الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها» (الترمذى : أبواب العلم) .

(٣) « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم » (الأنفال ٦٠)

(٤) «إنى جاعل فى الأرض خليفة » (البقرة — ٣٠) .

(٥) «الله الذى خلق السماوات والأرض ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار * وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار * وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار *» (إبراهيم ٣٢ — ٣٣ — ٣٤) .

(٦) «وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس» (الحديد — ٢٥) .

ويجارون الأمم فى الأساليب الحربية واتخاذ آلات الحرب ووسائل القوة ، وتعلُّم العلوم النافعة ، ويسبقونها أحياناً .

ولو حاول قُطر من الأقطار أن يطبق عينه وسمعه عن تحدى هذه الحضارة الصارخ، أو أن يرفضها رفضاً باتاً ، صمَّم على أن يعيش فى عزلة عن العالم المعاصر ، منطوياً على نفسه ، لما استطاع ذلك ، ولواجه ثورات لا آخر لها ، وعصياناً وتمرداً فى الداخل ، لأنه يعارض الفطرة الإنسانية الوثابة الطموح ، الولوع بالجديد ، الطالبة للمزيد ، الطامحة دائماً إلى المجد والقوة والتجديد ، ويعارض كذلك السنن الكونية وطبائع الأشياء ، ولو فعل ذلك قطر من الأقطار لتسربت هذه الحضارة إلى أُسر هذا القطر وبيوته ، كما يتسرب الماء فى القرية أو المدينة إذا أُحاط بها السيل من كل جانب ، وطغى عليها الفيضان .

مصير الأقطار التى تعيش فى عزلة عن العالم :

لقد كانت الفترة التى عاشت فيها بعض الأقطار الإسلامية بعيدة عن الحضارة الحديثة بخيرها وشرها ، زاهدة فى مرافقها وأساليبها ، متطوية على نفسها ، لقد كانت هذه الفترة دائماً قصيرة مضطربة مهددة بالغزو الحضارى والثقافى من الخارج ، وموجات هذه المدنية العاتية التى تتغلغل إلى الجذور والأعماق ، وتذهب بالقيم والمفاهيم ومبادىء الأخلاق ، ويشك كل عاقل عرف قوة نفوذ هذه الحضارة وسعته ، وعرف ضعف هذه الأقطار الروحى والمادى ، وفقدها ما يقاوم هذه الحضارة من إيمان وقوة شخصية وثقة ، يشك فى بقاء هذه الأقطار فى سلخها[1] وحصارها المدنى والثقافى والاجتماعى ، ويشك فى طول هذه الفترة ، — لأنها مع وجود هذا الضعف فى الشخصية والفقر فى القوة المعنوية — غير صالحة للطول والامتداد ، وفضلا عن البقاء والاستمرار .

---

(١) سالخ الحية ، قشرها .

جزيرة العرب :

زار الأستاذ محمد أسد — الذى عاش فى أوربا وتجول فى العالم الإسلامى — الجزيرة العربية الوادعة الهادئة فى سنة ١٩٣٢ م وهى لا تزال متمسكة بتقاليدها العربية الإسلامية أشبه بالماضى منها بالحاضر، لم تجس خلالها الحضارة الغربية، ولم تقتحم سورها ـ الرملى ـ الأساليب الغربية والمصنوعات الحديثة، فشك فى طول حياة هذه العزلة، والبعد عن تأثير الحضارة الغربية التى طوقت الجزيرة، فقال :

« وعندما وصلت بتفكيرى إلى هذا الحد، سألت نفسى فجأة، إلى متى يستطيع زيد[١] وقوم زيد (العرب) أن يحتفظوا بتماسكهم الروحى فى وجه الخطر الذى يطبق عليهم بكثير من الخداع والمكر وبصورة لا تعرف الرحمة، أو اللين ؟ نحن نعيش فى زمن لم يعد الشرق فيه يستطيع أن يبقى ما كناً سلبياً فى وجه الغرب الآخذ بالإطباق عليه، إن آلافاً من القوى — السياسية والاجتماعية والاقتصادية — تطرق أبواب العالم الإسلامى، فهل يخضع هذا العالم ويستسلم إلى حضارة الغرب ويفقد خلال التفاعل لأشكاله وأنظمته التقليدية فحسب بل جذوره الروحية أيضاً »[٢].

نعم لم تطل هذه الفترة فلم تلبث هذه البلاد المقدسة أن غزتها الحضارة الغربية وتدفق فيها سيل المصنوعات الحديثة، والمستوردات الغربية، وأكثر من أسباب الترف ومن « الكماليات »، فشحنت الأسواق، وملأت البيوت، وقضت على التقشف فى الحياة وصفات الفتوة والفروسية التى عرف بها العرب من قديم الزمان، وكانت من أسباب قوتهم وانتصارهم، وظهر اتصال الجزيرة بالغرب عن طريق الحضارة الثقافية والسياسية وعن طريق البترول، وكان هذا الاتصال وهذا الاقتباس من الغرب

---

(١) البدوى العربى الذى كان مرافق محمد أسد فى مغامراته ورحلاته فى صحراء العرب، ودليله فى هذه الرحلة .

(٢) الطريق الى مكة ص ١٤٠ .

فى مجال الحضارة والتجارة والثقافة ، عن ارتجال وتهور ومن غير تفكير هادىء وتصميم سابق ، فأصبح هذا الاستسلام ، الذى تخوف منه الأستاذ محمد أسد أمراً واقعاً ، وأصبحت الجذور الروحية — فضلا عن الأشكال والأنظمة التقليدية — مهددة .

ويشعر الأوروبيون بذلك ، ويتعجبون من هذا التحول، والتطور الجذرى وانتشار الاختراعات الغربية فى صحارى جزيرة العرب الوادعة الصامتة الهادئة ، ووسائل الراحة والطمأنينة ، ووفرة وسائل العيش والترف والبذخ ، وارتفاع مستوى الحياة ، وتعقد الحياة العملية الساذجة البسيطة من قرون ، يقول مؤلف أميركى Don Leretz فى كتابه (The middle East - to day) : (الشرق الأوسط اليوم) .

« وقد ضعفت وتضاءلت المؤثرات التقليدية بثروة الزيت (وساهمته عوامل القوى الغربية) بعد الحرب العالمية الثانية ، ويكاد ينقرض التراث الحضارى القديم المشترك الذى كان يربط الطبقات والأوساط المختلفة المتنوعة ، لأن أفراد أسر « الشيوخ » الشريفة النبيلة الذين أثروا بفضل الزيت والبترول بدأوا يخضعون للمخترعات الغربية والطرق الغربية الحديثة ، والتقاليد والعادات ، والذوق الغربى ، وأنشأ ذلك فى المحيطات والطبقات السفلى اضطراباً وقلقاً ، لأنهم لا يستطيعون أن يعيشوا تلك الحياة المترفة الفخمة ، والتفت قبائل البدو حول المدن تاركين رعى الحيوانات واقتناءها مثلا ، وأنهم يوماً فيوماً يعطفون على الطبقة القلقة السفلى العامة الدهماء التى تسكن فى هذه المدن ويناصرونها[1] » ،

ويقول فى موضع آخر :

« ومن ناحية أخرى، إن تدفق الثروة الفجائية التى تجمعت وارتكزت فى صندوق

The Middle East to day, P402 (١)

الأسرة السعودية — التى كانت تملك القوة الكبرى والسلطان الهائل — ونشرت مع ذلك الرشاء والمحسوبية وعدم الشعور بالمسؤولية فى الأمور المالية بشكل عجيب ، وقد أتلف قسم كبير من الثروة الضخمة الناشئة عن الزيت بالإسراف والتبذير ، وحظيت بها الأسرة الملكية التى لا تشمل الملك وأولاده من هذه الجماعة الكبيرة الواسعة فحسب بل إنها تشمل زوجاتهم وأصهارهم الذى يُعدّون بمئات ، كانوا ينالون المال رأساً من هذه الثروة ، ولم تعد الأسرة السعودية حاكمة فى الصحراء وشيخاً وهابياً فحسب كما كانت فى القديم ، بل انهم يعيشون هيشة ملوكية شرقية بكل نوع من أنواع الراحة والعيش الرغيد الهنيء ، واشترى عشرات من الأنجال الأمراء سيارت ثمينة ، وبنوا قصوراً عالية شامخة تتحلى بوسائل الراحة والعيش الحديثة (كمكيفات للهواء وحوض ومسابح جديدة للاستحمام والغسل)[1] » .

ويزيد الكاتب فيقول :

« وقد تضاءل ذلك الحماس الذى دافعت به القبائل الوهابية عن العقائد والأسس الأساسية للإسلام ، وامّحت تلك الدعوة القوية إلى البساطة والتقشف ، ولا ترتفع الآن أصوات التهديد والاحتجاج ضد وسائل الترف والبذخ الأجنبية ، وهى لم تُقبل اليوم فحسب بل كل واحد من أعضاء المجتمع وطبقاته يتنافس فى إحرازها والظفر بها ، والقبائل التى كانت تقطن فى الصحراء وتعيش عيشة ساذجة وحياة خشنة على غرار الحياة الوهابية قد هجرتها وأقامت حول منابع البترول وآبار الزيت ، واعتادوا بعد التحول إلى هذه الأمكنة تلك الأشياء الغربية التى اختُرعت حديثاً ، يشترونها بالمرتبات الضخمة التى يتقاضونها من شركة « آرامكو »[2] » .

---

(١) نفس المصدر ص ٤٠٦ — ٤٠٧ .

The Middle East to day, P. 407 (١)

فلا شك ان جزيرة العرب لم تكن تقع فريسة الغرب إلى هذا الحد لو قام قادة البلاد بمحاولات جدية لاكتفائها الذاتى والتخطيط والمشاريع وبذلوا لها مجهودات مخلصة نزيهة لترقيتها وتدعيمها وتنظيمها على خطط محكمة واضحة ، وتناولوا الحضارة بنقد جرىء وتفكير أصيل وعملوا بالمبدأ الإسلامى القديم « خذ ما صفا ودع ما كدر » ، لو كان ذلك لما تدفقت كسيل جارف هارم على مركز الإسلام ، ولم تكن من نصيب هذه البلاد القشور الظاهرة والمظاهر الخلابة الجوفاء فحسب .

وفى حديث عن تخطيط مدنى أو تربوى يقوم فى مركز الإسلام، ومهد الدعوة الإسلامية الأولى ، يجب أن لا ننسى أن له شخصية متميزة خالدة يجب أن تكون بارزة واضحة ، يخضع لها جميع المخططات والمشاريع ، والنهضات والاصلاحات ، وكل ما يدعو إلى تطوير أو تكييف مع الزمان والمكان ، وأن تكون هى الأساس والمقياس ، فى كل ما يُقبل ويُرفض ، وفى كل ما يقتبس ويُتلقى من الحضارة الغربية والمعطيات العصرية ، وأن يُفصَّل لباس هذا التخطيط المدنى والتربية والتعليم والإعلام والثقافة على إقامة هذه الشخصية الملية ، وقيمتها المعنوية ، والرسالة التى نيطت بها ، وكُلِّفت إبلاغها إلى الإنسانية ، وتمثيلها أجمل تمثيل على أرضها فى كل عصر ،

وليكن من المقررات التى لا تقبل الشك أن الجزيرة العربية اليوم هى غرس محمد ﷺ وثمرة دعوته وجهاده ، وله ولأصحابه وللمؤمنين بدعوته وحدهم الحق عليها ، فيجب أن يكون كل شىء يقوم فى هذه الجزيرة — من تنظيمات وتصميمات ومخططات ومؤسسات — مقرراً لهذه الحقيقة ، متجاوباً معها ، وأن تكون هذه الأرض بعيدة كل البعد عن كل ما ينا فى هذه الحقيقة ، وكل ما يهدد سلامتها العقائدية والفكرية ، ويضعف شخصيتها ، وإلى ذلك نظر رسول الله ﷺ بنظره البعيد ، فأوصى بإخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب ، ونهى عن أن يجتمع دينان فيها[1] . ولا شك أن وصيته

---

(١) راجع صحيح مسلم وكتب الحديث .

النبوية الحكيمة لا تقتصر على إخراج غير المسلمين أجساماً ظاهرة ، بل إنها تشمل إخراج نفوذهم وتوجيههم وحضارتهم ودعواتهم ، كما يفهمه كل عاقل .

وزيادة على ذلك فإن فى هذه الجزيرة الحرمين : البلد الأمين الذى ولد فيه الرسول ﷺ وأكرم بالرسالة ، ويقع فيه الحجّ ويدور حوله ، والمدينة التى هاجر إليها الرسول ﷺ ، وتم فيها مسجده ، ومدرسته ، والمجتمع الإسلامى المثالى الأول ، ومنها انطلقت الدعوة الإسلامية والمد الإسلامى إلى أنحاء العالم . وهذه مسئولية عظيمة خالدة ، فيجب أن تكون هذه البيئة أمينة للحياة الإسلامية ، مرآة صافية لها ، حتى يستطيع كل وارد إليها أن يلمسها ويتذوقها بسهولة ، لأن الله قد قضى أن تكون هذه الأرض مركز الحج إلى آخر الزمان ، ومثابة للمسلمين فى كل سنة ، ولهم الحق بأن يؤمنوا بأنهم يقصدون بلداً هو معدن الطهر ، ومولد الدين ، وعاصمة الإسلام الروحية والخلقية ، بعيداً عن التيارات المعادية للإسلام ، والأخلاق المنافية لتعاليمه وتأثيره ، بُعداً يمكن وقوعه وتصوره فى هذا العصر المتطور ، لم يخضع للحضارة الغربية وقيمها ومثلها ، خضوع بلد واقع فى أقاصي العالم الإسلامى ، لايحمل هذه الشخصية ، ولا يضطلع بهذه المسئولية .

وأن يكون على شىء من البساطة والطبيعة ، وعلى شىء من التقشف فيستشعر فيه الوافدون من أنحاء العالم البعيدة ، والجو الذى كان المسلمون الأولون يقضون فيه مناسكهم ، ويشعرون بشعورهم أو قريب من شعورهم ، وأن لا يبقى البيت وحده والحرم وحده ، جزيرة مختصة بالعبادة والتأمل والهدوء ، يموج حولها بحر المدنية المادية الهائج ، تضرب أمواجه العاتية أسوارها ، وقد تجوس خلال الديار .

التقاليد والعادات لا تستطيع أن تقاوم الحضارة الجديدة :

ولن تطول هذه الفترة — السلبية — فى أى قطر من أقطار الشرق لأن التقاليد والعادات والجهاز الاجتماعى أو الإدارى الذى ليس وراءه عقيدة راسخة قائمة على فقه

وبصيرة ، وليس معه ذكاء وألمعية ، والمقدرة الكافية على تطبيق الحقائق والمبادىء الدينية الخالدة على الحياة المتطورة وحاجاتها الجديدة . والتمييز بين ما يصلح للاقتباس من الحضارة الجديدة ومنتجاتها وما يصلح ، لا يستطيع أن يقف طويلا فى وجه هذه الحضارة العارمة ، وكل قطر أو قيادة تمنى نفسها بالاحتفاظ بالقديم ، والانحصار فى دائرتها من غير هذه المقومات التى ذكرناها ومن غير إيمان جديد قوى وعقل واع منتج مهددة بالانهيار عاجلا أو آجلا .

وإذ لم يكن الاقتباس من الحضارة الغربية ومرافقها ومنتجاتها عن إرادة وتصميم ، وباختيار وتمييز ، وعن فقه وبصيرة ، هجمت على هذا القطر أو المجتمع غصباً ، وعلى الرغم من قادته وولاة الأمر فيه ، وعلى الرغم من العلماء وزعماء الدين ؛ ورحّب بها أهل البلاد ، وفتحوا لها الأبواب ، والتهموها — بصالحها وفاسدها — نهامة وجشع ، واكتسحت القيم الدينية والخلقية وغلِب قادة البلاد أو ولاتها على أمرهم ، وأفلت منهم الزمام إلى آخر الأبد .

لابد من التخطيط واصلاح الاوضاع :

لقد أصبحت الأقطار الشرقية — من غير استثناء تقريباً — فريسة الحضارة الغربية فى الزمن الأخير ، وانحرفت في سيلها العارم من غير امتناع ومقاومة ، لفقد العقل العقل الراجح المتزن فى القيادة وفقد « عملية التمييز والاختيار المحكمة » فى الوجهين ، وعدم وجود التصميم أو التخطيط الحكيم فى نظام المعارف وتنظيم البلاد تنظيماً جديداً قائماً على التجارب الحديثة . وبسبب وجود نظم وأوضاع كانت نتيجة الانحراف عن التعاليم الإسلامية الصحيحة ، لا يقرها العقل والعدل ، ولا تصلح للبقاء فى أى عصر من من العصور فضلا عن هذا العصر القلق الثائر .

« كان فى كابل مصنع وحيد للأحذية الجديدة ، كان يسُدّ فى غالب الأحيان حاجة الجيش ، وكان لأهل البلاد نصيب ضئيل فيه ، وكانت الأحذية التى توجد فى أسواق كابل من صنع الهند أو انكلترا ، وكانت لا توجد غالباً إلا المنسوجات الوطنية من صنع اليد ، أو ما صُنع فى المغازل البلدية ، أما الصوف ، فكانت له مصانع لا بأس بها فى « هرات » . كانت صناعة السجاجيد الصوفية راقية » .

أما الموصلات ، فيتحدث عنها الكاتب ، فيقول :

« لم تعرف افغانستان فى ذلك العهد الخط الحديدى ، وكانت الشوارع قليلة وبدائية ، أما الطرق المرصوفة ، فكانت محدودة فى مدينة كابل وحواليها ، ولم تكن القناطر على جانب كبير من الإحكام والمتانة ، وكانت تتضرّر فى أيام المطر ، وكان الإعتماد الغالب فى الحمل والنقل على الخيل والبغال والجمال ، وكانت المركبات والعربات محدودة فى كابل وجلال آباد ، أما السيارات فكانت مخصوصة للأمير حبيب الله خان ، وكان الأمراء والوزراء يركبون الخيل غالباً فكانت عندهم الجياد العتاق فى اصطبلاتهم .

وكان نظام البريد بدائياً فى البلاد ، وكان يستخدم غالباً فى نقل المراسيم والبلاغات إلى حكّام الولايات والمديريات ، وكان الناس يحملون الرسائل إلى أصدقائهم وإخوانهم إذا سافروا من مكان إلى مكان ، فكان الناس لا يلتجئون إلى مركز البريد إلاّ فى النادر ، وكان البريد يأتى من الهند مرتين فى الأسبوع أيام الصيف ، ومرة فى الأسبوع فى فصل الشتاء ، وكان هذا البريد يحمل بعض الجرائد ، وكان بين كابل وجلال آباد خط تليفونى واحد ، كان يشتغل جيداً أيام إقامة سموّ الأمير فى جلال آباد ، وكان مقصوراً على الأغراض الحكومية ، أما التلغراف ، فلم يكن له وجود فى البلاد »[١] .

(١) مذكرات ظفر حسن ايبك الجزء الأول ٥٦ — ٥٧ .

أما ما كانت عليه البلاد من استعداد للحرب، وما كانت تملكه من ذخائر ومعدات حربية، وسلاح حديث ، فيظهر ذلك من وصف الكاتب لوضع البلاد فى هذه الأيام العصيبة التى كان العالم يواجه فيها حرباً عالمية كبرى ، وكان يمتد لهيبها إلى أفغانستان ، يقول ظفر حسن :

« كان سلاح الجيش الافغانى فى دور بدائىّ جداً ، وكانت الفيالق فى العاصمة وحدها ، هى التى تحمل البنادق من الطراز الحديث ، وكانت عند الجيش رشّاشات محدودة ، وعدد من المدافع الحديثة ، وكان أكثر المدافع من الطراز القديم الذى يُشعل فيه الفتيلة ، ولم تعد تستخدم فى بلد راق متمدن ، ولم تعرف البلاد بعد نظام « إدارة الميرة للجيش » ، فكان أفراد الجيش يأخذون مرتبات شهرية لم تكن تكفى لأسرهم وعائلاتهم ، وكانوا مضطرين إلى أن يشتروا الدقيق ويطبخوا الخبز، ويهيّئوا الإدام ، ويجلبوا الحطب ، ويضيّعوا الشىء الكثير من أوقاتهم فى الطبخ وتهيئة الطعام »(١) .

أما العناية بالصحة والعلاج ، والوقاية من الأمراض والاوبئة ، فيعرف ذلك من الحقائق التالية :

« لم يكن يُوجد فى طول البلاد وعرضها إلاّ مستشفيان فى كابل ، أحدهما مستشفى مدنى والآخر مستشفى عسكرى ، يُشرف على الاول طبيب تركى ، وعلى الثانى طبيب هندى من لا هور »(٢) .

وفيما قدّمنا كفاية لمعرفة تخلّف هذه البلاد فى المدينة ، وعن ركب الحياة فى العالم المعاصر .

---

(١) أيضاً : ٥٩ .

(٢) أيضاً : ٦٣ .

وقد كانت هذه الحال فى افغانستان حين طفرت طفرة واسعة إلى الحضارة الغربية، ورفعت الحجاب بينها وبين الحضارة أخيراً ، وبدأت تهجم على الحضارة الغربية وعاداتها وتأخذها بنهامة وشغف .

وقد حدثت هناك ثورة فى الاوضاع فى خلال ٣٢ سنة ، فالمجتمع الافغانى الذى ثار على أمان الله خان الامير العريق فى الملك والشرف لأجل اصلاحات وتطويرات قام بها ، اضطرته تلك الثورة إلى التنازل عن العرش والجلاء الدائم ، أصبح هذا المجتمع الأفغانى يُقبل إلى المدنية الحديثة وأوضاعها المخالفة للتقاليد الإسلامية الافغانية بخُطى سريعة واسعة ، وأصبحت أفغانستان المحافظة المصونة تتطور تطوراً سريعاً لا يعرف أحد مداه ونهايته ، ويستطيع الإنسان أن يقدِّر ذلك بما نقدمه من تقرير لأحد الصحفيين الأوربيين ، يقول المراسل الأوربى الشهير Ritchie Golder للصحيفة الهندية الانجليزية Times of India وقد حضر عيد الاستقلال الأفغانى فى عام ١٩٦٣م فى عددها الصادر — ٢٨ يوليو ١٩٦٣ م — :

« إن الألعاب النارية الواسعة النطاق (التى لم أرها فى أفغانستان من ذى قبل) كانت تثير هتافات وتصفيقات نصف مليون متفرج ، وهكذا كانت أفغانستان تحتفل بأسبوع عيد استقلالها ، وقال لى وزير خارجية أفغانستان (الذى كان بجوارى على المقاعد الملكية على شاطىء البحيرة حيث كانت الألعاب النارية متواصلة مستمرة): إنك لم تحسن اختيار الوقت الذى تزور فيه هذه البلاد ، نحن نحتفل الآن بعيد الاستقلال ونحن فى متعة وفرح لا نستطيع أن نتحدث معك عن تفاصيل مشاريعنا التقدمية لخمس سنوات .

قلت له : « لا ياصاحب المعالى ! إنها فرصة حسنة لائقة وهى أفضل مناسبة لاختبار مآثر بلادٍ ومدى تقدمها ، انى أريد أن أرى السيدات الأفغانيات باسمات » وهنالك تقدمت إلينا فتاة أفغانية جميلة وابتسمت .

إن ذلك يلقى ضوءاً على مدى التطور الذى نشأ فى أفغانستان أقوى من الأضواء التى تنير كابل ، بالتخطيط الكهربائى ، ومن مبانيها كلها والصناعات الحديثة ومن الرقى المادى كله .

كانت نساؤها متمسكات بالحجاب قبل ثلاث سنوات ، وإن سمح لهن أن يخرجن لمثل هذه المناسبات ، فكن يأتين إليها متغطيات بالملاءة والأردية التى تغطيهن من الأرجل إلى الرؤوس ، ويخفى وجوههن القناع الذى فتحت فيه ثقوب للنظر .

ولكن الآن تغير كل شىء ، ويشاهد اليوم عدد كبير من النساء اللواتى يشهدن الحفل مستترات بالأقنعة التى تميزهن ولم يتعودن إلى الآن أن يكشفن وجوههن بحرية وانطلاق ، ولكن الأغلبية الساحقة من النساء أصبحن سافرات .

يعسر على الذين يسكنون خارج افغانستان أن يقدروا مدى تأثير هذا التطور على نساء الأفغان ، قد خلع العلماء الملك أمان الله خان وحرم عرش آبائه قبل ٣٢ عاماً لأنه سمح لعقيلته بأن تخرج سافرة .

ويصح أن يقال أن إلغاء الحجاب السائد فى المجتمع إنما جاء عن طريق نظام القابلات ودور الولادة الطبية ، عندما حلت الدكتورة اينا ميريا جيد (Anna Maria gada) (وهى الآن رئيسة المركز الإقليمى لدائرة الصحة الدولية بدهلى) افغانستان من الدانمرك قبل عشر سنين ، ولم تكن هناك فى ذلك الحين طبيبة للتوليد ، وكان فى افغانستان كلها مئة وعشرون طبيباً وكلهم كانوا رجالا ولم يسمح لطبيب أن يفحص النساء ، ولم تكن القابلات المحليـة يعرفن بتاتاً طرق المعالجة الحديثة .

بدأت الدكتورة جيد تربى النساء وتعلمهن القبالة ، وكانت تشترك معها سيدات

الأسرة الملكية أيضاً وأُقيمت مراكز التوليد والصحة ، وبدأت تتردد عليها النساء المحجبات كثيراً ولم يتمتعن هناك بفوائد جسمية وصحية فحسب ، بل نشأ بذلك تطور ثورى وتغير جذرى فى التفكير وأساليب الفكر والنظر ، بل عرفن بعد الاجتماع مع الطبيبات والقابلات أن النساء يستطعن أن يكسبن أرزاقهن أيضاً بهذه المهنة كالرجال ، واسترعت هذه المراكز الطبية انتباه المريضات إلى خطورة شخصياتهن وشعرن انهن لسن من أثاث المنازل الذى يبقى فى زوايا البيت ولا يرى ضوء الشمس .

وقد أسست اليوم مستشفيات راقية ممتازة لهؤلاء النساء وألقيت مسئولياتها وإدارتها على كواهل نساء أحرزن شهادات عالية ، يتمسكن بقوانين الصحة وأسسها القوية الحسنة وبغاية من النظافة والأناقة ، ويراعين تلك التقاليد التى تركتها الدكتورة (جيد) ويرتبطن بها ارتباطاً وثيقاً .

بدأت نساء الأفغان يخرجن سافرات من آب (أغسطس) عام ١٩٥٩ م إثر منشور ملكى سمح للنساء بالسفور ولم يفرض ذلك عليهن فرضاً ، سألت السيدة معصومة الكاظمى وكانت قد تخرجت من جامعة كابل بشهادة الليسانس الداخلية فى العلب وكانت صورة حية للظرف وخفة الروح مليئة بالحياة ، ماذا فعلت بعد صدور هذا المنشور ؟ . .

قالت : إننى وأختى طرحنا الملاءة وأردية القناع فى التنور وسجرناها وحلفنا أننا لا نرجع إليها أبداً ، إن معصومة وأختها فيروزة أبنتا صاحب مصرف وأنهما متكملان دراستهما الطبية وتحرزان شهادة الدكتوراه فى سنة ١٩٦٥ م ، وسيتخرج الفوج الأول للطبيبات بعد إنهاء مناهج الطب لسبع سنوات عام ١٩٦٤ م .

ويوجد التعليم المختلط فى جامعة أفغانستان اليوم ، وكانت الطالبات فى السابق ، يأتين متغطيات بالأردية والملاءة الساترة ويدرسن فى الصفوف المستقلة المنقطعة عن الطلاب ،والدراسة والتربية فى الجامعة مجانية ، تدفع الحكومة الرسوم الجامعية والكتب والملابس والأطعمة ، وسيتخرج عدد كبير من الطالبات من الجامعة و يُعيّن معلمات فى الجامعة ، والجامعة الآن فى حاجة ماسة ملحة إلى الأساتذة الرجال والنساء ، لأن الدراسة فى الجامعة تعتمد إلى حد كبير على الأساتذة الأجانب (١) .

وقد اتفق للمؤلف أن يزور أفغانستان فى سنة ١٣٩٤ هـ (١٩٧٤ م) ، وأن يشاهد الأوضاع هناك بعينه ، وقد أبدى الملاحظة التالية فى رحلته التى أسماها « من نهر كابل إلى نهر اليرموك » يقول فى هذا الكتاب ، وقد ذكر حديثاً مع السيدات الأفغانيات المتجددات :

« لاحظنا أن المدنية الغربية قد قطعت شوطاً بعيداً فى هذه البلاد ، وأن الثقافة الغربية قد آتت أكلها يانعة ناضجة ، وأن المسافة بين الفترتين ١٩٢٨م — ١٩٧٣ م كانت واسعة بعيدة فقد كان الشعب الأفغانى إلى عهد أمان الله خان متمسكا بالتقاليد الإسلامية الأفغانية عاضاً عليها بالنواجذ ، حتى بلغ فى ذلك حد التطرف والمغالاة ، وكان نتيجة ذلك أن خروج الملك أمان الله خان عن بعض هذه التقاليد أحدث ثورة أطاحت بعرشه ، أما الوضع الآن فمختلف جداً ، أنها مسافة قصيرة بالحساب الرياضى ، وهى مدة خمس وأربعين سنة ، ولكن للمسافة الفكرية والثقافية ، هى مسافة شاسعة يقطعها بعض الشعوب فى قرن ، فقد أصبح الحجاب الآن رمزاً للتخلف والجهل والفقر ، ولذلك انكمش ولجأ إلى القرى والأرياف ، وبيوت بعض العلماء المحافظين ، والفلاحين البعيدين عن العاصمة :.. وعلى كل فقد اتسعت الفجوة بين الطبقتين ، طبقة العلماء ممثلى الدين ،

---

(٢) Times of India, 28 July 1963

والطبقة المثقفة ، واتسع الخرق على الراقع (١) » .

« وكانت المناقشة فى ندوة نسبية فى « كابل » حادة فى موضوع الحجاب ، وتعدد الزوجات وحق الرجل فى الطلاق ، وقد دل كل ذلك على القلق الفكرى الشديد الذى يوجد فى المجتمع النسبي الأفغانى ، ومدى تأثير الدعاية الأجنبية فى ثقافته (٢) .

اليمن :

وتكاد تكون هذه قصة اليمن ، وجميع الأقطار الإسلامية التى أقامت حولها سوراً عالياً يمنع من دخول كل جديد ، من العلوم المفيدة والتنظيمات الصالحة ، والوسائل البريئة وطرق ترفيه الشعب ، وتقوية البلاد عسكرياً وصناعياً وتموينياً .

وتستطيع أن تقدر إلى حدما حالة اليمن ، ومشاريعها التقدمية ونظمها الإدارية الداخلية وعلاقاتها الدولية ، وسيرها فى مضمار الحياة الراقية الحديثة إلى عام ١٩٥٥م ، من المعلومات التالية التى التقطها المشرف على ركن الشؤون العربية فى مجلة «روز اليوسف» الأسبوعية المصرية « الأستاذ ممدوح رضا » فى مقابلة صحفية مع نائب وزير خارجية اليمن السيد محمد عبدالله العمرى ، ونشرتها الصحيفة فى عددها الصادر فى ٧ فبراير (شباط) سنة ١٩٥٥م محادثة جرت بينهما ، ونصل منها إلى حقائق تالية :

« لم يجر فى اليمن إحصاء عام منظم إلى عام ١٩٥٥م وكانت وسائل الدخل مقصورة على الضرائب والجمرك ، وكانت الزراعة وحدها وسيلة العيش والحياة لسكانها ، وللرى طريقان اثنان فحسب : الأمطار والآبار ، وكانت ميزانية البلاد السنوية خمسة عشر مليون ، وكان رصيد البلاد وثروة الإمام الخاصة لا تتجاوز ٨٠ مليون جنيه .

---

(١) ص ٢٦ — ٢٧ ، طبعة دار الهلال .
(٢) أيضاً ، ص ٢٩ .

ولم تكن فى البلاد شوارع عامة ، وفتح شارع طويل يمتد ١٢٠ كم بين البلدين «مخا» و «تعز» قبل زمن يسير ، ولم يكن تاماً مبلطاً إلى سنة ١٩٥٥م .

وكان ستمائة كتاب فى البلاد ، وكانت مدارس ابتدائية فى جميع المدن ماعدا هذه الكتاتيب ، والمدارس الثانوية فى تعز ومخا والحديدة ، وكانت للجيش أنواع ثلاثة ، والعسكر الذى كان يؤدى خدماته يتكون من ستة ضباط ، والعسكر الثانى الذى ترك بعد التدريب للاحتياط والأعمال العرفية ، كان يتكون من ١٤ ضابطاً ، وكان عشرون ألف جندى من القبائل المختلفة ، والحيوانات هى وسيلة المواصلات ، وكانت بعض السيارات الخاصة فى البلاد ولم تكن أية طائرة عسكرية ، وكانت إحدى عشر طائرة فحسب ، بينها ثلاث طائرات من قسم « دا كوتا » ولم يكن فندق ولا مطعم فى البلاد ، ولا معمل ولا الشرطة ، وقد اتفقت الحكومة مع بعض الشركات الأوربية للتنقيب عن الفحم والبترول والزيت » .

إن هذا الانحطاط والتخلف للبلاد وظروف الدنيا المحيطة بها ونهضة البلدان المجاورة لها اضطرت الحكومة إلى أن تأخذ ببعض أسباب الرقى والتطوير والإصلاح ، وكان لذلك سبيل واحد هو المساعدات من البلاد الراقية ، فاتفقت حكومة اليمن مع الاتحاد السوفيتى وجمهورية الصين الشعبية بمعاهدات مختلفة ، ومنحت تلك الدول حكومة اليمن قروضاً ضخمة ، تولت مسؤوليات بعض المشاريع الإنمائية الخطيرة ، ولذلك قبلت الصين عام ١٩٥٨م على إثر معاهدة أن تدفع لليمن سبعين مليوناً من الفرنك السويسرى ، بدون الربا والمنافع ، وتنفق فى المشاريع التالية :

١ — فتح شارع بمسافة ٥٠٠ كم ، يصل الحديدة بصنعاء .

٢ — تأسيس معمل للسكر . ٣ — معمل للأسماك المجففة .

٤ — تأسيس معمل للأقمشة . ٥ — تأسيس معمل للزجاج (١) .

لم يكن مصير هذا التخلف والبعد عن الركب النشيط المتحرك السائر (الذى لم يكن مؤسساً على المشروع والتخطيط المحكم ولا منبعثاً من الثقة والعاطفة الدينية، ولكن من الكسل والفتور والجهل الذى خيم على هذه البلاد المنجبة الغنية زمناً طويلا) إلا أن يفتح هذا الباب المغلق على مصراعيه بفعل العواصف والتيارات الجارفة ، فلا يميز بين الصالح والطالح والحابل والنابل وبين القشور واللباب ، ويجرف تيار الحضارة الحديثة والنظم الجديدة بمحاسن النظام القديم والأفكار الصالحة والقيم السليمة ، ويصاب اليمن (الذى كان يسمى « اليمن الميمون » وشهد بقوة إيمان أهله ، وحكمتهم الدينية ، اللسان النبوى الصادق بكلمات يغبط عليها اليمن كل قطر وكل بلد إسلامى ، فقال فى مناسبة قدوم وفد من اليمن : « أتاكم أهل اليمن أرق أفئدة وألين قلوبا ، الإيمان يمان ، والفقه يمان ، والحكمة يمانية » (٢))يصاب هذا البلد العريق فى الإيمان والحكمة والعلوم الدينية، بالاضطراب الفكرى والخلقى والسياسى ،ويصبح ضحية الاشتراكية ، والحروب الطاحنة والثورات المتوالية .

وقد أبدى مؤلف هذا الكتاب قبل أن تحدث هذه الثورة فى أوضاع اليمن بإحدى عشرة سنة تخوفه وإشفاقه من هذا المصير الذى سار إليه اليمن أخيراً ، فى حديث جرى بينه وبين سيادة القاضى محمد عبدالله العمرى وكيل وزارة الخارجية اليمنية،وذكر له الطريق المتزن المتوسط الذى يجب أن يسلكه اليمن فى الاقتباس من الحضارة الغربية ، الذى يستطيع وحده أن ينقذ البلاد من التطرف المتهور الذى وقعت فيه الأقطار الإسلامية الأخرى ، وكان هذا الحديث فى فندق « قصر الجزيرة » فى القاهرة ، وهنا ننقل قطعة

---

(١) اليمن — للاستاذ أمين سعيد ص ٢٨١ .

(١) صحيح البخارى .

من كتاب « مذكرات سائح فى الشرق العربى » للمؤلف :

يقول الكاتب فى مذكرة يوم الثلاثاء ٧ / ٥ / ١٣٧٠ هـ ٢/ ٢/ ٥١ م بعد ما يذكر لقاء لسعادة وكيل وزارة الخارجية اليمنية وما جرى بينهما من تحيــــة واحتفاء وحديث تمهيدى :

« قلت لسعادته : إن الأقطار العربية قد أصبحت لا تملك من أمرها شيئاً فهى مندفعة مع التيار الغربى وليس لها الخيار ، أما اليمن فلا يزال على اختياره ولا يزال يملك أمره ، فأرجو أن لا يستعجل ولا يتهور فى الاقتطاف من الحضارة الغربية ونظم تعليمها ومنهج حياتها ولا يتساقط عليها تساقط الظمآن على الماء ، أو الفراش على النور ، فيختار منها ما يوافق حياته ودينه وطبعه ورسالته ، ويدع فضولها وشرورها ، وقد عاش اليمن فى العزلة عن العالم وهو يعتقد أنه تخلف عن الركب ، فأخاف أن يستعجل السير ليلحق بالقافلة فيعثر أو يضل الطريق ، ويقع مالا يمكن تداركه ولا تقال عثرته .

قلت : ودعامة الحياة الصحيحة عندى فى البلاد الإسلامية وجود الشعور الدينى الصحيح القوى فى الشعوب ، ولا يكون هذا إلا عن طريق الدعوة العامة والاتصال بالشعب وتربيته الدينية ، وإيجاد الوعى فى طبقاته .

والدعامة الثانية : منهاج التعليم الصحيح ، والجمع بين العلم المأخوذ من الوحى والنبوة الذى لا يتطرق إليه الخطأ ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو علم كل عصر وأساس كل حياة ومدنية فاضلة ، وبين العلوم الطبيعية والمعلومات العصرية ، والتجارب والاكتشافات التى سبق إليها الغرب وانتصر بها على الشرق .

وأرجو أن يوفق اليمن للجمع بين هاتين القوتين ، وإذ نرجو أن يكون له شأن

غير شأن الأقطار العربية

وقد أبدى مثل هذه

« اليمن على العتبة » (d

عام ١٩٥٩ م فى عهد الإما

أعرب هذا المؤلف عن فر

« — إن الناس هنا يبدون فرحين مستبشرين رغم أنهم لا يملكون كثيراً من مرافق الحياة ووسائل الترفيه ، ولا يحنّون إليها كذلك ، وقد حاول المرحوم الإمام يحى والإمام أحمد الحالى[٢] أن يظل الباب مغلقاً لكل جديد مع شعورهما بأن تيارات العصر الحاضر الجارفة ستحدث فى حياة اليمن — التى اعتادتها — كثيراً من التطوير الذى يأتى بنتائج خطرة ، ونجحا فيه إلى حد كبير ، ولكن يُشك فى أن تبقى هذه الأوضاع إلى مدة طويلة .

إن العصر الحديث يقرع أبواب اليمن ، وقد دخلت الطائرات والسيارات ، والهاتف والإذاعة والأضواء الكهربائية فى البلاد ، وستصلها الأشياء الأخرى على إثرها سيحدث هذا الاصطدام تبلبلاعظيماً وستدخل مرحلة انتقالية ،ولا ندرى أن هذه المرحلة ستمر بدون اضطراب، أم تنشىء فى البلاد الفوضى والقلق ؟ يعتمد ذلك إلى حد كبير على السبيل التى يختارها ، والخطوة التى يخطوها اليمن لتأليف حكومة على طراز جديد ، تكون مؤسسة على التنظيم الاقتصادى العصرى ! يجب أن تقطع هذه المرحلة الانتقالية تدريجياً إلى حكمة بليغة وبصيرة نافذة ، وأن تكون الخطوات البدائية متزنة والطرق التى تتخذ لتقدم البلادسليمة مستقيمة[٣]

---

(١) مذكرات سائح فى الشرق العربى ٧٠و٧٢ .

(٢) قد توفى أيضاً رحمه الله .

(٣) Yeman on the threshold p. 71

وبعدما ذكر المؤلف المشاريع والنظم والتطورات الجديدة الرئيسية الهامة التى يتخذها لتدعيم البلاد ، ويتحدث عن الخبراء الفنيين الذين يستطيعون أن يقدموا لبناء البلاد القويم المحكم وترقيتها اقتراحات صحيحة مخلصة ، يدعو إلى الانسجام السليم بين المادية والروحية ونهضة البلاد المقتصدة ، الذى كان متوقعاً من مفكر مسلم شرقى أكثر من عالم غربى ، فيقول :

« — لاريب ان اليمن سيحاول للرفاهة والسعادة فى نطاق الاقتصاد محاولة جادة ، ولكن يجب أن يكون ذلك مع المحافظة على التراث الدينى والروحى القيم ، ولا يستطيع الرقى المادى وحده أن يداوى الأمراض الإنسانية ، وأن يمنح الإنسان السرور والطمأنينة بسرعة ، تجرب ذلك البلاد التى وصلت إلى القمة فى الرقى والنهضة كل يوم بكل أسف وحزن ، وحينما يحافظ على القيم الإنسانية الأساسية ويحتل التراث الدينى والروحى مكانة مرموقة فى ضمائر الأفراد (الذين تتألف منهم الأمة) يصبح الرقى المادى نعمة كبرى ، وتثرى كل ناحية من نواحى الحياة .

إن اليمن يصبح « جنة عدن » لبلاد العرب التى يعيش فيها الناس بكل طمأنينة وهدوء إذا احتفظ بحكمته البليغة وبتراثه الروحى الثمين واقتناء قدر من الرقى المادى الذى يحتاج إليه وينسجم مع حياته وظروفه ، ويستطيع أن يساهم اليمن بهذا الانسجام الحسن بين الحكمة والنهضة مساهمة مقتصدة ليس فى ترقية العالم الإسلامى فحسب ، بل فى ترقية العالم كله على الجملة(١) » .

ولقد كان الوعى الإسلامى كافياً وكافلا لإصلاح هذه الأوضاع ولكنه كان ضعيفاً أو مغلوباً على أمره ، حتى جاءت هذه الحضارة المادية الثائرة تنادى فى شىء كثير من الغلو والإسراف بالحرية والمساواة ، وتدعو إلى قلب الأوضاع القديمة مهما

---

(١) Yemen on the threshold p. 74

كانت ، فتفشى القلق والتـذمر فى هذا المجتمع ، قوى الشعور وتضخم بفساد هذه الأوضاع وعدم صلاحيتها للبقاء ، وجاشت النفوس بالكراهة والثورة على الأوضاع القائمة مهما كانت عاقبتها ، وهذا سر ظهور الثورات العسكرية فى الاقطار الإسلامية ثورة بعد ثورة وحكم عسكرى على أثر حكم عسكرى آخر .

سبب حدوث الثورات فى العالم الاسلامى وعلاجه :

ولعل العالم الإسلامى كان أكثر استعداداً وتهيؤاً لهذه الثورات لوجود الوعى الدينى الذى يبعث على القلق والإنكار فى هـذه البلاد أكثر من عالم آخر أو مجتمع آخر ، أو لفساد الأوضاع فيه أكثر من أى ناحية ، وما دام التخلف فى الحياة والقوة ، وما دام الفقر المدقع فى بعض الطبقات الذى لا يجد معه صاحبه ما يقيم الصلب ويكسو العورة ويمسك الرمق ، وما دام الثراء الفاحش ، والاكتناز المجرم ، والعبث بالأموال إلى حد السفاهة والجنون ، وما دام الترف والفجور والاستهتار فى طبقات الأمراء والأغنياء تروى قصصه المضحكة المبكية فى كل ناد وكل صحيفة ، وما دام الجهل ضارباً أطنابه على الشعب ، وما دام العلماء وزعماء الدين يتقاصرون عن أداء واجبهم الدينى ، وإزجاء كلمة الحق أمام الأقوياء والأغنياء ، ويتنافسون فى المناصب والوظائف ، ويتصارعون على التافه من الخلافيات ، والخسيس من المـــادة ، وحكاياتهم تروى وتتناقل ، وما دامت التربية الدينية والأمثلة العملية — فى الورع والزهادة وسمو النفس والشجاعة الدينية — مفقوده ، أو نادرة فى حكم المعدوم ، وما دامت الدعايات والدعوات تتسرب إلى المجتمع وتجد مرتعاً خصباً فى النفوس ، وأدلة ومؤيدات فى الأوضاع ، وما دام هذا الوضع غير الطبيعى وغير الإسلامى سائداً فى هذه الأقطار الإسلامية .

وكان وضع كثير من الأقطار الإسلامية كما صوره شاعر تركيا الإسلامى الكبير محمد عاكف فى إحدى قصائده وهو قوله :

« — يسألنى الناس : إنك كنت فى الشرق مدة طويلة ، فما الذى شهدت يا ترى ؟ وماذا عسى أن يكون جوابى ؟ إننى أقول لهم :

إننى رأيت الشرق من أقصاه ، فما رأيت إلا قرى مقفرة ، وشعوباً لا راعى لها ، وجسوراً متهدمة ، وأنهاراً معطلة ، وشوارع موحشة ، إنما رأيت وجوهاً هزيلة متجهمة وظهوراً منحنية ، ورؤساء فارغة ، وقلوباً جامدة ، وعقولا منحرفة ، رأيت الظلم والعبودية ، والبؤس والشقاء ، والرياء والفواحش المنكرة المكروهة ، والأمراض الفاشية الكثيرة ، والغابات المحرقة ، والمواقد المنطفئة الباردة ، والحقول السبخة القاحلة والصور القذرة ، والأيادى المعطلة ، والأرجل المشلولة ، رأيت أئمة لا تابع لهم ورأيت أخاً يعادى أخاه ، ورأيت نهاراً لا غاية له ولا هدف ، ورأيت ليالى حالكة طويلة لا يعقبها صباح مسفر ونهار مشرق » .

فإنها مهددة — لا محالة — بالفوضى الخلقية والسياسية ، معرضة للثورات العسكرية أو الشعبية ، واقفة على فوهة بركان ، متهيىء للإنفجار فى أى وقت كان .

ولا يمنع من ذلك سلطة قوية أو عقاب صارم ، أو محاسبة دقيقة ، أو مراقبة تحاسب الناس على الأنفاس ، وتتبع الخواطر والهواجس ، ولا دعايات صحفية أو إذاعية ولا بذل أموال طائلة على أصحاب الأغراض والمطامع ، ولا مآدب سخية فى السفارات ، ولا مشروعات ترضى أصحاب العاطفة الدينية . إنما سبيله مواجهة الحقائق بشجاعة وعلم ، وإصلاح الاوضاع بإخلاص وصدق ، وإزالة ما يجب إزالته من الفساد . وتحقيق ما يجب تحقيقه من المطالب . وتحقيق العدالة الإجتماعية كما أمر بها الإسلام وثبت فى صريح القرآن وصحيح السنة . والسعى الحثيث لرخاء الشعب . وأن يجد كل فرد من أفراد الشعب — بقدر الإمكان — قوته ومنع البذخ الذى يحول بين الشعب وقوته و « حاجياته » . وان يسبك نظام المعارف سبكا جديداً يتفق مع عقيدة هذه البلاد

ورسالتها . ومع تطور العصر الحديث وعلومه الجديدة . ويخلق فى الجيل الجديد الإيمان والخلق والاستقامة والثقة بالنفس . والاعتزاز بالدين والحماسة فى سبيله . ويخلق فيه روح الابتكار والاستقلال الفكرى . والعصامية ومواجهة الغرب بشجاعة وذكاء . وإعادة الروح الدينية والإيمان القوى . والشعور الخلقى والوعى الاسلامى فى الشعب . وإزالة القلق والتذمر بإزالة أسبابها ودواعيها . وبإصلاح الأوضاع والسير والاقتباس من الغرب ما يصلح لشعب إسلامى . ويتفق مع عقيدته السمحة . وما له قيمة عملية إيجابية وما يقوى الشعب وينفعه فى كفاح الحياة والجد والدعوة إلى الله .

هذا هو السبيل الوحيد لإقرار الأمن والسلام فى هذه المناطق الشرقية الإسلامية . وبقاء هذه الشعوب على إسلاميتها وعقيدتها وسيرتها الدينية . وبعبارة علمية مركزة « إن العالم الإسلامى وأقطاره فى حاجة إلى بناء مجتمع إسلامى تقدمى عادل تستطيع فيه الطريقة الاسلامية فى الحياة أن تعبر عن نفسها تعبيراً عملياً وثقافياً (١)

(١) استفدنا فى هذا التعبير من بعض ما جاء فى كتاب « الطريق إلى مكة » للاستاذ محمد أسد ص ٢٢٠ .

الموقف الثاني

حركة التغريب و«التقدمية» في العالم الإسلامي

أنصارها ومنتقدوها

موقف الاستسلام والتقليد :

والموقف الثانى ، موقف الإستسلام والخضوع الكامل ، موقف المقلد ، المؤمن المتحمس ، والتلميذ البار الصغير الذى لم يبلغ بعد سن التمييز ، وهو أن يقبل العالم الإسلامى أو جزء منه — هذه الحضارة — المادية الآلية ذات الطبيعة الخاصة بحذافيرها ، يقبلها بعقائدها الأساسية ، ومناهجها الفكرية ، وفلسفاتها المادية ، ونظمها الاقتصادية والسياسية التى نشأت واختمرت فى بيئة بعيدة عن بيئة هذه الأقطار تحت ضغط عوامل وحوادث خاصة ، وبتوجيهها ، ويحاول تطبيقها فى هذا البلد الإسلامى برمتها ، ويتحمل فى سبيل ذلك كل صعوبة وعنت ، ويدفع له أعظم ثمن ، وأبهظ قيمة .

حركة « التغريب » فى تركيا ، وأسبابها :

وقد سبقت — إلى هذا الأسلوب من التفكير والمنهج من العمل — تركيا الإسلامية وكان ذلك نتيجة طبيعية لعوامل كثيرة ، ورحلة طويلة ، فقد حاربت أوربا مدة طويلة من غير أن تستعد لهذه الحرب ، وتتسلح بسلاح عدوها العلمى والصناعى ، وفرّطت فى اقتباس العلوم المفيدة من أوربا والصناعات والفنون الحربية والتنظيم الإدارى تفريطاً مجرماً ، وأبدى العلماء وزعماء الدين ضعفاً وقصوراً فى توجيه الأمة والبلاد توجيهاً علمياً وفكرياً ، وفى الاشراف على اتجاهاتها التى يفرضها الزمان والمكان ، وتغيّر الأحوال فى العالم كله ، وتقرير الصالح منها ، وتزييف الطالح ، ووقفوا على ما وقف عليه العلم والمعرفة والتفكير فى القرن الثامن عشر ، وفوق كل ذلك فقد استغل السلاطين — إلا من عصم ربك — اسم الدين واسم الخلافة لصيانة مصالحهم الخاصة ، وتحقيق رغباتهم ، وكانوا

من أسباب تأخر البلاد ، والهزائم والانتكاسات التي تحققت بالأمة ، وممالأة الأعداء في أحيان .

إن هذه الجوانب وإن كانت شخصية أو فردية ولكنها لم تكن سراً مكتوماً وكانت تثير السخط والكراهة في نفوس الشباب والحريصين على سلامة والبلاد مجدها

المرحلة الدقيقة العسيرة :

إن المحنة التي كانت تواجهها تركيا في أواخر القرن التاسع عشر مع أنها كانت أول تجربة لبلد إسلامي من نوعها ، وكان قدمر المجتمع الاسلامي من قبل بنوعين من التجارب:

كانت التجربة الأولى التي مر بها المجتمع الاسلامي في القرنين الأول والثاني ، هي أن المجتمع الاسلامي كان قويا فتياً دافقاً بالحيوية وصلاحية التقدم ، وكانت ترافقه حركة لا تزال في سبيل الغزو والانتصار ، وكانت بإزائه الحضارتان القديمتان العظيمتان ، إحداها : الحضارة الرومية واليونانية في الغرب ، والثانية : الحضارة الايرانيه في الشرق ، وكانت الحضارتان غنيتين في العلوم والصناعات والثقافة والأدب والنظم الفلسفية ، وفي أرقى أساليب المدنية والاجتماع ، والمجتمع الاسلامي الذي كان بعيداً عن كل من أنواع « مركب النقص » وحافلا بالثقة والاعتداد بالنفس ، اقتطف من هذه الذخائر ما يلائمه وينسجم مع طبيعته ويفي بحاجته ، بدون أن يصاب بالرق الفكري والدهشة والخضوع الزائد ، أخذ جميع ما يناسبه ويجدر به ، والذي رآه غير جدير به صاغه في قالبه أولا ثم وضعه في مكانه ، ولم يجن هذا الاقتطاف المحدود والتاقي على روح ذلك المجتمع ونزعاته الخلقية لاستقلاله وسيادته .

والتجربة الثانية هي التي مرّ بها هذا المجتمع الاسلامي في القرن السابع عندما استولى التتار على قلب العالم الإسلامي ومركزه ، وأصبح المسلمون خاضعين لهم ومفتوحين سياسياً وواجه المجتمع الإسلامي في ذلك الحين فاتحاً كان فقيراً قليل البضاعة في الحضارة والمدنية

والعلم والصناعة والقانون والتشريع . لم تكن لديه حضارة ولا فلسفة للحياة . وكان من الناحية المدنية والاجتماعية والرقى الفكرى فى حالة بدائية شأن الأمم الوحشية وسكان الصحارى . لذلك لم يكن هناك أى معنى للخضوع والتلمذة وانصهار المجتمع الإسلامى المفتوح فى حضارة الفاتح ومدنيته وفلسفة حياته وأفكاره وقيمه ، بالعكس من ذلك بدأت الأمة الفاتحة تتأثر يوما فيوما بالأمة المفتوحة . تتأثر شيئاً فشيئاً بحضارتها ومدنيتها وعلومها وطرق حياتها الراقية وآدابها الجميلة الواسعة وعقائدها الدينية السامية وأفكارها النبيلة . وأخيراً اعتنقت تماما دين الأمة المفتوحة وحضارتها . وصارت بعد أن اصطبغت بصبغتها حامية الإسلام ورفعت رايته بحماسة وتفان .

ولكن الوضع الذى واجهه الأتراك العثمانيون فى أواسط القرن التاسع عشر كان يختلف عن التجربتين السابقتين ، إنهم وإن كانوا يحكمون مملكة حرة واسعة الأرجاء ، ولكنهم فقدوا — إلى حد — روح الثقة بالنفس وعرفان الذات ، بمر العصور وكر الليالى والدهور، لم يكن فيهم حماس القرون الأولى ولا قوة الإيمان واليقين ، وإزاء ذلك كانت الحضارة الغربية فائضة بالروح الجديدة والطاقات الجديدة وممتلئة بالحماس الجديد والآمال الجديدة ، كانت قد حملت معها ثورة صناعية وعلمية وفكرية كانت تتوسع آفاقها ونطاقها يوما فيوما ، ولم يكن يستطيع الأتراك أن يغمضوا أعينهم عنها وكان مركز حكومتهم فى قلب أوروبا ، ولم يكن لهم سابق لمثل هذه التجربة فى التاريخ الإسلامى الماضى ، ولا يجدون توجيهاً للتغلب على هذه المشكلة من تجارب الأمة الماضية وتاريخها الطويل ، فإن الوضع الذى كانوا يواجهونه كان بدعاً وكان وليد ظروف وعوامل خاصة وزمن خاص ، ولا يساعدهم فى ذلك العالم الإسلامى المعاصر الذى لم يجرب هذه المحنة من قبل ، وكانت أنظار قادته متجهة إلى تركيا ، كيف تخرج من هذه المحنة وكيف تتغلب على هذه المشكلة وأى طريق تختاره ؟

وكان الخروج من هذه المرحلة الدقيقة بنجاح يحتاج إلى ذكاء وقاد ومعرفة صحيحة

عميقة للإسلام والحضارة الغربية فى وقت واحد ، وشجاعة أدبية وبطولة ، وكان ذلك عملا عملاقاً فى الواقع ، وكان لابد لتركيا أن تعمله وكان العالم الإسلامى كله على استعداد تام لاتباعها والسير فى ركابها ، وكان يرتبط به مستقبل العالم الإسلامى الحضارى والفكرى الدينى والسياسى ، إلى حد كبير ، ولم يكن ذلك يقبل أى تأجيل أو إهمال ، ولا يمكن أن تمر به تركيا مراً خاطفاً سريعاً .

الطائفتان القديمة والجديدة :

وكانت هذه المهمة الدقيقة إما تنوء بها الطائفه القديمة أو الطائفة الجديدة ، فقد كانت تركيا موزعة بين هاتين الطائفتين وهما اللتان تتوزعان القيادة والمسؤولية ، أما الطائفة القديمة فقد كانت مؤلفة من العلماء القدامى ، الذين لايعرفون مع الأسف المقتضيات الجديدة والتطورات الحديثة إلى حد كبير ، ولم تكن تعرف خطورة الموقف وضخامة الخطر الذى نشأ لتركيا بتأثير القوة الناهضة من أوروبا ، وكانت هذه الطائفه قد عارضت التنظيمات العسكرية والإصلاحات الجديده التى قام بها السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ — ١٨٠٧ م) وخليفته السلطان محمود (١٨٠٨ — ١٨٣٩ م) لتؤهل تركيا لمجاراة الشعوب الأوروبية عسكرياً وعلمياً ولمسايرة العصر الحديث .

أما الجيل الجديد ، الذى كان قد تلقى ثقافته فى عواصم أوروبا أو فى بعض الكليات العصرية فى تركيا ، فقد نشأ على الاستهانة بقيمة الدين واليأس من مستقبله ، وكراهة رجاله واحتقارهم ، وعلى تقديس الحضارة الغربية ، وفُقِد فى هذا الجيل العقل النابغ المتعمق الذى يقدر على نقد فلسفة الحياة الغربية ومعرفة جوانب الضعف فيها ،وجوانب الإفراط والتعارف ، ومعرفة مايصلح لتركيا الزعيمة للعالم الإسلامى اقتباسه والإفادة منه ، وما لايصلح ولا يتفق مع طبيعتها وتاريخها ومكانتها فى العالم ومركزها فى الشرق الإسلامى ،

وأكثرهم من نوع « العسكريين » والمعلمين الذين لم تكن ثقافتهم واسعة ولا عميقة ولا حرة[١] أو الذين انتهت بهم تجارب حياتهم الخاصة ، وما لقوا من العلماء و «المحافظين» من تثبيط أو عدم تشجيع ، وما جربوه فيهم من جمود وضيق تفكير ، وما رأوه فى الجيل المسلم القديم ، وزعمائه من النفاق ، يقولون مالا يفعلون ، وينهون عن شىء ويأتونه ، أو ماشاهدوه فى البلاد من تأخر وضعف انتهى بهم كل ذلك إلى الثورة على كل قديم، وعلى كل موجود ، وإلى التصميم على « تغريب » تركيا .

ضياء كوك الب وفلسفته :

ضياء كوك ألب ولد فى ديار بكر بعام ١٨٧٥ م أو ١٨٧٦م وكانت أسرته مرتبطة بوظائف رسمية رفيعة ، التحق بالمدرسة الثانوية لديار بكر بعد أن تخرج من المدرسة الثانوية العسكرية ، وكان له ولع خاص وشغف زائد بالأدب والرياضيات ، وكان على معرفة جيدة بالتاريخ ، وتلقى فى المدرسة نفسها اللغة الفرنسية والعلوم الشرقية ودرس بإشراف عمه الفاضل وتعاونه مفكرى الإسلام : الغزالى والرومى وابن عربى وابن رشد وابن سينا والفارابى وغيرهم ، وقد أعجب بكتاب « المنقذ من الضلال » للإمام الغزالى لأنه أيضاً كان يعانى صراعاً فكرياً ، وكانت الأفكار التى قامت عليها الثورة الفرنسية تسيطر على كثير من الشباب المثقف وتحرك مساكنهم ، وكان مدير المعهد الذى يدرس فيه ضياء

(١) تقول الفاضلة خالدة أديب خانم فى كتابها « الصراع فى تركيا بين الغرب والشرق » : كان أعضاء جمعية الاتحاد والترقى الشبان من صغار الموظفين الرسميين ، أو ضباطاً فى الجيش ، ولم يكن فيهم فى أول الأمر فرد واحد ، حائزاً على مكانة علمية سامية ، ويفهم الفرق بين العصر القديم والعصر الحديث فى ضوء التحليل والنقد العلمى . ولكن هؤلاء الشباب كانوا أقرب إلى الشعب وكانوا إنتاجاً وطنياً خالصاً ، وكان معظمهم من أهل مقدونية الذين اشتهروا بحب الواقعية والقوة ، ولا يتحاشون من شىء فى سبيل الوصول إلى غايتهم . لذلك رغم أنهم كانوا يهدفون إلى غاية نبيلة ، فقد كانوا يستخدمون جميع الوسائل للوصول إلى غرضهم من غير احتشام وتورع .

Conflict between East and West in Turkey p. 78-79.

يحمل أفكاراً حرة ويحب الحرية الفكرية والعملية، وكانت ديار بكر فى ذلك الحين مركز جماعة من الزعماء ومحبى الحرية الأتراك الذين نفوا عن البلاد، وارتبط معها ضياء بوشائج وثيقة متينة، وهناك قرأ ضياء مقالات لنامق كمال وضياء باشا وأحمد مدحت أفندى وغيرهم وازداد ارتباطه بالحركة السرية بعد قدوم عبد الله جودت، وكان دكتوراً كردياً ملحـــداً، وكان معجباً بهيجل (Haeckel) وبشنر (Buchner) واسبنسر (Spencer) ولى بون (Le Bon) إعجاباً كبيراً، وقد حدث لديه فى ذلك الزمن صراع العقيدة والعقلية بتأثير من أستاذ يونانى وأراد أن يطمئن ويخفف من قلقه بالفلسفة والتصوف الإسلامى ولكنه كما يقول : لم ينجح فيه، ووقـــع فى ارتياب وشك (Agnosticism) سافر فى سنة ١٨٩٦ م إلى قسطنطينية، ولم يجد منحة إلا فى كلية البيطرة (Veterinory College) ولكنه كان يشتغل بالسياسة أكثر من الثقافة والتعليم، لذلك انتخب عضواً لجمعية الاتحاد والترقى التى كانت تعمل فى السر كالماسونية، وقد أقصى من المدرسة لبعض مقالاته الثورية وألقى القبض عليه وفرضت عليه إقامة جبرية فى ديار بكر بعد إطلاق سراحه، ودرس فى هذه المدة دراسة عميقة، وكان له شغف وعناية خاصة بالفلسفة الغربية والفرنسية خاصة وعلم النفس وعلوم العمران، وأصبح بسرعة شخصية قوية رئيسية لجماعة أحرار ديار بكر ومحبى الانطلاق والحرية، وثارت هذه الجماعة فى عام ١٩٠٦ م ضد النظام الجائر والسلطات الإدارية يقودها ضياء، وبعد أن خُلع السلطان عبد الحميد خان فى عام ١٩٠٩ م وجد ضياء وزملاؤه فرصة سانحة للعمل، وأصدر جريدتين « بيام » و «Decle» .

وعندما آثر ضياء سالونيكا بالإقامة المستقلة، صار زعيما وطنياً لتركيا ووجد هنا فى ثغور تركيا الغربية فرصة اللقاء والتودد إلى المتنورين الأتراك، والأفاضل الغربيين، وترعرعت فيه فكرة الوحدة والتنظيم على أساس القومية التركية التى لم يكن الإسلام فيها عنصراً أساسياً (Factor) وقد انفصلت عن الحكومة التركية بعض الأقطار

الإسلاميه (ألبانية فى عام ١٩١٢ م والحجاز بعام ١٩١٦ م على أثر حرب البلقان ١٩١٢م. وظهر بذلك أن الحركة القومية والطورانية هى أقرب إلى الواقعية والعملية وكسبت أنصاراً أكثر ، وقد قوى وتوسع نطاق التأثير الفكرى لكوك ألب فى الجيل التركى الجديد عندما عين الأستاذ الأول لعلم الاجتماع بجامعة استانبول عام ١٩١٥ م (وذلك بمواهبه الشخصية وكتابة مقالات ، بلا شهادة عالية ولا تخرج فى جامعة) وقد اضطر عام١٩١٨م كالزعماء الوطنيين الأتراك إلى أن يغادر استنبول ، ولما انتصر مصطفى كمال فى عام١٩٢١م على اليونان أفرج عنه ، وعين بسنة ١٩٢٢ م رئيساً للجنة التأليف والترجمة ، وكان يؤيد مصطفى كمال بقوة وحماس ، وقد لعب دوراً كبيراً فى المعركة الانتخابية ، مع أن الأواصر الشخصية بينهما لم تكن عميقة قط ، ولما انتخب البرلمان فى سنة ١٩٢٣ م كان نائب ديار بكر ، وقد مرض بعام ١٩٢٤ م ، وأراد كمال أتاتورك أن يتكفل جميع تكاليف علاجه فى أوروبا ، ولكن كوك ألب اعتذر عن ذلك وطلب العناية بأسرته والعطف عليها ، وتهيئة وسائل لنشر كتابه عن الحضارة التركية ، وقد توفى ضياء فى ٢٥ من تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢٤ م فى الثامنة والأربعين أو التاسعة والأربعين من عمره ودفن بمقبرة السلطان محمود(١) .

إن ضياء كوك ألب دعا بكل قوة وصراحة إلى سلخ تركيا من ماضيها القريب ، وتكوينها تكويناً قومياً خالصاً ، وإيثار الحضارة الغربية على أساس أنها امتداد للحضارة القديمة التى ساهم الأتراك — على زعمه — فى تكوينها وحراستها ، يقول فى مقالة له :

« إن الحضارة الغربية امتداد لحضارة حوض البحر الأبيض المتوسط القديمة . وكان

---

(١) استفيد من كتاب : Fondations of Turkish Nationalism
لمؤلفه : (Heyd U.) .

مؤسسو هذه الحضارة — التي نسميها بحضارة البحر الأبيض المتوسط من الأتراك، مثل السومريين، والفينيقيين، والرعاة، لقد كان في التاريخ عصر طوراني قبل العصور القديمة، لأن سكان آسيا الوسطى القدامى كانوا أجدادنا، وفي زمن متأخر جداً رقى الأتراك المسلمون هـذه الحضارة ونقلوها إلى الأوربيين. وبتحطيم الامبراطوريتين الرومانيتين الغربية والشرقية، أحدث الأتراك انقلابا في تاريخ أوروبا. لذلك نحن جزء من الحضارة الغربية ولنا سهم فيها »(١)

ويذكر موجبات اعتناق الحضـارة الغربية وما يحدث ذلك من انقلاب. وما يفيض من قوة وروح جديدة، ومركز في العالم. وأنه لا يستلزم الانسلاخ من الدين القويم فيقول :

« حين تقطع أمة شأواً بعيداً في نشوئها، ترى من الواجب أن تغير حضارتها أيضاً. لما كان الأتراك قبائل رحالة في آسيا الوسطى دانوا بحضارة الشرق الأقصى. ولما انتهوا إلى عصر «السلطنة» دخلوا في مساحة الحضارة البزنطية والآن في طـور انتقالهم إلى إلى الحـكومة الشعبية، هم مصممون على قبول حضارة الغرب »(٢)

« إن شعوبا تدين بديانات مختلفة يمكن أن تدين بحضارة واحدة. إن اليابانيين واليهود يشاركون الأوروبيين في حضارة واحـــدة »(٣). وبعبارة أخرى فالدين والحضارة عنده شيئان مختلفان. لذلك من المغالطة أن تسمى « حضارة إسلامية » كما لايصح أن تسمى « حضارة مسيحية »، الدين محدود في العقيدة والطقوس التي لاصلة للفنون والعلوم بها، يقول :

---

(١) Turkish Nationalism and western Civilisation p. 297

(٢) أيضاً : p. 261

(٣) أيضاً : p. 269-270

« ليست هناك مؤسسة مشتركة بين الأحزاب والجماعات التى ترتبط بالأديان المختلفة فما كان الواقع أن الدين اسم لمجموعة من المؤسسات المقدسة والعقائد والتقاليد فحسب ، فالمؤسسات التى لاتحمل قدساً وتمجيداً دينياً (كالأفكار العلميـة التطبيقية والأدوات الصناعية ومُثلُ الجمال) تؤلف نظاماً مستقلا يخرج عن نطاق الدين ، والعلوم الإيجابية كالرياضيات والعلوم الطبيعية وعلم الحياة وعلم النفس والاجتماع والطرق الصناعية والفنون الجميلة لاتمت بصلة إلى الدين ، لذلك لايصح أى ارتباط لحضارة بالدين ، ليست هناك حضارة مسيحية ولا حضارة إسلاميـة ، فكما أنه لايصح أن تسمى الحضارة الغربية حضارة مسيحية هكذا بالضبط لا يصح أن تسمى الحضارة الشرقية حضارة إسلامية » (١).

ويضرب لهذه الخطوة الثائرة مثلا لروسيا التى احتضنت الحضارة الغربية الراقية ، رغم خضوعها للكنيسة المسيحية المتصلبة المحافظة الأرثوذكسية ورغم تمسكها بحضارة من الطابع الشرقى ، واستطاعت أن تقف بجوار الشعوب الغربية القوية الحرة :

« لما حرر الغربيون أنفسهم من رواسب القرون الوسطى كان المسيحيون الخاضعون للكنيسة الأرثوذكسية فى روسيا لا يزالون عبيداً لها ، وقد عانى بطرس العظيم صعوبات شديدة فى كفاحه لتحرير الشعب الروسى من سيطرة الحضارة البزنطية ، وتقديمه إلى الحضارة الغربية ، ولكى يعرف الإنسان ماهى الوسائل والأساليب التى يجب أن تستخدم لتغريب البلاد وطبعها بطابع الغرب يكفى أن يدرس تاريخ إصلاحات بطرس ، وكان الناس يعتقدون إلى ذلك الحين أن الروسيين لايصلحون للتقدم ولكنهم بعد الثورة بدأوا يتقدمون بسرعة زائدة ، ويقطعون شوطاً بعيداً فى ميدان النهضة ، وهذه الحقيقة التاريخية تكفى لإثبات أن الحضارة الغربيـة هى الشارع

(١) Turkish Nationalism and Western Civilisation. p 271 - 272

الوحيد إلى التقدم (١) » .

ثم هو يقرر أنه لابد للحرية والمحافظة على المجد القومى من امتلاك ناصية الحضارة الغربية والسيطرة عليها فيقول :

« علينا أن نختار إحدى الطريقين ، إما أن نقبل الحضارة الغربية أو نظل مستعبدين لقوى الغرب ، لابد أن نختار أحد الأمرين ، يجب علينا أن نسيطر على الحضارة الغربية لندافع عن حريتنا واستقلالنا (٢)» .

يحتل ضياء كوك الب مكانة خطيرة بين المؤسسين الفكريين لتركيا الجديدة ، إنه قدم الأساس الفكرى والفكرة الجديدة التى تأسست عليها الدولة الجديدة والمجتمع الجديد من الناحية الفكرية والأساسية ، وقد ذكر ذلك الأستاذ نيازى بركس فى مقدمة مجموعة مقالاته المختارة التى نشرها ، وقال إنه لاتزال تسيطر فكرته على أسس الإصلاحات الجديدة فى تركيا ، هو يقول :

ورغم أن ضياء كوك ألب توفى فى المرحلة البدائيه لتطوير أتاتورك الثورى ، ولكن توجد فى كتاباته أفكار تعتبر أسساً لتلك الإصلاحات وأن أفكاره فى موضوع الإصلاح الإسلامى قد جنت عليها العلمانية المتطرفة فى العهد الذى بدأ بعد وفاته . مع ذلك أعتقد أنه لو عاش لا استطاع أن يرضى نفسه بسياسة أتاتورك وموقفه لأن تصوراته عن الخلافه كانت تختلف عن نتائج فكرته القومية المنطقية ، وكان يتخيل القومية التركية كأساس دولى عالمى ويرى فيها عوضاً عن الخلافة الإسلامية ، ونحن نعلم أن نقاط العمانية وحرية الإرادة والضمير وحرية الفكر فى الدستور كانت من تفكيره وقلمه ، لأن اللجنة

---

(١) ص ٢٧٥ .
(٢) ص ٢٦٦ Turki

التى ألفت فى سنة ١٩٢٤ م لوضع الدستور الأساسى كان هـو عضواً فيها ، ولعله لم يستطع أن ينسجم مع السياسة الثورية للإصلاح المثالى التى اتخذها كمال أتاتورك ، ... ورغم أنه كان هنالك بعض انحراف عن أفـكاره فى العمل والتطبيق ، مع ذلك لاتزال مبادئه تسيطر على النقاط الأساسية لإصلاحات تركيا الجديدة (١) » .

ويزيد المؤلف المذكور فيذكر أعمال ضياء كوك الب وأفـكاره العلمية ويقرر أهميته كقائد مفـكر ومؤسس مدرسة فـكرية : —

« ومع أن دراساته عن الاجتماع والمدنية الشعبية والتاريخ ليست لها قيمة علميـة كبيرة إذا قورنت بمؤلفات علماء تركيا الحاضرة وغيرها ولـكنه لا يستهان بقيمته كزعيم لهذا الاتجاه ومؤسس هذه المدرسة ، ولو أن بعض مفاهيمه نسيت أو أغفلت فى تركيا الجديدة أو أنها تعتبر اليوم تافهة ولا يلاحظ فيها ابتكار وطرافة ، مع أنها كانت تبدو فى عصره جديدة ومبتـكرة فذلك لأنها أصبحت الآن حقائق ، ويتجلى من ذلك عمق تأثيره وسعة أفقه ونظره (٢) » .

دور تركيا التقليدى :

إن قادة هذا الفـكر والدعوة التى يتزعمها ضياء كوك الب ، كانوا يستحقـون إعجاباً كبيراً من المؤرخين المنصفين ، ورجال الفـكر الأحرار فى العالم الإسلامى ، وإن تركيا كانت تحتل مركزاً خطيراً فى خريطة العالم السياسية ، والثقافية ، والاجتماعية ، وقد تغير مجرى التاريخ إذا سيطرت على الحضارة الغربية ، وامتلـكت ناصيتها ، تقودها وتسير بها إلى غاية مرسومة ، وتتصرف فيها تصرف القائد الحر ، الذى يملك إرادته ،

---

(١) Berkes Niyozi Turkish Nationlism and Western Civilization (Cokalpziya) p. 13, 14

(٢) نفس المصدر ص ٣٠ — ٣١

والعالم المجتهد الذى يفكر بعقله ، وكانت القدوة الحسنة للشعوب الشرقية الإسلامية التى تعانى الصراع العنيف ، بين الشرق والغرب ، وتواجه تحدى الحضارة الحديثة السافر ، وتنظر إلى تركيا كزعيم وإمام ، وأول من اكتوى من الشعوب الإسلامية بنار هذا الصراع بين الغرب والشرق وواجه زحف الحضارة الغربية وفلسفة الحياة الحديثة .

ولكن ذلك — مع الأسف — لم يتحقق ، إن الذى تحقق هو تقليد تركيا للحضارة الغربية وتمسكها ببعض شعاراتها ومظاهرها السطحية ، والاصلاحات السطحية التى لا تقدم ولا تؤخر فى حياة الشعوب والأمم والمجتمعات والمدنيات ، ولا صلة لها بالقوة الحقيقية والعظمة السياسية ، والتى فصلت تركيا عن ماضيها القريب ، وعن التراث العلمى الفنى الذى ساهمت فى تكوينه الأجيال الكثيرة والعقول الكبيرة ، وفصلت تركيا — زعيمة العالم الإسلامى بالأمس — عن العالم الإسلامى ، وأحدثت فجوة عميقة بين رجال الحكم والتوجيه ، وبين الشعب المسلم القوى ، الفائض بالحب والإيمان والعاطفة الدينية ، الذى ملأ قلوب العالم مهابة وإجلالا لقوة هذه العاطفة وتدفقها ، واستطاع أن يقف فى وجه أوروبا وغاراتها الساحقة ، ومؤامراتها الدقيقة المستمرة ، التى لم تنقطع ولم تقف يوماً واحداً ، والتى لاقبل لأمة عادية بها ، رغم الضعف الشديد المستمر فى الطبقة الحاكمة ، والخيانة فى الضباط ، وأفقد الشعب النشاط والثقة والحماسة التى كانت من أبرز مزايا هذا الشعب المسلم الخالد ، وأحدثت اضطراباً فى المجتمع وفتوراً فى إجابة الدعوات التى تصدر من القيادة ومركز الحكم ، واحتاجت الحكومات المختلفة إلى كبت هذا الشعور وكبح هذه العاطفة ، وتحويل الأمة إلى المادية والقومية والحضارة الغربية ، والانحصار فى دائرة التفكير الضيقة والمساحة المحدودة ، كل ذلك بعنف وقسوة لا نظير لها ، ذهب ضحيتها رجال كان فيهم الغناء الكبير للأمة ، والخير الكثير للبلاد ، ولا يزال الصراع قائماً بين العقلية الحاكمة وعقلية الشعب المغلوب على أمره ، ولا تزال الشرارة

— الإيمانية — كامنة فى النفوس والقلب ، مستعدة للالتهاب بأدنى حركة وأضعف إشارة (١) .

إن دور الشعب التركى فى اقتباس الحضارة الغربية كان دوراً تقليدياً يخلو من كل « أصالة » ومن كل ابتكار ، ومن كل عصامية ، ومن كل إنتاج ، فلم تعمل شيئاً جدياً للسيطرة على هذه الحضارة التى انطلقت من الغرب المادى ، السيطرة التى دعا إليها وحلم بها ضياء كوك ألب فى مقالته السابقة ، ولم تعمل شيئاً لامتلاك ناصيتها والتغلب على قيادتها ، إنما كان دورها دور الاستيراد ودور الاستعارة ودور التطبيق ، لا أقل ولا أكثر ، ولم ينبغ فيها فى هذه الفترة نابغة فى العلوم التطبيقية ، ولا عملاق فى العلوم والآداب ، ولا مؤسس مدرسة جديدة من مدارس الفكر والفلسفة ، ولا من يمد هذه الحضارة بشىء أصيل له قيمته العلمية ، ولذلك بقيت شعباً متوسطاً يعيش على هامش الشعوب الأوربية ، ولم يكن هذا قيمة ماضحى به هـــذا الشعب من السطوة السياسية والحماسة الدينية ، والدوافع الخلقية ، والزعامة فى العالم الإسلامى .

نامق كمال :

ولد نامق كمال فى (Rhobosto) فى عام ١٨٤٠م وكان ينتمى إلى أسرة ثرية ذات اليسار والغنى ، درس فى بيته اللغة العربية والفارسية والفرنسية ، وتولى وظيفة رسمية فى السابعة عشرة من عمره ، وقد أُعجب فى شبابه بالزعيم التركى الوطنى والمفكر

---

(١) وقد تحقق ذلك تدريجياً فى الفترة التى حكم فيها الحزب الديموقراطى الذى كان يقوده عدنان مندريس ، وأزيل هذا الحزب بتدخل الجيش فى سنة (١٩٦٠ م) وشنق عدنان (١٩٦١ م) ولكن الشعب لم يهدأ ، ولم يرض بالحكم اللادينى الدكتاتورى ، وأسفرت الانتخابات الأخيرة (١٩٦٨ م) عن انتصار «حزب العدالة» بأغلبية ساحقة ، وأثبت الشعب التركى وفاءه للاسلام ، وحنينه الى العهد الذى كان يتمتع فيه بممارسة أحكام الإسلام ، ويقود العالم الإسلامى باسم الخلافة ، وحماية الإسلام .

الشهير إبراهيم شيناسى (١٨٢٦ — ١٨٧١ م) وانضم إلى رئاسة تحرير مجلته الشهيرة « تصوير أفكار » ولما التجأ شيناسى إلى فرنسا فى سنة ١٨٦٥ م أصبح مسؤولا عن تحرير المجلة ، واشتهر ككاتب وصحفى سياسى ، واضطر أن يغادر الوطن عام ١٨٦٧ لمقالاته وأفكاره الجريئة المتحمسة ، وقد قضى ثلاث سنوات من نفيه فى لندن وباريس وفينا ، ودرس هناك وطالع القانون الجديد والاقتصاد ، وعاد فى ١٨٧١ م إلى تركيا ، ونفى مرة ثانية إلى قبرص من جراء التمثيلية الطائرة الصيت التى كتبها وسماها « الوطن » والتى بعثت فى قلوب الناس الحماس الوطنى ، وعاد فى سنة ١٨٧٦ م بعد أن خلع السلطان عبد العزيز ، ولكن نقمت عليه الحكومة بعد مدة يسيرة ؛ وتوفى عام ١٨٨٨ م بعد أن قضى عامه الأخير من حياته فى النفى .

ويقول برنارد لويس Bernard Lewis فى كتابه : (The emerge of Modern Turkey) « كان نامق كمال مسلماً صادقاً متحمساً مع حماسته الوطنية وفكره ، إن الوطن (تركيا) الذى يتغنى به فى مقالاته وإن كان أساسه على الاقليم ولكنه عنده وطن إسلامى خالص ، كما أن الدولة العثمانية عنده دولة إسلامية خالصة ، وقد ظل مرتبطا طول حياته بكل قوة وإخلاص بقيم المسلمين وعقائدهم الموروثة ، وقد انتقد زعماء التنظيمات انتقادا لاذعاً فى كثير من الأحيان وعاب عليهم أنهم أخفقوا فى الحفاظ على التقاليد الإسلامية القديمة ، وأنهم استوردوا من أوربا الأفكار « والمؤسسات » الجديدة

وقد حمل نامق كمال لواء القيم الإسلامية وقد انتصر للإسلام وأبرز فضله ومآثره رداً على أولئك المؤلفين الذين كان لايزال ديدنهم الحط من شأن الإسلام وقدم فكرة الاتحاد الإسلامى العالمى فى قيادة العثمانيين الأتراك ، لأنه كان يعتقد أن هذه الحركة إذا انتشرت فى آسيا وإفريقيا ووجدت أنصاراً أصبحت كتلة قوية إزاء الكتلة الغربية ، فيحدث بذلك توازن القوى فى العالم .

وكانت دعوة نامق كمال الذى سبق ضياء كوك ألب إلى الافادة من الحضارة الغربية والعلوم الغربية ، وتفسيره للعلاقة التى يجب أن تقوم بين تركيا والغرب الجديد أكثر اتزاناً وأكبر عمقاً ، من دعوة ضياء كوك ألب وأنصاره ، فقد دعا نامق أمته وبلاده إلى الإفادة من الغرب فى المجالات التى يرجع إليها الفضل فى تقدم الشعوب الغربية وفى رخائها وسيادتها ، وكانت السبب المباشر لتفوق الغرب ومكانته فى العالم .

يقول الأستاذ نيازى فى مقدمته على « مجموع مقالات ضياء كوك ألب » .

إن الرجل الذى وفق فى وصف الوضع الحاضر وتحديد ضعفه وعلته واعتبره عرقلة كبيرة فى تاسيس دولة جديدة كان ذلك نامق كمال (١٨٤٠ — ١٨٨٨ م) إنه حاول أن يعرض صورة مثالية « للمؤسسات » الدينية والأخلاقية والقانونية التى تنسب إلى الإسلام ، وعرض صوراً مثالية أصيلة للمؤسسات السياسية أيام ازدهار التقاليد العثمانية القديمة ، وأبرز نواحى الحضارة الغربية التى تدين لها الشعوب الأوروبية فى تقدمها ورخائها وسيادتها . ووصل بعد دراسة هذه العوامل الثلاثه إلى أنه لا يوجد بينها خلاف أساسى ، إنه يعتقد أن الإسلام يهيىء الأسس الخلقية والقانونية للمجتمع ، وكان يرى أن أفضل طريق لتركيا الحديثه أن تتخذ التقليد العثمانى وسياسة التسامح الواسع التى كان يعامل بها العثمانيون القوميات المختلفة والديانات المختلفة كأساس ودعامة للجهاز السياسى ، وأن تأخذ من الغرب المناهج والأساليب المادية التطبيقية التى تمنح هذا النظام قوة ومناعة فى العالم المعاصر الذى يقوم على التقدم الاقتصادى .

هكذا أفرز نامق كمال عوامل تركيا الثلاثة فى القرن التاسع عشر وبيّن حدودها ومعالمها ، وكان العامل الأكبر لإخفاق التنظيمات فى رأيه هو الاضطراب الفكرى فى موضوع العوامل الثلاثة هذه ، فقد هجرت الشريعة أى القانون الاسلامى مثلا لاجل اقتباس القانون الفرنسى ، مع أنها لم تقتبس الأساليب والطرق الغربية للتعليم والحكومة والعلوم والاقتصاد والزراعة .

وقد خضع دعاة الاصلاح الذين كانو ينتمون إلى « تنظيمات » فى أمانيهم الصبيانية لتحويل الدولة التركية دولة جديدة للحكومات الغربية وحملوا مِنّتها فى دائرة الاقتصاد والسياسة من غير حاجة إلى ذلك ، وقد فقدت بذلك الدولة العثمانية حريتها وسلامتها ، لم يطبق هؤلاء الدعاة أى مبدأ من مبادىء النظم الديموقراطية الجديدة فى مجال الإدارة والتنظيم ، مع أنه لم يكن شىء فى المؤسسات السياسية العثمانية القديمة ولا فى التشريع الاسلامى ما يستحيل انسجامه مع الديموقراطية أو التقدم أو العلوم التطبيقية (١) » .

ولكن من الإعجاب العام بنامق كمال والتأثير العميق الذى تركه فى الجيل التركى الجديد وفى ضياء كوك ألب نفسه ومعاصريه ، الذى اعترفت به (خالدة أديب خانم) بهذه الكلمات :

« كان نامق كمال يتمتع بأكبر إعجاب وإجلال فى تركيا ، إنه لم يتغن بأحد فى تاريخ الأفكار والسياسات التركية مثل ما تغنى به ولم يهم الهائمون بأحد مثل ما هاموا به » (٢).

لم تؤثر دعوته المعتدلة وفكره القويم فى تكوين تركيا الحديث ، ولم تلعب دورها مثل ما فعلت دعوة ضياء كوك ألب المتحمسة المتطرفة لاعتناق الحضارة الغربية وأسس سياستها ، وكان ذلك لأنه وجدت لفلسفة ضياء وفكره ولتنفيذه شخصية قوية إيجابية فى تركيا ، حققت أكثر ما أراده ودعا إليه ضياء كوك ألب وصممت على سبك تركيا الإسلامية فى الغرب العلمانى اللاديني ، كانت هذه شخصية كمال أتاترك .

---

(١) Berkes Niyazi Turkish Nationalism and Westeren Civilization, (Gokalap Ziya) p· 17,81

(٢) Halide Edib Turkey Faces West' p. 84.

كمال اتاترك ، نموه الفكرى ، طبيعته وعقليته وخصائصه الطبيعية :

ولد مصطفى كمال باشا بن على رضا بك بمدينة سلانيك سنة ١٢٩٨ هـ ١٨٨١ م ، وأصل أسرته من قرية بالأناضول ، والتحق بمدرسة ابتدائية تسير على النهج الأوربى الحديث ، ثم بمدرسة أهلية ثانوية فمكث بها سنة ثم تركها ودخل مدرسة حربية ، ثم انتقل إلى المدرسة الحربية باستانبول وتخرج منها ضابطاً ، وكان ذلك فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى ، ودخل فى بعض المؤامرات ضده ، فقبض عليه ونفى إلى دمشق وهرب منها إلى سلانيك ، والتحق بجمعية « الاتحاد والترقى » والتحق بالجيش ، وعهد إلية بالإشراف على سكة حديد مقدونية ، وخُلع السلطان عبد الحميد ١٣٢٧ هـ — ١٩٠٩ م .

سافر عام ١٩١٠ م إلى فرنسا كملحق عسكرى لمهمة عسكرية ، وقد جعله هذا السفر لا يطمئن إلى ما حققته تركيا من التقدم والازدهار ، واضطرب لازدياد نفوذ ألمانيا ، وكان يحكم تركيا فى ذلك الوقت أربعة أشخاص فعلا وهم : أنور وطلعت وجاويد وجمال ، وكان معهم مصطفى كمال على خلاف شديد ، ولم يكن له شغف ولا هم بالأهداف الدولية ولا فى توسع نطاق الحكومة العثمانية فى خارج تركيا ، وكان يرى هذه السياسة للبلاد خطراً ، وكان أنور يكرهه بدوره ، ونشبت حرب بلقان فى سنة ١٩١٢ م ، وقد تأثر بشقاء فئات اللاجئين والمهاجرين الأتراك من المدن البلقانية وبؤسهم تأثراً كبيراً ، واسترد الأتراك أدرنه لخلاف نشأ بين الأقاليم البلقانية ، وعين أنور وزير الحربية وقد بلغ قمة الرقى والمجد ، وكان أنور يسعى لجمع المسلمين كلهم تحت لواء خليفة المسلمين ، وقد فوض أنور مسئولية تنظيم الأمور العسكرية إلى الألمان ، وكان مصطفى كمال يكره ذلك كرهاً شديداً ، ونشبت الحرب العالمية الكبرى عام ١٩١٤ م وحالفت تركيا ألمانيا تحت ضغط أنور وزملائه وخاضت الحرب ، وكان كمال يرى أن تلتزم تركيا الحياد وتستفيد من الكتلة التى تفوز فى هذه الحرب ، وحارب كمال فى جوار زملائه وقواده بشجاعة وبطولة على رغم اتجاهه ورأيه فى هذه الحرب ، وكان له موقف عظيم فى معركة

نابيولى سنة ١٩١٥ م فذاعت به شهرته، وأرسل سنة ١٩١٦م إلى جبهة قفقاس، وفوضت إليه قيادة الجيش فى الحجاز فى بداية عام ١٩١٧م ، ولكن تخلت الجيوش العثمانية عن الحجاز قبل أن يستلم كمال مركزه ، ومنح فى هذا العام رتبة اللواء وأرسل إلى ديار بكر نائب القائد ،

وانتهت الحرب سنة ١٩١٨ م بهزيمة ألمانيا وتركيا ، واحتلت انجلترا وحلفاؤها استانبول ، واضطرب الأمن فى بلاد الأناضول ، فاختير كمال ليقوم بحفظ النظام سنة ١٩١٩ م وأعلن الحرب على اليونان الذين استولوا على أزمير وانتصر عليهم سنة١٩٢١م فى معركة سقارية ولُقِّب بالغازى ، وأقام فى أنقرة حكومة مستقلة ، وألغى الخلافة وسلطنة آل عثمان ، وأقام حكومة جمهورية علمانية كان أول رئيس لها سنة ١٩٢٤م ، واستمر على ذلك حتى توفى سنة ١٩٣٤م .

إن العلمانية والثورة على الماضى والتغرب المتطرف والدكتاتورية العسكرية التى آلت إليها تركيا لا تفهم العوامل التى ساعدت عليها والدوافع التى دفعت إليها زعامة كمال أتاتورك إلا بمعرفة طبيعة زعيم هذه الحركة الأكبر ونشأته الفكرية وتطورها وطبيعته وميوله ، لأن البلاد التى تخضع لدكتاتور عسكرى تصبح مرآة لشخصيته وطبيعته ، وظلا وامتداداً لميوله وعقائده مع الدعاوى البراقة للشعبية والجمهورية ، ويحتاج لفهم نظمها الجديدة فهم العناصر التى تتكون بها شخصية هؤلاء الأنانيين والدكتاتوريين ، وبهذه المناسبة نقتصر على أن نقدم قطعاً من كتاب « أتاتورك(١) » (لعرفان أورگا) الذى ألفه عن إخلاص وإعجاب بشخصية كمال وهى تصوره تصويراً لا مبالغة فيه ولا تشويه :

---

(١) Irfan Orga Margarete ; « Ataturk » (Michael Joseth Ltd, London) 1962

« — كان قليل الاختلاط ، غير محبب بين الأصدقاء فى حياته المدرسية ، كان أصدقاؤه قليلين جداً ، كان يثور ويهيج بسرعة، وكان فى صفه طالباً مثالياً ذكياً مجتهداً متواضعاً ، وكان شديد الغرام بالإناث ، يجذبه هذا الجنس(Sex) كالمغناطيس .

وكان يتسلى بالخمر ويشغل نفسه بها فإنه لايجد مايسلى به نفسه وروحه ، كالإيمان بالله واليوم الآخر لأنه كان لايؤمن بهما [١]» .

« وكان يشعر بفرح وسرور حين يعتدى على الآخر ويسطو به ، وكانت هذه طبيعته التى فطر عليها ، وقد تجلت هذه الطبيعة فى تصرفاته .

ولم يكن يعترف بعواطف غيره لأنه لايرى أحداً يوازيه ، وكان مفطوراً على حب التغلب على الآخرين وإخضاعهم لإرادته وهواه ، وكان يحب أن يبقى على القمة دائماً ، وقد اطلع على كتابات والتر ، وروسو ، فى مناستر التى بعثت فيه روح الثورة وأيقظت فيه عواطفها الخامدة[٢]» .

« — وقد هضم فى شبابه مع أفكاره الثورية تعاليم ضياء كوك ألب هضما جيداً ، وقد كافح ضياء كوك ألب للتنور والحرية الدينية ، وكان رائدالتنور الفكرى الغربى ، وقد تكهن فى سنة ١٩٠٠م بانقراض الدولة العثمانية واضطراب حبلها ، وأنه واقع لامحالة لأنها عضت بالنواجذ على أسس الحكومة الفردية ، وكان يقول فى أكثر الأحيان «إن الحكومة الدينية حليفة وفية للحكومة الفردية دائماً » وقد انتصر للتحرر عن السلطة الدينية انتصاراً قوياً ، وكان يرى أن تحدد سلطات العلماء ويجب أن تحدد الجماعات الدينية المختلفة ، ويحظر على الأحزاب المتحمسة للدين ويضيق الخناق عليها لأنها (كا

---

(١) p. 251

(٢) p. 246

يقول) تقع فريسة الشيطان فتهتف بالجهاد ،وقد دعا بقوة إلى إلغاء الشريعةوإقصاء قضاة المحاكم الدينية الذين هم يشرحون القانون الإسلامى ويفسرونه ، وكان يرى أن تقام المحاكم الحديثة والمحاكم المدنية — » (١) .

ويقول متحدثاً عن ما كان يضمره ويعتقده كمال عن الدين عامة ، وعن الإسلام بصفة خاصة وعن وجهة نظره فى كل ذلك :

« — قد اقتنع بأن كفاحه يجب أن يوجه إلى الدين ، فإنه منافسه الأكبر ، وكان يعتقد من صغره أنه لاحاجة إلى الله ، إنه إسم غامض خداع مجرد عن كل حقيقه ، وكان لايؤمن إلا بالمشاهد المحسوس(٢) ، وكان يرى أن الإسلام إنما ظل هاملا هداماً فى الماضى، وأنه قد جنى على تركيا جناية كبيرة وألحق بها خسائر فادحة ، وقد تناسى أن الإسلام وحده هو الذى أسس الإمبراطورية العثمانية الواسعة ، وكان يرى أن الناس قد أصبحوا فريسة الأوهام والجمود بتأثير الإسلام ، وكان يبغض الرجل الذى يخضع للقضاء والقدر ويقول : « هكذا أراد الله » « وهذا الذى قُدّر لى » وكان يعتقد أنه لاوجود للإله ، والإنسان يصنع قدره ، وكان يقول فى أكثر الأحيان : إن قوة العقل وقوة الإرادة تتغلبان على « قسوة » الإله ، ولكن يقول المتدينون : « الله يمهل ولا يهمل » كان يقول ألم يطلع هؤلاء المتدينون على الطاقة الكهربائية التى تشتغل بسرعة ؟ » وكان مصمماً على سن القانون لتحريم الدين فى تركيا ، ولواحتاج ذلك إلى استخدام القوةوإلى الخدعة والتضليل — » (٣) .

ويقول فى موضع آخر : —

---

(١) p. 251

(٢) وقد ذكر المؤلف فى كتابه أن كمال فى آخر عهده كان يرفع قبضته ويشير بها الى السماء ساخراً مهدداً .

(٣) p. 237-238

« — ولم يكن لديه معنى لمبادىء علم النفس وللنظريات والفلسفات ، لذلك لم يمنعه شىء عن أن يعتبر الدين غير لازم لتركيا وشيئاً لاحاجة إليه ، ولكن الذى أعطاه للأمة التركية عوضاً عن الدين هو « الإله الجديد » أى الحضارة الغربية ، وليس من الغريب أن الأمة قد حاربت لروحها وقد تعلم درساً من تاريخ المدنيات الأخرى أن الآلهة القديمة تموت بصعوبة وعسر (لذلك لاتخرج عقيدة الإله من قلب الأمة التركية إلا بعد مدة طويلة) — (١) » .

ويقول فى موضع آخر :

« — وكان يبغض الإسلام والعقيدة الصحيحة الراسخة بغضاً شديداً ، وكان يقول: يجب أن نكون رجالا من كل ناحية ، قد قاسينا خطوباً ومصائب عظيمة وكان السبب فى ذلك أننا عشنا فى عزلة عن الحياة ولم نحاول معرفة اتجاه العالم ويجب أن لانحتفل بما يقول الناس ، نحن فى طريق الحضارة والمدنية ، ويجب أن نعتز بذلك ونفتخر ، انظر إلى المسلمين فى نواحى العالم الإسلامى ماذا يعانون من المصائب والنوازل والدمار ، لماذا ؟ لأنهم لم يستطيعوا أن يستخدموا عقولهم للانسجام مع هذه الحضارة السامية المشرقة ، وهذا سبب بقائنا مدة طويلة فى الحضيض، ووراء الركب، وتردينا الآن فى الهوة السحيقة ، وإن استطعنا فى السنوات الماضية أن ننجح إلى حد فى إنقاذ أنفسنا فذلك لأن عقلياتنا قد تطورت ، ولكننا لانقف على مكان ، بل إننا نهضنا لنتقدم ونواصل السير إلى الأمام فليحدث مايحدث ، ليست لنا الآن طريق أخرى ، ويجب أن تعلم الأمة أن الحضارة نار ملتهبة تحرق جميع من يخضع لها(٢) .

ويذكر بغضه وعداءه للدين فى موضع آخر ، فيقول :

---

(١) p. 246

(٢) p. 297

« — لم يكن ذلك سراً أن مصطفى كمال لايدين بدين ، لذلك كان شائعاً بين الناس أن الخلافة ستلغى قريباً ، وقد فزع الناس حين شاع أن مصطفى كمال رمى المصحف على رأس شيخ الإسلام الذى كان من كبار علماء الإسلام وشخصية محترمة ، ولم يكن جزاء ذلك إلا أن يلقى حتفه لساعته ، ولكن ذلك لم يحدث ، ويدل ذلك على أن الزمن قد تطور كثيراً (١) » .

ويذكر المؤلف حبه وهيامه بالحضارة الغربية وما كان لها فى نظره من القدس والحرمة وكيف كانت تسيطر على عواطفه وتتغلغل فى عروقه ودمه ، فيقول :

« إن مصطفى كمال كان يتمسك إلى حد كبير بما يلقن ويقول ويأمر به الناس ، وكان يعبد هذا الإله الجديد (الحضارة الحديثة) بحماس ولهفه وكان له عابداً وفياً ، وقد نشر هذه الكلمة « الحضارة » من أقصى البلاد إلى أقصاها ، وعندما يتحدث عن هذه الحضارة تتّقد عيناه لمعاً وإشراقاً ، ويظهر على وجهه إشراق كإشراق الصوفية عند مراقبة الجنة (٢) » .

ماذا كانت فكرته عن الحضارة وكيف كان يريد أن يرى الأمة التركية ؟ يُقدَّر ذلك من الكلمات التالية التى يذكرها المؤلف :

« — يقول مصطفى كمال لشعبه : يجب علينا أن نلبس ملابس الشعوب المتحضرة الراقية ، وعلينا أن نبرهن للعالم أننا أمة كبيرة راقية ، ولا نسمح لمن يجهلنا فى الشعوب الأخرى بالضحك علينا وعلى موضتنا القديمة البالية ، نريد أن نسير مع التيار والزمن (٣) — » .

---

(١) p. 267

(٢) p. 233

(٣) p. 270

« — كان يتصور تركيا متطورة مصوغة فى صياغة جديدة ، ولكن المواد الخامة الإنسانية التى رزقها (الشعب التركى) كانت مجموعة بشرية تتسم بالتشاؤم والكآبة ولم تتناولها يد صناع حاذق شأن الأغمار الذين يدخلون فى الخدمة العسكرية جديداً ، بدأ يشتغل وحيداً وهو دافق بالحياة لا يثق إلا بنفسه ، لا يهدأ ولا يستريح ، وقد أصبح التدخل فى شئون غيره عادة وهواية له ، وكان ممتلئاً بالحيوية والقوة الفكرية(١) — » .

وقد قرر منع الطربوش وغطاء الرأس ، وألزم لبس القبعة على الرأس عوضاً عن ذلك لكى ينصبغ الشعب التركى بصبغة الأمم الغربية بأسرع ما يمكن ، ويندمج بها اندماجاً كلياً ، ولا تبقى ميزة يمتاز بها الشعب التركى عنها .

استعمل القسوة النادرة والعنف البالغ فى تحقيق هذا الغرض كأنه لا إصلاح أكبر وأهم من هذا ، وكأن سعادة الشعب كانت تتوقف على ذلك ، وكأنه الشرط الأساسى لمجد تركيا وكرامتها ، إن حرب القبعة الدموية تحولت إلى حروب صليبية ، يذكر مؤلف سيرته التركى هذه المعركة ويقـول :

« وقد حدثت ثورات واضطرابات عظيمة هددت سلامة تركيا ، حتى أصدرت الحكومة أمرها لبارجة بالبقاء فى ميناء البحر الأسود ، وأقيمت المحاكم فى كل ناحية وصوب وفى أمكنة مختلفة للبلاد ، وبدأت تشتغل وتحكم ، إن هذه الأحكام أهاجت الثوار أكثر من ذى قبل ، وأعدم رجال الطبقة الدينية الذين نفخوا فى قلوب الناس روح المقاومة والحماس الدينى القوى ، أو اضطروا لأن يختفوا عن الأنظار ، ولم يستعمل رفقاً ورحمة ومسامحة فى مناسبة ، وقرر مصطفى كمال تنفيذ المشروع وإتمامه ، ولم يكن يحتفل بالوسائل والطرق التى يستخدمها فى هذا الشأن ، يلقى القبض على الناس وكانوا

---

(١) p. 244

يشنقون لمجرد أنهم وجدوا يسخرون من هذه الأحكام ، واستهدف لذلك الأبرياء والمجرمون سواء .

إن كمال لم يؤنب المحاكم على اجراءاتها العنيفة ولم يتوقف فى تحطيم ارادة الشعب .

وكان يقول فى ذلك الحين فى فخار وكبرياء . « أنا تركيا ، هزيمتى هزيمة تركيا » وقد أثارت هذه الأنانية الجنونية أولئك الذين كانوا يعدونه منقذ تركيا ، وقد كسبت معركة القبعة أخيراً ، فاوزت المحاكم واعترف الجمهور والشعب بهزيمتهم ، وقد أرسل مصطفى كمال مندوباً من قبله من أعضاء البرلمان أديب ثروت إلى المؤتمر الإسلامى بمكة المكرمة (١٩٢٧) ليثبت للعالم نجاحه وانتصاره ، وكان أديب ثروت المسلم الوحيد الذى حضر المؤتمر وهو لابس قبعة ، وقد استقبله الممثلون المسلمون الآخرون بانقباض وعلى غضاضة — »[١] .

ويذكر المؤلف — على كل حال — مميزات أتاترك الطبيعية وأخلاقه وصنائعه ويلقى ضوءاً على حياته بإيجاز ويقول : —

« — إنه جرب فى حياته أحزاناً ويأساً ، وقل ما حظى بالفرح والسرور ، كان يحب الفقراء ويكره الأغنياء ويخشى العلماء والمفكرين لأنهم يفوقونه فى القوة والكفاية ، كان يعشق الخمر والنساء والموسيقى ، وكان يكره كل أولئك الذين يختلفون معه ، وإن كان هو يستغلهم لأهدافه وغاياته ، وكانت قد بلغت به قوة عزمه وعناده وتصلبه وصفاء عقله وفكره إلى قمة المجد ، وقد التقت طبيعته وعصره ، وتقدماً جواراً بجوار وبلغا الأوج ، وكان سر عظمته أنه كانت أهدافه محدودة ومعينة : تأسيس دولة على طراز عصرى فى حدود معينة واضحة ، وكانت له ميزة بارزة وهى أنه كان لا يعدل عن فكرته

---

(١) p. 265

فى أحلك ساعة وأدقها —[١] » .

اصلاحات اتاترك وخطواته الثورية :

لم يكن كمال أتاترك كما تجلى من تاريخه الذى أوجزناه عالماً واسع الثقافة ، أو مفكراً عميق النظر ، إنما كان زعيماً قومياً قوى الإرادة ، وحاكما قوياً شديد التنفيذ ، يوجز وصفه مؤرخه الإنجليزى الشهير ، فيقول :

« فى مواهبه وكفايته كان جندياً ، وفى غريزته كان معلم ثانوية ، وفى اتجاهه كان سياسياً[٢] » .

ومأثرته التاريخية أو بطولته — كقائد وزعيم — مقصورة على « عملية النقل والتحويل » التى قام بها ونجح فيها أكثر من غيره ، يقول المؤرخ السابق ملخصاً دوره العظيم الذى مثّله فى تاريخ تركيا الأخير :

« انطلق « كمال أتاتورك » يكمل عمل التحطيم الشامل الذى شرع فيه ، وقد قرر أنه يجب عليه أن يفصل تركيا عن ماضيها المتعفن الفاسد ، يجب عليه أن يزيل جميع الأنقاض التى تحيط بها ، هو حطم فعلا النسيج السياسى القديم ، ونقل السلطنة إلى (ديمقراطية) وحوّل الامبراطورية إلى قطر فحسب ، وجعل الدولة الدينية جمهورية عادية .

إنه طرد السلطان (الخليفة) ، وقطع جميع الصلات عن الامبراطورية العثمانية ، وقد بدأ الآن فى تغيير عقلية الشعب بكاملها ، وتصوراته القديمة وعاداته ولباسه وأخلاقه وتقاليده ، وأساليب الحديث ، ومناهج الحياة المنزلية التى تربطه بالماضى ، وبالبيئة

---

(١) p. 296-297

(٢) H. C. Armstrong : Greywoolf p. 294

الشرقيه ، لقد كان ذلك أصعب بكثير من تكوين الجهاز السياسي من جديد ، وكان يشعر بصعوبة هذه العملية ، فقد قال مرة : « انتصرت على العدو ، وفتحت البلاد ، هل أستطيع أن أنتصر على الشعب(١) » .

إنه انتصر على الشعب حقاً ، فقد جعل الدولة علمانية ، ليس الإسلام دينها الرسمي ، أحدث الفصل بين الدين والسياسة ، وقرر أن الدين قضية شخصية ، لكل فرد أن يختار له ديناً ويدين به ، من غير أن يكون له دخل فى السياسة والإدارة ، وألغى المحاكم الشرعية ، وقانون الشريعة الإسلامية ، وقرّر العمل بالقانون المدنى السويسرى ، والقانون الجنائى الإيطالى ، والقانون التجارى الألمانى ، وأدخل الأحوال الشخصية فى القانون المدنى الأوروبى ، ومنع التعليم الدينى ، وعطّل مراكزه ، ومنع الحجاب ، وقرّر السفور والتعليم المختلط ، وألغى الحروف العربية وأبدلها بالحروف اللاتينية ، ومنع الأذان بالعربية وجعله بالتركية ، وغيّر اللباس ، وألزم لبس القبّعة ، وبعبارة موجزة : « قد حطم الأساس الدينى ، وغيَّر وجهة نظر الشعب التركى والحكومة التركية(٢) » .

إن « عرفان أوركا » بعد تقديم خلاصة المحاضرة التى ألقاها « كمال أتاترك » فى البرلمان حينما قدم إليه مشروع تحويل الدولة علمانية يقول :

« — قدم مصطفى كمال فى ٣ / آذار (مارس) ١٩٢٤ م مشروعاً تحولت به الدولة التركية دولة علمانية (Secular) ، وألغى منصب الخليفة وقد كان مصطفى كمال صريحاً وجريئاً فى حديثه عن هذا الموضوع ، فقال : « إن الامبراطورية العثمانية قامت على

---

(١) Grey woolf p. 287

(٢) p. 190

أسس الإسلام ، إن الإسلام بطبيعته ووضعه عربى وتصوراته عربية ، وهو ينظم الحياة — من ولادة الإنسان إلى وفاته — ويصوغها صياغة خاصة ، ويخنق الطموح فى نفوس أتباعه ، ويقيد فيهم روح المغامرة والاقتحام ، والدولة لا تزال فى خطر مادام الإسلام دينها الرسمى[١] » .

ويقول المؤلف متحدثاً عن التأثير العميق الذى أحدثه ما انتهت إليه الحكومة الجديدة وما قررته من إصلاحات حديثة :

« — كل ما قرره البرلمان لم يسترع الانتباه إلاّ قليلا ، كان ذلك فى الواقع ضربة قاضية على الإسلام ، وأصابه فى المقتل ، وقد كان تأثير قرار توحيد المعارف بعيد الأثر فى نظام الثقافة والتعليم ، فقد استحوذت بذلك وزارة المعارف العمومية على الجهاز التعليمى كله فى حدود الجمهورية ووضعت يدها عليه ، وقد شل هذا التطوير نشاط المدارس وحرية الأساتذة والمعلمين الذين كانوا يباشرون التدريس فيها .

والخطوة التاليه هى تأسيس إدارة الشؤون الدينية التى كانت تحت إشراف مدير رسمى ، وقد كانت تختلف وزارة الشريعة والأوقاف القديمة ، وكانت هذه الوزارة تتولى الأمور الدينية أو المقاصد الخيرية ورعاية المساجد ودار الأيتام ، ولكنها كانت تسىء تطبيق النظام والإدارة إساءة فاضحة[٢] » .

وقد كان إحداث الحروف اللاتينية وحده كفيلا بحدوث ثورة فى حياة الشعب التركى وإنشاء جيل جديد تنقطع كل صلة له عن الحضارة القديمة والثقافة الماضية ، وقد كان طبيعياً أن تخضع العلوم والآداب كلها لهذا الحادث الخطير ، وقد تحدث المؤرخ الكبير آرنولد توينبى (Arnold Toynbee) فى كتابه (A Study of History)

---

(١) p. 241

(٢) p. 242

ببلاغه عن مدى التأثير الذى أحدثه تغيير الحروف فى تركيا وذكاء كمال أتاتورك فى اختيار أفضل الطرق لذلك، يقول :

« قد شاع فى الناس أن مكتبة الاسكندرية التى كانت تضم ذخائر أكثر من تسعة قرون علمية سجر بها التنور لتسخين الماء للحمامات(١) .

وقد قام هتلر فى عصرنا بكل وسيلة بإتلاف الذخائر العلمية التى تعارض فكرته، وبإبادتها وقد جعل حدوث المطابع نجاح هذه العملية شبه المستحيل .

وقد كان مصطفى كمال معاصر هتلر أكثر توفيقاً وذكاء فى إيثار الطريقة التى تضمن نجاحه ، وكان دكتاتور تركيا يريد أن يحرّر مواطنيه وعقلياتهم من أجواء المدنية الإيرانية التى ورثوها ودرجوا عليها ويصوغهم بقوة فى صياغة الحضارة الغربية ، وقد اقتصر على تحويل حروف الهجاء مكان إحراق الكتب ، وقد استغنى بذلك عن تقليد امبراطور الصين أو الخليفة العربى ، وقد أصبحت الذخائر الكلاسيكية للكتب الفارسية والعربية والتركية لا تتناولها أيديهم وأصبحت أجنبية لا تبلغها مداركهم ، وأصبح إحراق الكتب عملا لا لزوم له ؛ لأن حروف الهجاء قد أُلغيت ، وقد كانت مفتاح هذا النتاج العلمى والإفادة منه ، وبذلك ستظل هذه الذخائر مقفلة فى الدواليب ينسج عليها العنكبوت ولا يطمع فى قراءتها إلا بعض الشيوخ المسنين من العلماء (٢) » .

---

(١) يشير الى قصة حريق مكتبة الاسكندرية واسطورتها التى خلاصتها أنه أحرقت هذه الذخائر العلمية بأمر من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، وقد تحقق تاريخياً أن هذه الرواية أسطورة لا أصل لها ، بل كانت هذه المكتبة قد أحرقت قبل الفتح الإسلامى من مدة طويلة ، وقد أثبت العلامة شبلى النعمانى عليه رحمة الله فى كتابه العظيم « مكتبة الاسكندرية » أنها لا أساس لها من الصحة ، وهو من خير البحوث التى تتناول هذا الموضوع .

(٢) Toynbee : A Study of History p. 618, 19

إن « أتاتورك » نجح نجاحاً باهراً في إقصاء العنصر الإسلامي والعربي من الحياة التركية ، ولا يدري أحد هل كان هـذا الانتصار موقتاً تقضي عليه ثورة الشعب التركي المسلم ، وانتفاضته الإيمانية ، أم تطول مدته ؟ وعلى كل فقد كان تغييراً شاملا عميقاً.

تأثير اتاتورك في العالم الاسلامي :

وهكذا كانت تركيا — مع الأسف — طليعة حركة التجديد — وبعبارة أصح، — التجدد وطليعة « التغريب » وقدوة الزعماء « التقدميين » في الدول والحكومات والأقطار الإسلامية ، وكان كمال أتاتورك رمز التقدم و « الثورة » في كل بلد ناهض ، وفي كل مجتمع متحرر في العالم الإسلامي ، والمثل الأعلى للقادة والسياسيين والمفكرين المسلمين على اختلاف أجناسهم وبيئاتهم ، ولا نعرف زعيما — على فقره في النبوغ العقلي والتعمق — من زعماء البلاد الإسلامية أثر في العقـول والنفوس ، وأثار الإعجاب بشخصيته وأعماله وأثار الرغبة في تقليده والاحتذاء به ، مثل مافعل « كمال أتاتورك » في الزمن الأخير .

وكان السبب الأكبر في ذلك ما اشتهر أنه أنقذ تركيا من الخطر المحـدق بها ، الآخذ بالخناق ، وأسس حكومة قوية ، وكسب احترام الحكومات الأوربية والزعماء السياسيين في أوربا ، و كان المسلمون في الشرق متعطشين إلى القوة السياسية والمجـد والاستقلال ، يخضعون بالإجلال لكل من يتسم بذلك أو يسمي إليه ، فخضعوا لأتاتورك ودانوا له بالحب العميق والتقديس المفرط ، و نسوا في تقديسهم له ما للشعب التركي المؤمن الشجاع من سهم ومن فضل في هـذه الثورة ، وفي التمرد على الأوضاع القاسية ، والأمم الضارية ، وفي بناء هذا الكيان القومي المتين ، وردوا الفضل كله في ذلك إلى عبقرية « كمال » وقيادته الفذة .

والسبب الثاني أن إصلاحاته صادفت رغبة في نفوس الزعماء القوميين ، وعبرت عما

تجيش به نفوسهم من القلق والثورة على القـــديم ، والتحرر من ربقة الدين ، والاتجاه بشعوبهم إلى الحضارة الغربية ، ومهما كانت الأسباب فإن كمال أتاتورك قد حل محلا فى النفوس لم يشغله زعيم شرقى من زمن طويل ، و كان له تأثيره المتوقع فى اتجاه الشعوب والأمم الإسلامية والموقف الذى اتخذته إزاء الحضارة الغربية .

الصراع بين الشرق والغرب فى الهند :

وكان المجال الثانى الذى ظهر فيه ـ لعوامل سياسية وثقافية ـ الصراع بين الشرق والغرب واضحاً قوياً ، وكان مكلفاً باختيار أحد الطريقين : الحياة الإسلامية على أساس العقيده والايمان ، والحياة الغربية على أساس القوة والتقدم ، هو الهند التى توطدت فيها الحكومة البريطانية الزعيمة للحضارة الغربية فى الشرق ، وزحفت إليها العلوم الحديثة والتنظيمات الجـديدة ، وما تستتبعها من آلات ومصنوعات وآراء وفلسفات ، وكان الشعب الإسلامى الهندى منهوك القوى ، مثخناً بالجراح ، مجروح الكرامة ، يعانى دهشة الفتح وعار الهزيمة ، وجيشاً من التهم والظنون ، ويواجه فاتحاً ممتلئاً بالقوة والشباب والثقة ، وحضارة زاخرة بالجدة والنشاط والإنتاج ، وقضايا كثيره ومشكلات تتطلب الحل السريع الحازم ، والموقف الواضح الحاسم .

القيادة الدينية والمدرسة القديمة :

فى هذه الساعة العصيبة الدقيقة ، وفى هذه الحالة النفسية المحرجة برز فى الميدان نوعان من القيادة : أولها القيادة الدينية ، التى يتزعمها علماء الدين ، والقيادة الثانية ، يتزعمها سيد أحمد خان وتلاميذه وأنصاره من أهل المدرسة الجديده .

أما علماء الدين فقد كانوا أقوى علماء العالم الإسلامى شخصية دينية ، ومن أكثرهم رسوخاً فى الدين ، وزهداً فى الدنيا ، وإيثاراً للآخرة ، وغيرة على الإسلام ، وجهاداً فى سبيله بالنفس والنفيس ، ولـكن جوهم الخاص الذى عاشوا فيه ، وثقافتهم القـديمة ، لم تمكنهم من السيطرة على هذه الحضارة الغربية والثقافة الجديدة وقيادتها إلى ناحية جدية

مجدية تعود على الاسلام والمسلمين بالنفع والقوة .

ثم إن الهمجية التي ظهرت من الحكومة الانجليزية والقسوة النادرة التي عاملت بها المسلمين الذين اعتبرتهم أصحاب الفكرة في الثورة المخفقة سنة ١٨٥٧ م وقادتها (١) ، وتحمس الحكام والولاة الانجليز لنشر المسيحية في طبقات الشعب الهندي ، والسرعة الزائدة التي كانت الحضارة الغربية تنتشر بها في الجمهور وتأثيرها في عقيدة للمسلمين وأخلاقهم ، كل ذلك وضعهم في مركز الدفاع عوضاً عن الهجوم ، وجعلهم يفكرون في الاحتفاظ بالبقية الباقية من العاطفة الدينية ،والروح الإسلامية ومظاهر الحياة الاسلامية، والدعوة إلى التجنب عن هذه الحضارة والابتعاد عنها ما أمكن ، وجعلهم يفكرون في بناء معاقل الحضارة الاسلامية والثقافة الاسلامية ، والعلوم الشرعية ، وتخريج العلماء والدعاة والمرشدين من هذه المعاقل التي سميت بعد بالمدارس العربية .

وكان على رأس هذه الحركة الاصلاحية والتعليمية المنتجة الامام محمد قاسم النانوتوي (٢) مؤسس معهد ديوبند الكبير ، وكان لا ينظر إلى المؤسسة التي ساهم في في تأسيسها وقادها في حياته، كمعهد يقوم بتدريس العلوم والمواد الدراسية ويخرج الفقهاء

---

(١) اقرأ فصل «الدور الذي قام به المسلمون في تحرير الهند» في كتابنا «المسلمون في الهند» ص ٨٥ — ٩٤ ط ندوة العلماء لكهنئو (الهند)

(٢) هو الشيخ الإمام قاسم بن أسد علي الكري النانوتوي ولد بنانوته في الولاية الشمالية في الهند سنة ١٢٤٨ هـ وقرأ على الشيخ مملوك العلي النانوتوي ، وأخذ الحديث عن الشيخ عبد الغني بن أبي سعيد الدهلوي ، وأخذ الطريقة من العارف الكبير الشيخ إمداد الله العمري تهانوي المهاجر الى مكة المكرمة وأسهم في ثورة سنة ١٨٥٧ م على الحكومة الإنكليزية ، و ضطر الى الاختفاء مدة من الزمان ، وتبنى فكرة تأسيس مدرسة كبيرة في ديوبند وانقطع إليها . وكانت له مواقف عظيمة في مناظرة النصارى والآرية ظهرت فيها براعته وذكاؤه وإخلاصه ، وعارض قائد الحركة التعليمية الجديدة سيد أحمد خان لآرائه الشاذة وحريته الزائدة في تفسير القرآن والدعوة الى تقليد الحضارة الغربية ، وقد اعترف سيد أحمد خان بتبحره في العلم وإخلاصه في المعارضة وزهده في زخارف الدنيا ، له مؤلفات بليغة أشهرها تقرير دل پذير ، وحجة الإسلام ، وآب حياة . توفي الى رحمه الله سنة ١٢٩٨ هـ .

والمعلمين فحسب ، بل كان ينظر إليه كمركز « وثكنة » تخرج المكافحين والدعاة الذين يفتحون جبهة جديدة للكفاح بعدما لقى المسلمون الهزيمة النكراء من الانجليز المحتلين ، وانقرضت الدولة الإسلامية من الهند .

يقول الشيخ مناظر أحسن الكيلانى فى «سيرة مولانا محمد قاسم النانوتوى» مؤسس دار العلوم ديوبند :

قد اشتغل عقله الكبير فى فتح الجبهات الجديدة وتهيئة مجالات الكفاح بعد ما أخفقت ثورة عام ١٨٥٧ م ، وكان نظام التعليم والتربية السائد فى دار العلوم ديوبند عاملا أساسياً لتحقيق هذا المنهج الذى آثره الشيخ » .

إن الذين تراجعوا من ساحة شاملى[١] لم ينقطعوا عن التفكير ، ولم يضعوا أوزارهم ، بل بقى هؤلاء يكافحون لبقاء الدين والعلم الدينى ، واشتغلت به عقولهم وقلوبهم ، ينتظرون من الله النصر . وكان ضمن هذه الجهود هذه المدرسة التى لم تكن غايتها التدريس والتعليم فحسب ، وإنما كان من غايتها الأساسية تربية رجال يتداركون الهزيمة التى لحقت المسلمين فى عام ١٨٥٧م[٢] .

وسواء تحقق هذا الغرض النبيل أم لم يتحقق ، ولكن مما لاشك فيه أن لهذه الحركة وقادتها فضلا كبيراً فى تمسك الشعب الهندى الإسلامى بالدين وشريعة الإسلام ، وتفانيه فى سبيله ، والتماسك أمام الحضارة الغربية المادية الالحادية تماسكا لم يشاهد فى بلد إسلامى آخر تعرف بهذه الحضارة ووقع تحت حكم أجنبي ، وكانت ديوبند زعيمة هذا

---

(١) قرية بين دهلى وسهارنبور وقد كانت فيها فى عام ١٨٥٧ م معركة حربية ضد الانجليز قاتل فيها الحاج إمداد الله المهاجر المكى ، والشيخ محمد قاسم وزملاؤهما واستشهد فيها الشيخ محمد ضامن .

(٢) سوانح قاسمى الجزء الثانى ص ٢٢٣ — ٢٢٤ — ٢٢٦ .

الاتجاه، والمركز الثقافي الديني والتوجيهي الإسلامي الأكبر في الهند[1].

حركة ندوة العلماء :

وكانت حركة العلماء الفكرية التي أسسها مولانا محمد علي المونكيري [2] وقادها العلامة شبلي النعماني [3] وزملاؤه، ودار العلوم التابعة لها جديرة بإحداث قنطرة تصل بين الثقافتين الإسلامية والغربية، والطبقتين : علماء الدين والمثقفين العصريين، وإحداث فكر جديد يجمع بين محاسن القديم والجديد، وبتعبير أصحاب هذه المدرسة الفكرية « بين القديم الصالح والجديد النافع » و « بين التصلب في الأصول والغايات والتوسع والمرونة في الفروع والآلات » كان قادة هذه الفكرة ينظرون إلى مناهج التعليم وبرامجه كأداة للتعليم قابلة للنمو والتطور، خاضعة لحاجة كل عصر ومقتضاه ولم يكونوا ينظرون إليها كأداة حديدية لا مرونة فيها (مع الاحتفاظ بالروح والأهداف والعلوم الأساسية)

---

(١) انظر فصل «مراكز العلم والثقافة الاسلامية» في كتاب « المسلمون في الهند » .

(٢) هو السيد محمد علي بن عبد العلي الحسيني، ولد في كانفور في شعبان ١٢٦٢ هـ ٢٨ يوليو ١٨٤٦ م، تخرج في مدرسة فيض عام كانفور، وبايع الشيخ العارف فضل رحمن الكنج مراد آبادي واختص به. قاوم حركة التنصير في الهند مقاومة فعالة وألف وكتب وقام بجولات واسعة في البلاد. وأسس ندوة العلماء في سنة ١٣١٠ هـ — ١٨٩٣ م، وأنشأ دار العلوم التابعة لها في عام ١٣١٦ هـ — ١٨٩٨ م، وقاوم حركة القاديانية في « بهار » وبايعه خلق كثير يعدون بمئات آلاف، توفي في ٩ ربيع الأول سنة ١٣٤٦ هـ، وكان من كبار المخلصين والعلماء الربانيين الذين شعروا بتغير الأحوال والأوضاع في العالم الاسلامي، ونهضوا للتجديد في منهج التعليم الديني .

(٣) هو العلامة شبلي بن حبيب الله، ولد في سنة ١٢٨٤ هـ في أعظم كره، ودرس زماناً في كلية علي كره، وصحب سيد أحمد خان مؤسس الكلية، وأنكر بعض اتجاهاته المتطرفة، وزار تركيا ومصر وسورية وغادر الكلية وأقام في حيدر آباد خمس سنين، مديراً لنظارة العلوم والفنون، وأسهم في حركة ندوة العلماء وكان عضوها النشيط والمشرف التعليمي لمدة ثمانية أعوام ثم استقال وأسس المجمع العلمي المعروف بدار المصنفين في أعظم كره، وألف في التاريخ الاسلامي كتباً مهمة، وكانت له مكانة مرموقة في نقد الشعر والأدب والتاريخ، ومن مصنفاته المشهورة سيرة المأمون، وسيرة النعمان، وكتاب الجزية في الاسلام، وحقوق الذميين، و « الفاروق » وشعر العجم. وغير ذلك، توفي ١٣٣٢ ببلدة أعظم كره .

وهى عندهم حافلة بالحيوية الكاملة والازدهار ، وبتعبير آخر : إن الدين حقيقة خالدة ليست فى حاجة إلى تطوير أو تبديل ، ولكن العلم شجرة مزهرة مثمرة تؤتى أُكلها كل حين ويستمرّ نموها وازدهارها ، والإسلام عندهم دين الإنسانية كلها ودين العصور كلها ، لذلك من الطبيعى أن يمرّ بمراحل التطور والارتقاء الفكرى الإنسانى المختلفة ، ويكلف القيادة فى بيئات تتغير فيها الأفكار والمفاهيم ، لذلك يجب أن يوسع نطاق التعليم والثقافة الذى يعدّ ممثلى الإسلام ومفسريه ، ويبرهن دائماً على صلاحها وحيويتها ، وقد رفع مؤسسو ندوة العلماء أصواتهم لإصلاح المناهج وتوسيعها وتطويرها ، وقد كان هذا الصوت غريباً فى الهند التى ظلت متمسكة بالمنهاج القديم ، عاضّة عليه بالنواجذ ، وكان خافتاً فى الأقطار الإسلامية الأخرى كذلك ، يقدر ذلك بقطعتين اقتبسنا إحداهما من كتابة مؤسس ندوة العلماء الشيخ محمد على المونكيرى ، والثانية من كتابة العلامة شبلى النعمانى :

« — قد تغيرت الظروف والأحوال فى هذا العصر ، إن الاعتراضات التى شغلت العقول وحلقات الدرس قديماً قد فقدت أهميتها وقيمتها ، وانقرضت الفِرق التى كانت تثيرها وتتشبث بها ، وأصبح العكوف على دراستها وتفهمها إضاعة للوقت وجهاداً فى غير عدوّ ، وقد نشأ عالم جديد وتجددت حاجاته ، قد أثار أعداء الإسلام وخصومه أسئلة جديدة فى هذا العصر لم تكن تخطر على بال ، وذلك فى ضوء الفلسفة الجديدة ، ولا يمكن إشباع الرد عليها والاقناع العلمى بالاعتماد على الفلسفة القديمة فقط . وإن زعم زاعم ، والسبب فى ذلك أن الإنسان لا يستطيع أن يحل الشبهة ويفحم الخصم إلاّ إذا عرف ما يؤول إليه الاعتراض وعرف الدوافع[١] » .

« — إن هذه العلوم اليونانية ليست علومنا الدينية ولا يتوقف عليها فهم ديننا

---

(١) مكاتيب محمدية — مجموع رسائل الشيخ محمد على المونكيرى .

ومعرفته ، إن الإمام الغزالى فى عصره قد ضم هذه المواد الدراسية إلى مناهج التعليم فى عصره لكى يطلع العلماء على الأساليب الجدلية اليونانية التى نشطت فى نشرها الفرقة الباطنية فى ذلك العصر ويقاوموا بذلك حركة الالحاد المتفشى فى ذلك العصر « ولكن الآن لا وجود لأولئك الملاحدة ولا لتلك العلوم اليونانية ، ولا يعتقد صدقها وصحتها المتنوِّرون ولا من يدعى الفطنة لذلك فقدت تأثيرها ولا خطر على الإسلام اليوم منها ، وقد احتلت مكانها علوم حديثة وقضايا جديدة ودراسات وأبحاث جديدة ، وقد أصبح من الضرورى أن يطلع علماؤنا على الابحاث الجديدة والعلوم العصرية المفيدة ليقدموا حلولا للمعضلات الحديثة وليردّوا على الشبهات رداً علمياً مؤسساً على الدراسة والتحقيق(١) » .

وكانت حركة ندوة العلماء فكرة ومدرسة فكرية أكثر من حركة إصلاح مناهج التعليم فحسب ، وكانت — لو قدَّر الله — خطوة مباركة وفتحاً جديداً يستحق التقليد فى الأقطار والمجتمعات الإسلامية التى خاضت فى ذلك العهد معركة الصراع بين القديم والجديد ، ولكن هذه الحركة لم تحظَ بالتعاون الواسع المتحمس الذى كانت تستحقه من كلتا الطبقتين : القديمة والجديدة ، لاتساع الفجوة بينهما ، ولوجود التطرف والمغالاة فيهما ، وبعض الخلافات التى حدثت فى صفوف العاملين لهذه الفكرة ، وأخيراً لا آخراً لعدم وجود طبقة من الأساتذة والموجهين الذين قد تبحروا فى الثقافتين ، وقد أحسنوا هضمهما وكوّنوا من هذه المواد — التى قد تبدو متناقضة — رحيقاً صافياً نافعاً ، كما تعمل النحل من الأزهار والأشجار ، وبقى معظم الشعب يتأرجح بين طبقتين ؛ طبقة ترى العدول عن القديم ونظمه التعليمية والانحراف عنها قيد شعرة ضرباً من التحريف أو نوعاً من البدع ؛ وطبقة تقدس كل ما جاء من الغرب وتبرئه من كل

(١) حياة شبلى ص ٦٠ للعلامة السيد سليمان الندوى .

عيب ونقص ، وتعتقد بأصحه به العظمة والعبقرية ، فى جميع الآراء والمذاهب الفكرية .

ورغم ذلك كله لا تزال فكرة ندوة العلماء الفكرة الوسط الحقيقية التى تستطيع أن تُنقذ نظام التعليم الدينى من الانهيار وتتفادى بها الأمة الصراع بين القديم والجديد ، ووجود طبقتين متناوئتين متنافستين ، طبقة علماء الدين ، وطبقة رجال الثقافة الحديثة ، الوضع الذى جرّ على كثير من البلاد الإسلامية شقاء ، وكان السبب فى كثير من الأحيان فى اتجاه البلاد العلمانى ، واللادينى .

وكان لقادة هذه الفكرة ولمتخرجى مدرستها — دار العلوم ندوة العلماء — فضل لا يستهان به فى نشر الثقافة الإسلامية ، وعرض السيرة النبوية ومحاسن الإسلام وتعاليمه فى أسلوب عصرى قوى وثوب قشيب ، وكان لكتابات العلامة شبلى النعمانى العلمية والأدبية ولا سيما لكتبه « سيرة النبي ﷺ » و « الفاروق » و « الغزالى » و « الرومى » ولرسائله : « الجزية فى الإسلام » « ومكتبة الاسكندرية » و « نظرة تاريخية على عالمكير » تأثير كبير فى إعادة ثقة الجيل الجديد بالثقافة الإسلامية ، ومكافحة مركب النقص فيهم ، كذلك كان لتلميذه النابغة العلامة الدكتور السيد سليمان الندوى رحمة الله عليه فضل كبير فى هذا الاتجاه . وكانت المجلدات الأربع التى أكمل بها كتاب سيرة النبي ﷺ موسوعة كبيرة فى السيرة وعلم التوحيد ، ويعتبر كتابه « خطبات مدراس »[1] من أقوى وأجمل ما كتب فى السيرة ، وكذلك كُتبه عن الشخصيات الإسلامية ، وفى البحوث العلمية ، وقد ساهم بنشاط وجدارة فى حركة البلاد العلمية والأدبية والسياسية مساهمة أكسبت العلماء تقدير رجال الثقافة الجديدة ورجال العلم والأدب ، وأبعدت عنهم تهمة « الانعزالية » التى أُصيب بها العلماء

---

(١) نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية ونشر باسم « الرسالة المحمدية » تعريب صديقنا الفاضل الأستاذ محمد ناظم الندوى . ط : دار الفتح دمشق .

فى عهد الانحطاط الأخير ، وكانت مجلة « المعارف » التى يرأس تحريرها تعتبر من أرقى المجلات العلمية الإسلامية فى العالم الإسلامى .

قيادة سيد احمد خان ومدرسته الفكرية :

أما القيادة الثانية التى تزعمها سيد أحمد خان على أساس تقليد الحضارة الغربية وأسسها المادية واقتباس العلوم العصرية بحذافـــيرها وعلى علاتها ، وتفسير الإسلام والقرآن تفسيراً يطابقان به ما وصلت إليه المدنية والمعلومات الحديثة فى آخر القرن التاسع عشر المسيحى(١) ويطابقان هوى الغربيين وآراءهم وأذواقهم ، والاستهانة بمـا لا يثبته الحس والتجربة ، ولا تقرره علوم الطبيعة فى بادىء النظر ، من الحقائق الغيبية ، وأمور ما بعد الطبيعة(٢) .

شاهد سيد أحمد خان(٣) انهيار الحـكومة الإسلامية المغوليـة التى كانت صورة

(١) وكان كما لا يخفى دوراً لم تبلغ فيه العلوم الطبيعية نهايتها واكتمالها ، وكانت لاتزال فى دور الطفولة والنشوء والارتقاء .

(٢) اقرأ لتفصيل وفهم أسـلوب التفـكير الدينى الذى اتبعه سر سيد أحمد خان فى آرائه الدينية ومناهجه الـكلامية ، كتاب — Religious Thought of Syed Ahmad Khan
لمؤلفه بشير أحمد دار — Bashir Ahmad Dar M. A
INSTITUTE of Islamic Culture, Lahore.
من مطبوعات مجمع الثقافة الاسلامية .

(٣) هو سيد أحمد بن المتقى بن الهادى الحسينى الدهلوى ، ولد سنة ١٢٣٢ هـ — ١٨١٧ م وقرأ المتوسطات فى العلوم العربية . وعنى بالهيئة والهندسة والأقليدس عناية خاصة ، وتولى الوظائف والقضاء فى الحكومة الانجليزية ، وألف كتبا ذات قيمة علمية فى التاريخ ، وتولى تصحيح بعض الآثار العلمية والمؤلفات القديمة ، وأشرف على ضبطها ونشرها ، وكان من أنصار الحكومة الانجليزية وممن سعى فى إخماد ثورة ١٨٥٧ ، وتوطيد الحكم الانجليزى وإزالة سوء التفاهم والوحشة بين الشعب والحكومة ، وكافأته الحكومة على ذلك براتب شهرى ، وأنشأ مجمعاً علمياً للترجمة والتأليف والنشر ، وأصدر مجلة « تهذيب الأخلاق » وسافر إلى أوربا سنة ١٢٨٠ هـ ١٨٦٩ م وألف هناك كتابه المشهور « الخطبات الأحمدية فى العرب والسيرة المحمدية » فى الرد على السيروليم ميور ، والدفاع عن صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم وأنشأ سنة ١٨٧٥ م كلية إسلامية انجليزية ، وهى التى تسمى الآن جامعة على كره الاسلامية ، وتوفى سنة ١٣١٥ هـ ١٨٩٨ م ودفن فى على كره اقرأ ترجمته الضافية ومختاراته فى المذهب والعقيدة فى الجزء الثامن لـكتاب « نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر » لوالدنا العلامة السيد عبد الحى الحسنى .

مصغرة شاحبة الإمبراطورية الإسلامية . ورأى إخفاق الثورة الكبرى فى سنة ١٨٥٧ م ، واطلع على أسباب هذا الإخفاق الذريع وانهزام مجموعة كبيرة ضخمة من أهل البلاد أمام حفنة من الأجانب الغرباء ، ورأى ما دفع المسلمون من قيمة هذه الثورة التى رسموا خطتها وتولوا كبرها ، ورأى هوان الشعب الكبير الذى كان صاحب الأمر والنهى فى البلاد ، وشقاء الأسر والبيوتات الكبيرة ، ورأى سطوة الإنجليز تقوم على هذه الأنقاض ، وأبهة ملكهم ، وطلائع مدنيتهم الخلابة ، وآياتها الباهرة ، واتصل بالانجليز اتصالا وثيقاً عن طريق الوظيفة والزمالة وعن طريق الصداقة والتعارف ، فأعجب بذكائهم وكفاءتهم ومدنيتهم ، وكان رجلا مرهف الحس ، حاد الذهن ، قوى العاطفة عصبياً ، سريع الانفعال والقبول ، مشاركا فى الثقافة الدينية غير راسخ فيها ولا متقن لها ، جريئاً فى إبداء الرأى ، فتأثر بالإنجليز تأثر المغلوب بالغالب ، والضعيف بالقوى ، وقلد حضارتهم وأساليب حياتهم شخصياً ، وصار يدعو إلى هذا التقليد فى حماسة وقوة ، ويرى أن هذا التقليد والظهور فى مظهر سيد البلاد ومجاراته فى الحياة والعادات تزيل المهنية من قلوب المسلمين ، وتعالج « مركب النقص » فيهم ، وترفع مكانتهم فى عيون الولاة ورجال الحكومة ، وتضعهم فى مكان الزملاء ، الشركاء فى الحياة ، الأقران فى الاجتماع ، يدل على هذه الفكرة دلالة واضحة ما جاء فى بعض مقالاته ، يقول :

« لابد أن يرغب المسلمون فى قبول هذه الحضارة (الغربية) بكمالها ، حتى لا تعود الأمم المتحضرة تزدريهم أعينها ، ويعتبروا من الشعوب المتحضرة المثقفة »[1] .

ويقول فى كتابه « أحكام طعام أهل الكتاب » ، وهو من مؤلفاته القديمة ، طبع فى سنة ١٨٦٨ م ، حاثاً على التشبه بالانجليز فى عاداتهم وأساليب معيشتهم ، قال بالعربية:

« فأيها المسلمون تعملوا بها لا على نية العجب والتكبر ، بل على نية ترفع حال

(١) مجلة «تهذيب الأخلاق» مقالات سيد أحمد خان ج٢ ص١ .

المسلمين لئلا ينظر إليهم القوم (الأوربيون) بنظر الحقارة ، مما اعتادوا من الذلة والمسكنة ، إن الله يعلم ما فى صدورنا ويحكم علينا بما فى قلوبنا من حسن النية أو غيره [١] » .

وقام سيد أحمد خان برحلة إلى إنجلترا فى أول إبريل ١٨٦٩م، فكان أول مسلم هندى سافر إلى الجزائر البريطانية فى هذا العهد المبكر ، وقد كانت قناة السويس فى دور الانشاء[٢] وقد قابل صاحب فكرتها والاشراف عليها المهندس الفرنسى الشهير الموسيو فردينان دى ليسبس (Ferdinand De Lesseps) الذى كان مسافراً فى نفس السفينة . وكان السيد أحمد خان موضع حفاوة نادرة فى لندن، وقد مكث فيها سبعة عشر شهراً ، كان ضيفاً مبجلا وزائراً كريماً ، وصديقاً عزيزاً فى الأوساط الانجليزية المحترمة ، وحضر المآدب الملكية الفخمة والولائم « الارستقراطية » التى تمثل الحضارة الأوربية فى أروع مظاهرها ، وأخلاق الطبقة الحاكمة ، وطبقة الأشراف ، ونال الوسام الملكى ولقب الشرف ، وقابل الملكة ، وولى العهد والوزراء الكبار ، واختير عضواً فخرياً فى الجمعيات العلمية ذات الشرف الكبير ، وحضر حفلة نادى المهندسين الكبار ، واطلع على المشاريع والخطط التقدمية التى مرت بها البلاد فى الزمن القريب ، والتى أحدثت ثورة وانقلاباً فى الأوضاع ، وفى مستوى البلاد ، ومكنتها من بسط نفوذها وسيطرتها الفكرية والسياسية .

زار سيد أحمد خان فرنسا وإنجلترا وهما فى أوج مدنيتهما ، وفى ريعان الصناعة الحديثة والعلم الجديد ، ورأى المجتمع الانجليزى فى عصر لم يتسرب إليه الوهن ، ولم يعتره الضعف الذى أصيب به بعد الحرب الأولى ، ورأى الحيوية تتدفق منه ، والطموح

---

(١) ص ٥٠ ، وقد تناولنا العبارة العربية بشىء من الاصلاح والتقويم .

(٢) وفى ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ فتحت الترعة لمرور المراكب ، وجرى ذلك باحتفال عظيم لم يكن يسمع بمثله وذلك فى أثناء وجود السيد احمد خان فى إنجلترا .

إلى غزو العالم وإخضاعه يملك زمامه ، وقد شغل بمشاهدة جانبه المشرق الوضاء عن مشاهدة جانبه الضعيف الأسود ،وهو الجانب الخلقي والروحي ،وجانب الاستعمار الغاشم، والاجرام العالمي والأثرة القومية، والقسوة على غير الانجليز — التي رأى مظاهرها في الهند — فأعجب بهذه الحضارة والمجتمع الذي يمثلها إعجاباً ملك عليه النفس والفكر، وملأ جميع جوانحه وجوانب تفكيره ، ورجع إلى البلاد في ٢ أكتوبر سنة ١٨٧٠ م داعية متحمساً إلى تقليد الحضارة الغربية ، وإصلاح المجتمع الإسلامي الهندي على أساس تقليد المجتمع الأوربي ومبادئه وقيمه ، وتبنى هذه الدعوة بكل إخلاص وبكل حماسة ، ووهب لها ،واهبه كلها ، وأصبحت نظرته مادية بحتة ، تخضع للقوى الطبيعية ، والسنن الكونية — كما يفهمها — خضوعاً زائداً ، ويخضع لهـا عقيدته ويؤوّل على أساسها القرآن تأويلا يبلغ به حد التحريف والعبث بأصول العربية واللغة والنحو ، والتواتر والاجماع ، فصار يفسر القرآن تفسيراً(١) يخرق فيه الاجماع ، وينقض به اللغة ، ويثير العجب والإنكار في الأوساط الدينية والعلمية ، وقد أصاب الدكتور محمد البهي في نقد هذا الاتجاه إذ يقول في كتابه « الفكر الإسلامي الحديث » :

« فحركة سيد أحمد خان كانت تقوم على الافتتان بالعلم الطبيعي والحضارة الغربية المادية ، كما يفتتن في عصرنا الحاضر بعض المفكرين بما يسمى « العلم » (Science) وبالمركبات الحضارية التي قامت عليه ، والافتتان بالعلم الطبيعي أو بالطبيعة كما يقال ، يؤدّي إلى خفة وزن القيم الروحية والمثالية ، وهي القيم التي تقوم عليها رسالة الأديان السماوية التي يمثلها الإسلام أوضح تمثيل ، وقد يصير الافتتان بهذا العلم الطبيعي إلى إنكار كل قيمة أخرى مما لا يشاهد في الطبيعة ، ويدرك بالحس الإنساني ، ومن هنا ربط السيد جمال الدين الأفغاني بين إلحاد سيد أحمد خان ومذهبه الدهري أو الطبيعي ،

---

(١) سماه « تفسير القرآن وهو الهدى والفرقان » كتبه في « أردو » في ستة مجلدات ، وقد وصل فيه إلى تفسير سورة النحل .

مع بقاء انتسابه إلى الإسلام ولغته بالإلحاد ، رغم ما كان يكرره من القول بأنه يدافع عن الإسلام ، وأنه يبغى أن يوجد طريقاً للمسلم المعاصر يوفق فيه بين إسلامه وتقبله الحياة العصرية التى قامت على إثر نهضة العلم الطبيعى »(١) .

وقد كان هذا الاتجاه المادى المتطرف والإسراف فى تمجيد العقل والمبالغة فى سلطانه وحدوده ، وإخضاع إرادة الله وقدرته وكتابه لقوانين الطبيعة وقوانين هذا العالم ، والجراءة على التفسير وتأويل معانى القرآن تأويلا جريئاً ، قد فتح باباً للفتنة والتحريف والإلحاد فى آيات الله والفوضى فى الدين والعقيدة التى انتشرت فى العصر الأخير(٢) .

جوانب الضعف فى فكرة سيد احمد خان :

اتسمت خطة سيد أحمد خان التعليمية بسمتين تقاصرت بسببهما عن أن تكون الثورة المنشودة التى تشتد إليها حاجة العالم الإسلامى ، وعملا إيجابياً بنّاءاً يلائم وضع هذا المجتمع القائم على أساس العقيدة والإيمان والرسالة المحمدية ، ويملأ الفراغ الهائل الواقع فى العالم الاسلامى كله .

أولا إنه لم يفكر فى إخضاع هذا النظام التعليمي الذى أخذ شكله النهائى فى البيئة الغربية ، لطبيعة هــذا المجتمع الإسلامى الهندى الذى كان يريد تطبيقه فيه وحاجاته وأوضاعه ، ولم يفكر فى سبكه سبكاجديداً إسلامياً هندياً ، ولم يفصله عن الحضارة الغربية وروحها المادية التى لا لزوم لها فى بلد إسلامى شرقى ، بل إنه استورد هــذا النظام من

---

(١) ص ١٥ — ١٦ .

(٢) قد يفهم القارىء من كتاب «الفكر الإسلامى الحديث» للدكتور محمد البهى (ص ١٧) أن المذهب القاديانى انبثق من الحركة التجديدية الدينية التى قام بها سيد أحمد خان ، وليس الأمر كذلك ، فإن سيد أحمد أنكر على مؤسس القاديانية ادعاء النبوة وعارضه ، إن قصارى الأمر أن الجو الذى هيأه سيد أحمد خان قد ساعد فى انتشار هذا المذهب وقبول آراء صاحبه المتطرفة ، وقد كان الخليفة القاديانى (وعقله الأول) نور الدين الحكيم من كبار المعجبين بمدرسة سيد أحمد خان فى التفسير والتأويل .

الغرب بتفاصيله وخصائصه وروحه وطبيعته ، ومع الحضارة التي تكتنفه ، وألح على كلا الجزءين — المنهاج التعليمي ، والحضارة الغربية — إلحاحاً شديداً ، بل شرط — في قانون الكلية — أن يكون العميد دائماً إنجليزياً ، وأستاذان — على الأقل — من الانجليز ، ومدير الثانوية من الانجليز ، ويزاد في هذا العدد كلما اتسعت له ميزانية الكلية (١) .

وهكذا كان ، فلم يزل أربعة أو خمسة من الأساتذة الكبار من الانجليز يتولون التدريس في أقسام مختلفة ويشرفون عليها ، وكان لهم تأثير شديد عميق في نظام الكلية وأخلاق الطلبة ، حتى استطاعوا — بنفوذهم — أن يلعبوا دوراً مهماً في سياسة البلاد ، وقد كان عميد الكلية المستر ثيودربك — الداهية الانجليزي — صاحب التوجيه الأول في السياسة الإسلامية الهندية وقيادة الرأي ، وقد كان لهذا التوجيه عواقب وخيمة في السياسة ، واتجاه المسلمين السياسي (٢) .

وهكذا اقترنت دعوة سيد أحمد خان التعليمية بالدعوة إلى الحضارة الغربية من غير لزوم وحاجة إلى ذلك ، فحامت حولها الشبهات ، واكتنفها أجواء من السخط والاستياء ، وأثارت إنكاراً شديداً في الأوساط الدينية ، ورافقتها — منذ نشوئها — دعوة إلى مقاطعة هذه الحركة والابتعاد عنها خلقت مشكلات كثيرة في سبيلها ، وعارضها علماء الدين — الذين لم يكونوا يعارضون تدريس اللغة الانجليزية والعلوم المفيدة — لما اقترن بها ورافقها من أول يومها ، من الخضوع للحضارة الغربية وقيمها ، والتأثير في الأخلاق والعقائد ، وبسبب سيطرة الأساتذة ورجال الادارة الانجليز ونفوذهم في هذه المؤسسة الوليدة ، وفي عقول الشباب المسلمين — الذين ينتمون إلى أكرم الأسر الاسلامية

---

(١) حياة جاويد «سيرة سيد أحمد خان» لصديقه الأستاذ ألطاف حسين حالي ص٢٨٢ .

(٢) اقرأ فصل «الدور الذي قام به المسلمون في تحرير الهند» في كتاب «المسلمون في الهند» المؤلف .

وأذكاها — وفى أخلاقهم ، وقد نشأ — بفعل هذه المؤثرات ، وبتأثير الجو الغربى الذى يسود فى هذا المعهد — جيل مثقف إسلامى الاسم ، غربى التفكير ، إنجليزى الطراز ، مضطرب العقيدةفى بعض الأحيان، يخلق مشكلة جديدة فى البيوتات وفىالمجتمع الاسلامى ولا ينسجم معه انسجاماً كلياً .

والسمة الثانية أنه تمسك فى هذا النظامالتعليمى بتعليم اللغة والآداب فقط ، ولم يعن بتعليم الفنون والعلوم التطبيقية العملية العناية التى تستحقها ، مع أنهـا هى ثمرة العلم الجديد اليانعة ، وسر قوة الأمم الغربية وسيادتها ، وهى التى يجب أن تستفاد من الغرب ويحرص على دراستها والبراعة فيها ، بل إنه — سامحه الله — عارض فى بعض الأحيان تعليم الصنائـع والعـلوم معارضة شديدة ، وكتب فى هذا الموضوع مقالات شديدة اللهجة ، مريرة النقد آخرها للمقال الذى نشرته مجلة « عليـكرة كزت » (Aligarh Gazette) فى عددها الصادر يوم ١٩ فبراير سنة ١٨٩٨ م يقول فيه : « إن الهنـد نظراً إلى حالتها الراهنة ليست فى حاجة إلى تعليم الصنائع ، إن الأهم المقـدم هو الثقافة الفـكرية من المستوى الأعلى التى لم تتحقق أو لم تـكتمل بعد » . وقد تخوف سيد أحمد خان بما كان يقرؤه لـكبار الانجليز من الحث على دراسة العلوم الصناعية أن الانجليز يريدون وقف التعليم العالى أو تعليم الآداب الغربية ، فـكان يحارب هذه الفـكرة بكل قوته وبلاغته ؛ وقد ألقى محاضرة طويلة فى حفـلة مؤتمر التعليم الاسلامى الخامسة فى هذا الموضوع ، وعارض أن يكون مشروع تعليم العلوم الصناعية على حساب تعليم الآداب الانجليزية والدراسات الأدبية ، وقد عرض هذا المشروع مراراً وبحث فيه فى لجان جامعة « إله آباد » ، وكان سيد أحمدخان من كبار خصومه ومعارضيه[١]

كانت نتيجة ذلك أن الجامعة الاسلامية اتجهت اتجاهاً علمياً أدبياً محضاً ، وسيطرت

---

(١) حياة جاويد ص ٣٠٢ — ٣٠٣ .

عليها نزعة التقليدوالتطور ، ونزعة التوسع فى الآداب ، وخرّجت عدداً لا يستهان به من الخطباء والأدباء والإداريين والقضاة والموظفين الـكبار ، ولم تخرّج – بطبيعة الحال – رجالا مبرزين ومبتـكرين فى علوم الهندسة والميـكانيـكا ، والطبيعة والـكيمياء والصناعات المفيدة ، والعلوم التى كان الشعب الإسلامى الهندى فى فقر شديد اليها ، وكان ذلك من أسباب تخلفه واقتصاره على الوظائف الحكومية والمراكز الإدارية المحدودة دائمـاً .

محصول هذه الحركة وانتاجها :

وعلى كل ، فقد كان سيد أحمد خان من أقوى الشخصيات التى عرفتها الهند بل العالم الإسلامى فى العهد الأخير ، وكانت الحركة التى قام بها من أقوى الحركات ، وقد كتب لها النجاح والتأثير مالم يكتب لأى حركة وفـكرة ، وكان نفوذ شخصية سيد أحمد خان واسع النطاق وعميقاً فى المجتمع الإسلامى الهندى ، كان له تأثـير فى الأدب والتفـكير وأساليب البيان ، وقد أنشأ مدرسة أدبية لها كُتّاب مفـكرون .

وقد آتت هذه الدعوة التعليمية – التى تزعمها سيد أحمد خان بقوة وإخلاص – ثمراتها ، وملأت الفراغ الثقافى ، والاقتصادى الواقع فى المجتمع الإسلامى الهندى ، بعد استقرار الحكم الانجليزى فى الهند ، وعالج – إلى مدى محدود – القلق واليأس المسيطرين على نفوسهم، وتخرج فى هذه الجامعة بعض خيرة الشباب وقادة الفـكر ، والزعماء السياسيين وأدباء كبار ، وشخصيات قوية ، قادت حركة « الخلافة »(١) وحركة التحرير فى الهند ، وساهمت فى قيام دولة باكستان وإدارتها بعد ، ولـكنها – على مالها من فضل فى ثقافة

(١) هى حركة تأييد الحكومة العثمانية فى قضاياها الإسلامية ، ومعارضة الحلفاء ، وكانت من أقوى حركات الهند الاسلامية السياسية .

المسلمين الجديدة وفى حالتهم الاقتصادية — لم تحقق الغرض المطلوب من الاستفادة بتجارب الغرب وتكييفها للمجتمع الإسلامى وظروفه ، ولم تملأ الفراغ الواقع الهائل ، فراغ الجيل الإسلامى الجديد ، الراسخ فى عقيدته ، القوى فى إيمانه ، العارف لرسالته ودوره فى قيادة المدنية ، الواسع فى ثقافته ، المرن فى تفكيره ، الآخذ من الثقافة الجديدة محاسنها ولبابها ، المتجنب شرورها وقشورها ، الأصيل فى إنتاجه ، الجيل المرتقب الذى كان يتطلع إليه العالم الإسلامى — ولا يزال — فى لهف شديد وصبر نافد، الجيل الذى كان يستطيع بتوفيق الله تعالى أن ينقذ العالم الاسلامى من الحيرة التى كان يتورط فيها ، ومن الضعف الذى قد تسلط عليه ، ويمنحه مركزاً رئيسياً فى قيادة الأمم ، وتوجيه المدنية .

أكبر الاله آبادى الشاعر الثائر :

وقد حارب هذه النزعة التطبيقية التقليدية — التى يقودها سيد أحمد خان — حربا لاهوادة فيها معاصر مثقف ثقافة قديمة وجديدة ، يعتبر من أكبر شعراء عصره ، وهو السيد أكبر حسين[1] الإله أبادى ، الملقب فى شعره بـ « أكبر » واستخدم لنقدها والإنكار على هذا الجيل المثقف الجديد أسلوب الفكاهة الحلوة ، والأدب

---

(١) هو السيد أكبر حسين بن تفضل حسين ، ولد فى سنة ١٢٦٢ هـ (١٨٤٦ م) فى مديرية إله آباد ، وتلقى الثقافة الاسلامية ودرس اللغة الانجليزية ، واجتاز فى سنة ١٢٨٤هـ امتحاناً فى الحقوق وتولى القضاء ، وتنقل فى الوظائف القضائية ، إلى أن أحيل الى المعاش سنة ١٣٢٠ هـ — ١٩٠٣ م ، ولقبته الحكومة الانجليزية بلقب « خان بهادر » — يساوى بك فى المجتمع المصرى — ولقبه الشعب الهندى بلقب « لسان العصر » فغلب لقب الشعب لقب الدولة الرسمى .

وكان — رغم ثقافته الحديثة العميقة — ديناً محافظاً سليم العقيدة ، قال فى الليلة التى توفى فيها : « ما فاتنى فريضة ، ولا غفلت عن حزبى فى الليل ، ولا انصرفت عن تلاوة القرآن طول عمرى » توفى رحمه الله سنة ١٣٤٠هـ — ١٩٢١م ، ومن آثاره ثلاثة دواوين شعرية ضخام تلقتها الأوساط الأدبية والاسلامية بالقبول والاستحسان ، وشهد له كبار الأدباء والشعراء — منهم العلامة محمد إقبال — بالاجادة وأنه إمام فى الشعر الفكاهى الاصلاحى فى (أردو) .

الخفيف الروح ، من أبدع الأساليب الأدبية وأقواها ، وأجملها فى هذا العصر ، وجعل ذلك موضوع شعره طول حياته ، ينتقد سياسة سيد أحمد خان — الذى يعترف بإخلاصه — التعليمية ، وما كان يدعو إليه من تقليد الغرب وتطبيق مناهج حياته ، وينتقد الحياة السائدة فى الكلية الإسلامية ، وما تتسم به من تقليد أعمى للغرب ، وتساهل فى العقيدة ، ورقة فى الدين ، وتبذير فى الأقوال ، وتألق فى المظاهر ، ونفور عن الدين ورجاله ، ونهامة للحياة ، وتهالك على الوظائف الرسمية ، وتحلل عن التراث الشرقى القديم ، وعن تقاليده ومبادئه ، وثورة عليها ، واندماج فى المجتمع الغربى الغريب ، وسيطرة التفكير المادى الاقتصادى المحض ، ويصور — بشاعريته الساحرة وريشته البارعة — الجيل الجديد تصويراً دقيقاً ، واضح القسمات والملامح .

وقد انتشر الشعر فى الأوساط الهندية على اختلاف طبقاتها واتجاهاتها انتشاراً عجيباً : وتلقفه الأدباء والكتاب والشباب وردده ترديداً لم يعرف لشعر آخر منذ زمن طويل ، وعلى نجاح هذا الشعر وتأثيره فى تحريك عاطفة الكراهة والازدراء والتخفيف من غلواء هذه النزعة التقليدية وقيمة هذه الحضارة ، لم يستطع بطبيعة الحال أن يحدث ثورة فى المجتمع ويقف تيار التقليد الجارف ويؤسس مجتمعاً جديداً ، لأن الأدب المؤسس على التهكم والتندر تأثيره وأجله محدودان ، ولكنه لم يخل من الفائدة ، وكان من عوامل الاتجاهات الأدبية الاجتماعية الجديدة فى الهند(١) .

الحركة الوطنية ومقاطعة البضائع الأجنبية :

كان هذا الاتجاه التقليدى فى الهند — الذى قاده سيد أحمد خان فى المسلمين وغذته الحكومة الإنجليزية ونظام المعارف — فى الطبقة المثقفة ، حراً فى سيره لا يعوقه

---

(١) المؤلف مقالة مسهبة نشرت فى مجلة «الفتح» المصرية . مجلد العام التاسع ١٣٥٤هـ عدد ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ومجلة «الضياء» الصادرة عن ندوة العلماء — لكهنؤ — (هند)

شيء ، ولا يخفف من حدته إلا هدوء الطبيعة الهندية واعتدالها فى قبول كل جديد ، وتمسكها بالقديم وبالبساطة ، إلا أنه كان جديراً كل الجدارة بأن يكون الاتجاه العام السائد على مر الأيام ، ويجعل من الهند الشرقية مجتمعاً غربياً فى تفكيره وأساليب حياته ، وفى حضارته واجتماعه ، ولكن حادثاً حال دون ذلك ، وغير اتجاه التاريخ .

حدث ما يضعف سلطان الحكومة الإنجليزية — التى تتزعم هذه الحضارة فى الهند — فى النفوس والعقول ، ويثير الشك فى قيمة هذه الحضارة وجدارتها للقيادة واستعدادها للإنصاف وتحقيق العدالة الاجتماعية ، وما يثير السخط الشديد والكراهة العميقة لزعماء هذه الحضارة وممثليها فى الشرق ، وما يحرك الشعور القوى بالشخصية وبالكرامة فى أهل البلاد ، ويحمل على مقاطعة هذه الحكومة وكل ما يعزى إليها من حضارة ومظاهر وشعائر ، وكل ما يموّن حركتها التجارية والاقتصادية ويغذيها ، ذلك نشوب الحرب العالمية الأولى (سنة ١٩١٤ — ١٩١٨ م) ووقوف الحكومة البريطانية — مع حلفائها — الموقف المعادى من الدولة العثمانية التى ينظر إلى المسلمون فى الهند — كغيرهم فى البلاد الإسلامية — كرمز للمجد الإسلامى ، وموئل للخلافه ، وحامية للإسلام ، ولما تمت الهزيمة للأتراك فى ١٩١٨ م واستولى الانجليز على الاستانة ، وتوزع الحلفاء ممتلكات الدولة العثمانية ، انفجر بركان الثورة فى الهند ، وتعاون المسلمون الهنادك فى حركة الخلافة بشكل عام ، وكان غاندى — الزعيم الهندى الشهير — فى جبهة القيادة مع زملائه محمد على وشوكت على وأبى الكلام آزاد والشيخ عبد البارى الفرنجى محلى ، واقترحوا سنة ١٩٢٠ م مقاطعة الحكومة والاضراب عن التعاون معها فى إدارة الحكومة وجميع مجالات الحياة ومقاطعة البضائع الأجنبية ، فكان أمضى سلاح سلمى استخدمته حركة وطنية ، وانطلقت موجة عنيفة من السخط الشديد اكتسحت البلاد ، تحمل معها الدعوة إلى مقاطعة البضائع الأجنبية والتخلى عن مظاهر الحضارة الأجنبية المستعمرة ، والظهور فى المظهر الوطنى الشعبي ، والتمسك بالبساطة والتقشف

في الحياة ، والاقتصار على المنتجات الوطنية ، وكانت أعظم وأعنف حركة شاهدتها البلاد ، وكانت البلاد كلها — من أقصى حدودها إلى أقصى حدودها — شعلة نار ، وقد هزت سيطرة الحضارة الغربية في أعماق النفوس ، واقتلعت جذورها وعروقها من قلوب لا يحصيها كثرة إلاّ الله ، وأشعل الناس النيران في ملابسهم الغربية ، والقماش الوارد من الخارج — من إنجلترا طبعاً — في جموع حاشدة ، وحفلات كبيرة ، ورفض كبار الأغنياء والمثقفين ، ورجال الطبقة الأرستقراطية عيشتهم الغربية الباذخة ، وتقشفوا وآثروا الحياة البسيطة الوطنية ، وحدث انقلاب عظيم في حياة الكثيرين من كبار المحامين والتجار والموسرين ، فقد ملأوا السجون ، وتحملوا المشاق ، وبدأ منهم من الإيثار ، والزهد والسماحة ، وقوة العاطفة الدينية والوطنية ، والمواساة للفقراء والمحافظة على الشعائر الدينية ، ما لم يكن يتوقع من أمثالهم قبل ظهور هذه الحركة .

وتلت هذه الحركة التي كان طابعها دينياً ، الحركة الوطنية الهندية العامة ، التي ترمي إلى تحرير البلاد ، وطرد الاستعمار ، وإقامة الحكم الذاتي ، وكانت — بخلاف كثير من الحركات السياسية في الشرق — حركة سياسية اجتماعية ذات فلسفة فكرية واقتصادية ، فلعبت دورها في إضعاف سلطان هذه الحضارة التي جاءت مع المستعمر في تدعيم الشعور الوطني ، وإيثار كل ما هو أصيل وعريق في طبيعته الهندية وبيئته الوطنية على المستورَد الأجنبي ، ولا شك أن هذه الحركات السياسية استطاعت أن تفعل — من محاربة مركب النقص ، ومن إثارة الاعتداد بالكرامة والتخلص من الاستعمار الفكري والثقافي — ما لا تستطيعه الفلسفات العلمية الكبيرة ، وذلك شأن الحركات العلمية الشعبية ، التي تتغلغل في أجزاء المجتمع ، وتسيطر على تفكيره عامًا في كل بلد .

محمد اقبال ونقده للحضارة الغربية :

وقد بدأ الشباب الإسلامي الذكي في فجر القرن العشرين يتوسعون في الدراسات

الغربية، ويتعمقون فيها فى الجامعات الهندية الراقية، وقد زالت عنهم دهشة الفتح وهيبة الإنجليز، وبدأت بعثات ثقافية ترحل إلى أوروبا، ويقيم عدد كبير منهم فى عواصمها إقامة طويلة، ينهلون من مناهلها الثقافية، ويدرسون العلوم العصرية بدقة وإتقان، تحت إشراف أساتذة كبار أحرار، ويعرفون الحضارة الغربية عن كثب لا عن كتب، بل يخوضون فيها، ويسبرون غورها، ويعجمون عودها، كأى شباب غربى مثقف من أبناء البلد، ويدرسون الفلسفات والنظم والمدارس الفكرية، ويطلعون على دخائلها وأسرارها، وعلى الطبيعة الغربية المادية، والنخوة القومية الأوروبية، والأثرة الشعبية فى نفوس هذه الشعوب، ويرون جوانب الضعف وبوادر الإفلاس وطلائع الانهيار فى المجتمع الغربى، ويلاحظون العناصر الصالحة البناءة، المسعدة للبشرية، المفقودة فى تركيب هذه الحضارة، وفى طبيعة زعمائها وحملة لوائها، وعناصر الفساد الهدامة المدمرة للمدنية المضللة للبشرية، الموجودة فى عجينها، المركبة فى طينتها من اليوم الأول، فيثير كل ذلك فى نفوسهم وعقولهم معان وأحاسيس لم تكن ممكنة إلا مع الإقامة الطويلة فى أوروبا، والتعمق فى فلسفاتها وأفكارها والدراسة المقارنة، وإلا مع النظر العميق الجرىء، والتحرر من ربقة التقليد، وإلا مع الإيمان الذى لم يتجردوا عنه، بل بقى جمرة فى رماد مستعدة للالتهاب فى كل وقت، فيرجع كثير منهم يائساً من مستقبل الحضارة الغربية، ثائراً عليها، ناقداً نقداً جريئاً عميقاً متزناً، لا تطرف فيه ولا إنكار للواقع، ولا مكابرة فى الحقائق.

لقد كان فى مقدمة هؤلاء الناقدين الثائرين محمد إقبال[١] الذى يعتبر بحق أنبغ عقل

(١) ولد محمد إقبال بن نور محمد فى «سيالكوت» مدينة فى مقاطعة بنجاب سنة ١٨٧٧م وانضم الى كلية الحكومة فى «لاهور» حيث حضر الامتحان الأخير فى الفلسفة وأخذ درجة ماجستر (M. A.) فى الفلسفة بامتياز، وعين أستاذاً الفلسفة والانجليزية فى نفس الكلية. وسافر الى لندن سنة ١٩٠٥، حيث التحق بجامعة كمبردج وأخذ شهادة عالية فى الفلسفة وعلم الاقتصاد، وسافر الى ألمانيا وأخذ من جامعة ميونيخ الدكتوارة فى الفلسفة. ثم رجع الى لندن، وحضر الامتحان النهائى فى —

أنتجته الثقافة الجديدة التي ظلت تشتغل وتنتج في العالم الإسلامي من قرن كامل، وأعمق مفكر رجده الشرق في عصرنا الحاضر، ولم نر من نوابغ الشرق وأذكيائه — على كثرة من أم الغرب منهم ودرس هناك — أحداً نظر في الحضارة الغربية هذا النظر العميق وانتقدها هذا الانتقاد الجريء.

إن محمد إقبال قد لاحظ جوانب الضعف الأساسية في هذه الحضارة وتركيبها، والفساد الذي عجنت به طينتها لاتجاهها المادي وثورة أصحابها على الديانات، والقيم الخلقية والروحية عند نهضتها، وعلل فساد القلب والفكر الذي اتسمت به هذه الحضارة بكون روح هذه المدنية ملوثة غير عفيفة، وقد جردها تلوث الروح عن الضمير الطاهر، والفكر السامي والذوق السليم [1]»، وتسلط عليها — رغم المدنية الباذخة، والحكومات الواسعة، والتجارة الرابحة — القلق الدائم، لقد أظلم الجو في عواصمها بدخان المصانع المتصاعد الكثيف، ولكن بيئتها — على كثرة أنوارها — غير مهيئة لفتح جديد في الفكر وإشراق من عالم الغيب [2]» إنه نوه بأساس الحضارة اللادينية وبأنها عجنت مع الثورة على الدين، فهي في خصومة دائمة مع الدين والأخلاق، وإنها

= العلوم، وانتسب إلى مدرسة علم الاقتصاد والسياسة في لندن، وتخصص في المادتين، وألقى عدة محاضرات في مدراس، وأخرى في جامعة كمبردج، وقد اعتنى بهذه المحاضرات المستشرقون وعلماء الفلسفة والدين اعتناءاً عظيما، وترجم أكثر كتبه إلى الانكليزية والفرنسية والألمانية والطليانية والروسية. وانتخب رئيساً للرابطة الاسلامية ١٩٣٠ م وانتخب عضواً في المجلس التشريعي في بنجاب، وعرض في خطته فكرة باكستان لأول مرة، ومثل «مؤتمر المسلمين» في مؤتمر المائدة المستديرة سنة ١٩٣١م — ١٩٣٢ م وأقامت له جامعة أرسطو، وجامعة روما، وجامعة السوربون، وجامعة مجريط، والمجمع الملكي في روما حفلات تكريم، توفي في ٢١ أبريل سنة ١٩٣٨ م وشيعت جنازته في حشد كبير قلما شهد مثله، ورثاه وأبنه كبار الزعماء وقادة الفكر، ورؤساء الحكومات، له ستة دواوين في الفارسية، وثلاثة في (أردو) ومحاضرات في الانجليزية.

(١) ضرب كليم ص ٦٩.

(٢) ضرب كليم ص ١٤١.

عا كفة على عبادة آلهة المادة ، وتؤسس لها معبداً جديداً ، يقـول فى ديوانه : « ماذا ينبغى أن تعمل شعوب الشرق ؟ » :

« ولـكن إياك والحضارة اللادينية التى هى فى صراع دائم مع أهل الحق ، إن هذه الفتانة تجلب فتناً وتعيد اللات والعزى إلى الحرم ، إن القلب يعمى بتأثير سحرها ، وإن الروح تموت عطشاً فى سرابها ، إنها تقضى على لوعة القلب بل تنزع القلب من القالب، إنها لص قد تمرن على اللصوصية فيغير نهاراً وجهاراً ، وإنها تدع الإنسان لاروح فيه ولا قيمة له [1] » .

يقول : « إن شعار هذه الحضارة الغارة على الإنسانية والفتك بأفراد النوع البشرى، وإن شغلها الدائم التجارة ، إن العالم لا يسعد بالســلام والهدوء وبالحب البرىء النزيه والإخلاص لله إلا حين تنهار هذه الحضارة الجديدة »،يقول فى الديوان الذى مر ذكره:

« إن شعار الحضارة الحديثة الفتك ببنى آدم الذى تقوم عليه تجارتها وتنفق سلعتها، ليست هذه المصارف العظيمة إلا وليدة دهاء اليهود الأذكياء الذى انتزع نور الحق من صدور بنى آدم ، إن العقل والحضارة والدين حلم من الأحلام ما لم يعد هذا النظام رأساً على عقب [2] » .

إنها حضارة شابة — بحداثة سنها ، والحيوية الـكامنة فيها — ولـكنها محتضرة تعانى سكرات الموت ، وإن لم تمت حتف أنفها فستنتحر وتقتل نفسها بخنجرها ، ولاغرابة فى ذلك فإن كل وكر يقوم على غصن ضعيف ليس له استقرار » ، ولا يستغرب أن يرث تراثها الدينى ويدير كنائسها اليهود[3] » . « إن أساس هذه الحضارة ضعيف منهار ،

---

(١) مثنوى پس چه بايدكرد (ماذا ينبغى الشرق أن يعمل ؟) ص ٤١ .
(٢) مثنوى پس چه بايد كرد (ماذا ينبغى الشرق أن يعمل ؟) ص٣٧ — ٣٨ .
(٣) ضرب كليم ص ١٤١ ، يعير الى نفوذهم الزائد وثقة أوروبا النصرانية بهم .

وجدرانها من زجاج لاتحتمل صدمة[١] » . « إن الفكر المارد الذى أزاح الستار عن قوى الطبيعة أصبح بمجموعه يهدد وكر الغربيين ويهدم[٢] » « إن العصر يتمخض عن عالم جديد ، وإن العالم القديم الذى حوله الغربيون مكاناً للقمار « يقامر فيه بأمن العالم وكرامة الأمم » يلفظ نفسه[٣] » « إن نور الحضارة باهر ، وشعلة حياتها ملتهبة وهاجة، ولكن لم يكن فى ربوعها من يمثل دور موسى فيتلقى الإلهام . ويتشرف بالكلام ، ولا من يمثل دور إبراهيم فيحطم الأصنام ، ويحول النار إلى برد وسلام[٤] » . « إن عقلها الجرىء يغير على ثروة الحب وينمو على حساب العاطفة ، إن عماليقها وثوارها قد طغى عليهم التقليد فلا يخرجون — حتى فى ابتكارهم وثورتهم — عن الطريق المرسوم والدائرة المحدودة » [٥] .

لقد تضخم العلم وتقدمت الصناعة فى أوروبا ، ولكنها بحر الظلمات ليست فيه عين [illegible] ، إن أبنية مصارفها تفوق أبنية الكنائس [illegible] إن تجارتها قمار يربح فيه واحد ويخسر ملايين . [illegible] هذا العلم والحكمة والسماحة و[illegible] التى تتبجح به أوروبا إلا مظاهر جوفاء ليست وراءها حقيقة ، إن [illegible] من دماء الشعوب ، وهم يلقون درس المساواة الإنسانية والعدالة الاجتماعية ، إن البطالة و[illegible] وشرب الخمر والفقر هى فتوح المدنية الإفرنجية ، إن الأمة التى لانصيب لها فى التوجيه السماوى والتنزيل الإلهى غاية نبوغها تسخير الكهرباء والبخار ، إن المدنية التى تتحكم فيها الآلات ، وتسيطر فيها الصناعة تموت فيها القلوب ، ويقتل فيها الحنان والوفاء ،

---

(١) بال جبريل .
(٢) أيضاً ١٧٦ .
(٣) أيضاً ١٧٦ .
(٤) بيام م[illegible] ق ص ٢٠٨ ، وفيه أوروبا لم تكن أرض النبوة والأنبياء من الزمن القديم ولم يكن فيها إشراق روحانى لذا ازدهرت فيها الماديات .
(٥) أيضاً .

والمعانى الإنسانية الـكريمة (١) » .

وقد كان انتقاده واستعراضه للحضارة الغربية وأسسها ومناهج تفكيرها فى محاضراته المدنية التى ألقاها فى «مدراس» ونشرت بعنوان : « تجديد الفكر الدينى فى الإسلام (٢)» أعمق وأكثر تركيزاً بطبيعة الحال ، لأن جو البحوث الفلسفية غير جو الشعر والأدب ، فقال وهو يتحدث عن طبيعة الحضارة المادية فى الغرب والإنسان المعاصر الذى يمثلها و[illegible]مها ، [illegible] الأمة والمشكلات التى يعانيها :

« الرجل العصرى بما له من فلسفات نقدية ، وتخصص علمى يجد نفسه فى ورطة ، فمذهبه الطبيعى قد جعل له سلطاناً على قوى الطبيعة لم يسبق إليه ، لـكنه قد سلبه إيمانه فى مصيره هو (٣) » .

« الإنسان العصرى وقد أعشاه نشاطه العقلى ، كف عن توجيه روحه إلى الحياة الروحانية الـكاملة ، أى إلى حياة روحية تتغلغل فى أعماق النفس ، وهو فى حلبة الفكر فى صراع صريح مع نفسه ، وهو فى مضمار الحياة الاقتصادية والسياسية فى كفاح صريح مع غيره ، وهو يجد نفسه غير قادر على كبح أثرته الجارفة ، وحبه للمال حباً طاغياً ، يقتل كل ما فيه من نضال سام شيئاً فشيئاً ، ولا يعود عليه منه إلا تعب الحياة ، وقد استغرق فى « الواقع » أى فى مصدر الحس الظاهر للعيان ، فأصبح مقطوع الصلات بأعماق وجوده ، تلك الأعماق التى لم يسبر غورها بعد ، وأخف الأضرار التى أعقبت فلسفته المادية ، هى ذلك الشلل الذى اعترى نشاطه ، والذى أدركه هكسلى (Huxley) وأعلن سخطه عليه (١) » :

---

(١) بال جبريل .

(٢) Reconstruction of Religious thought in Islam.

(٣) المصدر المذكور ترجمة عباس محمود ٢١٤ .

(١) Reconstruction of Religious thought in Islam ص٢٠١—٢١٦ .

« والاشتراكية الملحدة الحديثة - ولها كل ما للدين الجديد من حمية وحرارة — لها نظرة أوسع أفقاً لكنها قد استمدت أساسها الفلسفى من المتطرفين من أصحاب مذهب هيجل (Hegel) وقد أعلنت العصيان على ذات المصدر الذى كان يمكن أن يمدها بالقوة والهدف ، وهى إذن ليست بقادرة على أن تشفى علل الإنسانية [1] » .

ومحمد إقبال يصف هذا المجتمع - الأوربى - بمجتمع يحركه تنافس وحشى وهذه الحضارة بحضاره فقدت وحدتها الروحية بما انطوت عليه من صراع بين القيم الدينية والقيم السياسية [2].

وينظر محمد إقبال - ككل مطلع خبير إلى الرأسمالية والشيوعية كفرعين من دوحة المادية وأسرتين للحضارة الغربية، إحداهما شرقية، والأخرى غربية ، تلتقيان على النسب المادى ، والتفكير المادى ، والنظر المحدود إلى الإنسان ، ويقول بلسان جمال الدين الأفغانى — فى رحلة فكرية تخيلها واجتمع به فيها — : « إن الغربيين فقدوا القيم الروحية والحقائق الغيبية ،وذهبوا يبحثون عن الروح فى «المعدة» إن الروح ليست قوتها وحياتها من الجسم ، ولكن الشيوعية لاشأن لها إلا « بالمعدة والبطن » وديانة «ماركس» مؤسسة على مساواة البطون ، إن الأخوة الانسانية لاتقوم على وحدة الأجسام والبطون ، إنما تقوم على محبة القلوب ، وألفة النفوس[3] » .

« إن الملوكية والشيوعية تلتقيان على الشره والنهامة ، والقلق والسآمة ،والجهل بالله والخداع للإنسانية ، الحياة عند الشيوعية « خروج » وعند الملوكية «خراج» ،والإنسان البائس بين هذين الحجرين قارورة زجاج ، إن الشيوعية تقضى على العلم والدين والفن ،

---

(١) أيضاً ص ٢١٦ — ٢١٧ .
(٢) أيضاً ص ٢١٧ .
(٣) جاويد نامة ، مأخوذ من «روائع إقبال» للمؤلف ص١١٣ — ١١٤ .

والملوكية تنزع الروح من أجسام الأحياء وتسلب القوت من أيدى العاملين والفقراء ، لقد رأيت كلتيهما غارقتين فى المادة ، جسمهما قوى ناضر ، وقلبهما مظلم فاجر[١] » .

الحضارة الغربية والأقطار الاسلامية :

ويعتقد محمد إقبال إن هذه الحضارة غير قادرة على إسعاد البلاد الإسلامية ، وإعادة الحياة إليها ، يقول :

« إن الحضارة التى قد أشرفت على الموت لا تستطيع إن تحيى غيرها[٢] » . وقد جزت من إحسان هذه البلاد الشرقية إساءة من جانبها ، وكافأت خيرها بشر ، فقد منحها الشام نبياً[٣] رسالته العفة والمؤاساة والرحمة ، ومقابلة الشر بالخير ، والظلم بالعفو ، وقد منحته أوروبا — بدورها ومقابل كل ذلك — الخمر والقمار ، والفجور وهجوم المومسات[٤] » .

نقده لدعاة التجديد فى الشرق :

إنه يسىء الظن بدعاة التجديد — وبالأصح التغريب — فى الأقطار الإسلامية ، ويخشى أن تكون الدعوة إلى التجديد حيلة وستاراً لتقليد الإفرنج[٥] ، يقول :

« إننى يائس من زعماء التجديد فى الشرق ، فقد حضروا فى نادى الشرق بأكواب فارغة ، وبضاعة مزجاة فى العلم والفكر » .

« إن البحث عن « برق جديد » فى هذا السحاب عبث وإضاعة وقت ، فقد تجرد

---

(١) أيضاً .
(٢) ضرب كليم ص٦٨ .
(٣) يشير الى سيدنا عيسى عليه السلام .
(٤) ضرب كليم ص١٥٠ .
(٥) ايضاً ص١٧٠ .

هذا السحاب الجهَّام عن البرق القديم ، فضلا عن البرق الجديد[١] » .

إنه يعارض التقليد الأعمى في أُمة من الأمم ، ولا سيما الأمة التى خلقت لقيادة الأمم وإحداث الثورة فى العالم ، ويقول :

« إن الذى يأتى بالجديد فى هذا العالم الذى يتجدد دائماً هو نقطة الدائرة التى يطوف حولها الزمان ، لا تعطل شخصيتك — أيها المسلم — بالتقليد الأعمى ، واحتفظ بكرامتك فإنها الجوهر الفرد ، إن التجديد (بمعنى التغريب) لا يليق إلا بأمة لا تفكر إلا فى الدعة والترف ، إننى أخاف أن الدعوة إلى التجديد إنما هى حيلة وانتهاز لفرصة تقليد الغرب[٢] » .

إنه يعاتب الأمم الشرقية الإسلامية التى كان دورها دور التوجيه والقيادة ، وأصبحت تمثل دور التلمذة الخاشمة ، والتقليد الذليل ، يقول — وكأنه يشير إلى الشعب التركى الإسلامى ومن كان على شاكلته : —

« إن أولئك الذين كانوا يستطيعون أن يقودوا عصرهم أصبحوا بسخافتهم يقلدونه ويمشون وراءه[٣] » .

وفى « جاويد نامه » يحكى محمد إقبال انتقاد الأمير سعيد حليم باشا للثورة التى قام بها أتاتورك فى تركيا ، ويذكر سطحيتها وتفاهتها ، وأن زعيمها وقائدها محروم من كل إبداع وابتكار ومن كل أصالة فى التصميم والتخطيط وأنه ليس إلا مقلداً أعمى لأوروبا ، يقول :

---

(١) ضرب كليم ص ٦٩ ، يشير الى أن هؤلاء المصلحين وثقافتهم القديمة وثقافتهم الجديدة ضعيفتان محدودتان ، ليس لهم فى إحداهما كعب عال ولا باع طويل .

(٢) ضرب كليم ص ١٢٠ .

(٣) بال جبريل .

« إن كمال الذى تغنى بالتجديد فى حياة تركيا ودعا إلى محو كل أثر قديم وتراث قديم ولكنه جهل أن الكعبة لا تجدّد ولا تعود إلى الحياة والنشاط إذا جلبت لها من أوروبا أصنام جديدة ، إن زعيم تركيا لا يملك اليوم أغنية جديدة إنما هى كلها أغان مردّدة معادة تتغنى بها أوروبا من زمان ، إن الجديد عنده هو القديم الأوروبى الذى أكل عليه الدهر وشرب ، ليس فى صدره جديد وليس فى ضميره عالم حديث فاضطر إلى أن يتجاوب مع العالم الأوروبى المعاصر ، إنه لم يستطع أن يقاوم وهج العالم الحديث فذاب مثل الشمعة وفقد شخصيته(١) » .

إيمانه بفضل الحضارة الاسلامية وحيويتها :

إنه شديد الإيمان بما تضمره الحضارة الإسلامية والشريعة الإسلامية من حيوية خالدة وقوة دافقة ، وإمكانيات واسعة لتكوين عالم جديد ، وتأسيس مجتمع جديد ، يقول فى خطبته التى ألقاها رئيساً لمؤتمر الأحزاب الإسلامية فى دهلى سنة ١٩٣٣ م مخاطباً للمسلمين :

« إن الدين الذى تحملون رايته يقرر قيمه الفرد ، ويربيه تربية تجعله يبذل كل ما عنده فى سبيل الله وفى صالح عباده ، إن مضمرات هذا الدين القيم وكوامنه لم تنته بعد ، إن فى استطاعته أن يوجد عالماً جديداً يحي فيه الفقراء أغنياء ، لا يقوم فيه المجتمع البشرى على مساواة البطون ، بل يقوم على مساواة الأرواح » .

المعهد الاسلامى الجديد :

ولذلك كان يعتقد — بكل إخلاص وحماسة — أنه لا بد من وجود رقعة حرة تقوم فيها عملية الحياة الإسلامية ، بجميع نواحيها وشعبها ، وتتجلى فيها عبقرية الشريعة

(١) — ... ص ٢ .

الإسلامية وعدل النظام الإسلامى ، وتستطيع فيها الطريقة الإسلامية فى الحياة أن تعبر عن نفسها تعبيراً عملياً وثقافياً ، ولما كانت الهند — كما قال فى خطبة رئاسته العصبة الإسلامية سنة ١٩٣٠ م — قطراً تسكن فيه جالية تكوّن أكبر مجموعة إسلامية فى بلد واحد ، كانت أحق بتقديم هذه التجربة ، وبتكوين هذا المركز الإسلامى ، وبتعبير أدق المعمل الذى يثبت فيه الإسلام صلاحيته لتكوين المجتمع الصالح ، وتنظيم الحياة الاجتماعية ، وحل المشكلات الاقتصادية ، وتوجيه المدنية توجيهاً صالحاً ، والتطبيق بين العقيدة والعمل ، والروح والمادة ، والفرد والجماعة ، تطبيقاً يثير العجب والاعجاب ، ويحمل قادة الأقطار الإسلامية على التقليد ، ويحمل المفكرين فى العالم على التفكير فى أسلوب جديد .

كان هذا النظر البعيد ، وهذا الطموح الذى لم يعرف نظيره فى العالم الإسلامى ، أساس مملكة باكستان ، وقد تحقق هذا الحلم البعيد فى سنة ١٩٤٧ م وقامت دولة باكستان ، وقد اعترف الزعيم محمد على جناح بهذا الأساس الفكرى الذى قرره محمد إقبال وتغنى به ، فقال فى أول خطبة خطبها بعد قيام باكستان :

« لقد أصبحت باكستان التى كافحنا فى سبيلها عشر سنين كوامل ، حقيقة ملموسة ، ولكن يجب أن لا ننسى أن قيام مملكتنا الحرة ليست غاية ، إنما هى وسيلة ، إن الغاية والهدف النهائى قيام مملكة نعيش فيها أحراراً ، ونتقدم بها وفق طبيعتنا الخاصة وثقافتنا ، وتنفذ فيها مبادىء العدالة الاجتماعية فى الإسلام بحرية(١) » .

وقد صرح بمثل ذلك السيد لياقت على خان رئيس وزراء باكستان سابقاً فى ١٤ يناير ٤٨ م فى اجتماع فى بيشاور فقال :

---

(١) Speeches Quaid - Azam, Mohammad Ali Jinnah, p. 22.

« إن باكستان معمل لنا ، وسنبرهن به أمام الدنيا على صلاحية المبادىء الإسلامية التى جاءت قبل ثلاثة عشر قرناً وقيمتها » .

وقد جاء فى حديث آخر له عام ١٩٥٠ م :

« إننا طالبنا بباكستان ليعيش فيها المسلمون وفق تعاليم الاسلام ، إننا أردنا معملا نقيم فيه دولة مؤسسة على مبادىء إسلامية لم يتمخض العالم بأفضل منها(١) » .

ولكن هذه العملية — التى لا تساويها عملية فى الضخامة والدقة والخطورة وبعد النتائج — لا تقوم ولا تتحقق إلاّ على أيدى القادة الذين يؤمنون بخلود الشريعة الإسلامية وفضل الحضارة الإسلامية إيماناً لا يشوبه شك ، ويخلصون لها إخلاصاً لا يشوبه نفاق ، ويتجردون من ربقة الحضارة الغربية والإيمان بقيمها وأسسها ، ومن رقّ ثقافة الأجنبية تحرراً كاملاً ، ويجمعون — على الأقل — بين الإيمان الراسخ والشجاعة الخلقية والمقدرة على استخدام الوسائل والطاقات التى أحدثتها العلوم الحديثة ، وتكييفها للمجتمع الإسلامى الحر .

العملية فى الامتحان :

ولكن هذه العملية — التى قفزت إلى الوجود لأسباب تاريخية وسياسية ،وفاجأت العالم المعاصر — لم تجد فرصة تهيئة هذا الجيل وإعداد هذه القيادة،وقد عجز نظام المعارف الغربى السائد فى الأقطار الشرقية ، وعجزت الجامعات الغربية التى تلقى فيها هؤلاء السادة ثقافتهم عن أن تنتج أحسن منهم فى عامة الأحوال ، وعن أن تنتج غير هذا الطراز من التفكير ، وغير هذا الأسلوب من الحياة ، والشجرة لا تلام على ثمرتها الطبيعية ، ولا يرجى تغيير هذا الوضع ، ووجود القيادة التى تحقق هذه العملية حتى يغير نظام المعارف

---

(٢) جريدة «نوائى وقت» الباكستانية ٨ يناير سنة ١٩٥٠ .

ونظام التثقيف والتربية فى هذه البلاد ، ويمنح الإسلام والمجتمع الإسلامى حق اختيار من يتولى قيادته ويقرر مصيره مطابقاً لعقيدته وفطرته وآماله وحاجاته، وهو حق طبيعى لكل شعب ، ولكل مجتمع ، لا يجوز جحوده فى أى عصر وفى أى مكان .

ومن المؤسف أنه — فى هذه المدة غير اليسيرة — منذ أنشئت باكستان ، لم يقم زعماؤها بخطوة جريئة نحو توجيه المعارف — التى هى العمود الفقرى لتوجيه دولة أو شعب — وإنشائها إنشاء جديداً يتفق مع روح الإسلام وأهدافه وصياغة المجتمع صياغة إسلامية ووضع دستور إسلامى وسد منابع الفساد والتفسخ الخلقى والفوضى الفكرية، ولم تكن هناك محاولة مخلصة جدية تدل على أن باكستان معمل إسلامى جديد تثبت فيه أهمية الحياة الإسلامية وصلاحية القانون الاسلامى وتفوق الحضارة الاسلامية وتقدم فيه أسوة عملية للأقطار الاسلامية الناهضة بل — بالعكس من ذلك — قد برهنت بعض التشريعات وبعض « الاصلاحات » وبعض الاتجاهات على أن واضعى الدستور فى باكستان وولاة أمرها ليسوا مأخوذين بالأفكار الغربية وقيمها فحسب ، بل يعتبرونها أساساً للتشريع وشرطاً لتقدم البلاد ، ومسايرتها للعصر الجديد .

مهما كان فإن انصراف باكستان عن أهـــدافها الأساسية الأولية وتقليد البلاد العلمانية (Secular) والعصرية (Modernist) الأخرى ، ستكون مأساة ضخمة فى العصر الحديث وغدراً بذمة الملايين من المسلمين الذين تحملوا فى سبيلها من المصائب مايشيب هذا الولدان ، وقدموا لها ثمناً من الدماء والأرواح والأعراض باهظاً ، ثم إن هذا النكر والانحراف يخمدان العاطفة الدينية التى لم تزل تراود نفوس العاملين للإسلام ، والتى دفعت أخيراً إلى إنشاء دولة باكستان ، ويزهد أكثرهم فى إعادة هذه التجربة والمغامرة فى سبيلها ، ولا يسمح التاريخ الذى سجّل هذه التجربة المخفقة ، والذى لا يحابى أحداً بتكرير هذه التجربة وعقد الآمال الجسيمة بها ، وقـــد نبّه إلى ذلك الاستاذ سمث (Wilfred Cantwell Smith) فى أسلوب جميل ، إنـــه يقـول فى كـتابه : (Islam in Modern History)

« ربما يتخيل الباكستانيون أن عملية تمكين المجتمع الاسلامى صعبة وعسيرة أكثر مما قدّروها أول الأمر ، ولكننا إذا تأملنا فى هذه القضية رأينا أنه لا مفر لهم الآن ، لقد كانت وعودهم ومزاعمهم صريحة واضحة إلى حد لا يمكن التملص منها والأغماض عنها ، سيكون تاريخهم الآن « تاريخ الاسلام » لقد وقعت على عواتقهم مسئولية ضخمة ، إنهم لا يستطيعون — راضين أو كارهين — أن يصرفوا النظر عن فكرة « الحكم الاسلامى » أو يتركوها لمدة طويلة فى المستودعات ، ذلك بأن القضاء على هذه الفكرة لا يعنى التعديل فى الأسلوب والمنهج ، بل انه يعنى الضربة القاضية على الدين والوطن ، ويستنتج العالم منه شيئاً واحداً ، وهو أن نظرية الدولة نظرية فارغة وأن شعارها وهتافها تضليل وخداع لا غير ، وهى لا تستطيع أن تساير مطالب الحياة المعاصرة ، ويؤمن بأن أهل باكستان أخفقوا فى تطبيقها على حياتهم القومية كأمة وشعب ، وفى هذه الحال تصبح معتقدات المسلمين موضع شك ومحل نقاش ونقد فى نظر العالم[١] » .

كان من الممكن التفادى من هذا الوضع المؤلم ، وكان من الممكن أن تكسب الحركة الاسلامية المدركة فى باكستان وأن يكون لها انتصار أكبر على خصومها ومعارضيها وأن تكتسب أكبر عدد من الأنصار والأصدقاء من الطبقة المثقفة والحاكمة ، وأن تقصر الفجوة — على الأقل -- بين دعاة الفكرة الاسلامية وبين أصحاب الفكرة الغربية حتى يتعاونوا على بناء المجتمع الاسلامى الجديد ، ونجاح التجربة العظيمة التى قامت لأجلها باكستان ، كل ذلك كان ممكناً لو كتب النجاح والتوفيق لدعوة الفكرة الاسلامية وزعمائها ، وحازوا ثقة جميع الطبقات فى البلاد وتقديرها ، وملأوا الفراغ الهائل الموجود فى عقول الطبقة المثقفة ونفوسها وقلوبها ، ووفقوا للجمع بين الشخصية القوية

---

(١) Islam in Modern History p. 200

الحبيبة ، والعلم الفائق ، والفكر النير ، والربانية الصافية المشرقة ، والعزوف عن المطامح والمناصب ، والانقطاع للدعوة والتوجيه وبذل النصح للجميع ؛ الصفات التي تكونت بها العقيدة الدينية في الماضي فأنتجت أكبر إنتاج وغيرت مجرى التاريخ في بعض الأحيان(١) .

الجماعة الاسلامية ، ودورها في نقد الفكرة الغربية :

ومع الاحتفاظ بحق الملاحظة والنقد لبعض نظريات الجماعة الإسلامية(٢) الذي هو حق كل مؤلف وباحث ، ورغم الاختلاف في بعض التعبيرات وفهم بعض الحقائق الدينية ، وأسلوب عرضها ، الذي يتسع مجاله في كل عصر ، لا بد من الاعتراف بقيمة الدور الذي لعبته الجماعة الإسلامية -- في الهند وباكستان -- ومؤسسها الاستاذ أبو الأعلى المودودي ، في نقد الفكرة الغربية وتزييفها من الوجهة العلمية والدينية ، ومعارضة القيم والمفاهيم الغربية وأسس الفلسفة المادية التي قامت عليها الحضارة الغربية ، وقد آثر الاستاذ أبو الأعلى(٣) طريقة المهاجمة للفكرة الغربية ومواجهتها بقوة وثقة ، ونقد وتحليل، آثرها على طريقة الدفاع عن الإسلام والتماس العذر له وتبرير موقفه بالملابسات التي اكتنفت عصره وبيئته ، الطريقة التي تبنّاها سيّد أحمد خان وأصحاب مدرسته في الهند ، والشيخ محمد عبده وتلاميذه في العالم العربي ، وكان للطريقة الأولى أثرها الطبيعي في عقل الجيل المثقف الجديد الذي آمن بتفوق الفكرة الغربية وقد سيتها ، وبعدها عن نقد الناقدين ، وأنها قضية مسلمة لا تقبل بحثاً ولا جدالاً . وقد كان لهذه الطريقة فضل

---

(١) اقرأ على سبيل المثال المنهج الذي آثره الامام الشيخ أحمد السرهندي في القرن الحادي عشر الهجري لتحويل الحكم الثائر على الاسلام الى حكومة إسلامية في الهند (راجع رسالة المؤلف) «الدعوة الاسلامية في الهند وتطوراتها» .

(٢) تأسست هذه الجماعة في الهند سنة ١٩٤١ م واتخذت باكستان مركزها الرئيسي بعد التقسيم سنة ١٩٤٧ م .

(٣) كما صرح الأستاذ محمد أسد النمساوي وبعض المعدودين من الكتاب الاسلاميين .

كبير فى إضعاف سلطان الفكرة الغربية وهيمنتها على عقول الشباب ونفوسهم ، ومقاومة « مركب النقص » فيهم ، وكانت هذه الفائدة تتسع وتتضخم لو قدر لقائد هذه الجماعة أن ينقطع إلى هذه الناحية العلمية ويركز عليها جهوده ، ويقيض له أعوان وزملاء ، يهبون لهذا الموضوع مواهبهم وطاقاتهم ، فإنها هى الجبهة التى تجرى عليها حرب دامية حاسمة ستقرر مصير الأقطار الإسلامية فى العصر الحاضر .

وقد أفادت البحوث التى صدرت عن قلم الأستاذ أبى الأعلى المودودى من ناحية زيادة الثقة بفضل التعاليم الإسلامية ، وجدارتها للبقاء والانتشار ، وصلوحها للسيادة والحكم . وقد كان كذلك لبحوثه العلمية الأولى التى تكلم فيها عن مستوى عال ، وفى أسلوب قوى ، ولمقالاته ورسائله فى مشكلات العصر وحلولها الإسلامية دوى فى الأوساط الإسلامية التى كانت تعانى قلقاً فكرياً . وكانت فى دور انتقال . ولا تزال هذه الأوساط فى حاجة ملحة إلى زاد فكرى ومدد علمى ، لمواجهة تحديات الفكرة الغربية ، وحل المشكلات العصرية ، وتطلب من الكتاب الإسلاميين المزيد الجديد من الأدب الإسلامى القوى فى أسلوبه وعرضه ، الأصيل فى تفكيره ، وبحوثاً تحليلية أكثر عمقاً وتركيزاً للقضايا الاقتصادية السياسية التى تشغل الفكر العام . وتطلب مجامع علمية تقوم فى نواحى العالم الإسلامى وتركز جهودها على ملء هذا الفراغ ، وتحقيق رغبة الجيل الإسلامى المثقف الحديث فى مطالعة الكتاب الإسلامى الذى يعرض الفكرة الاسلامية فى نقاء وصفاء وقوة وإيمان ، ويخلو من كل شبح للخضوع للفكرة الغربية .

اهمية الدور الذى تمثله مصر فى العالم الاسلامى :

وكانت مصر — منذ عهد محمد على باشا وجلاء الفرنسيين — فى ١٧٩٩ م المجال الثالث الرئيسى الذى ظهر فيه صراع الشرق والغرب ، الفكرى والثقافى والحضارى والاجتماعى فى أبرز مظاهره وأقواها ، فقد بذرت الحملة الفرنسية وبقاء إدارتها وقيادتها

للأمور مدة[١] — قصيرة بحساب الشهور ، طويلة بحساب التأثير والنفوذ — بذوراً عميقة فى التربة المصرية ، والعقلية الإسلامية العربية ، واحتك الشرق بالغرب فى أرض مصر احتكاكاً مباشراً ، ووصل بين الشرق والغرب بعثات علمية وثقافية عنى بإرسالها محمد على للاستفادة من الغرب ونظمه وعلومه ، وللتقدم بمصر فى مضمار العلم والصناعة والفنون والادارة ، حملت إلى مصر ثمرات الثقافة الغربية ، ثم أنشأت ترعة السويس — فى عهد إسماعيل — تصل بين البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط فتحدث انقلاباً فى تاريخ السياسة والتجارة العالمية ، وترفع الفجوة بين العالمين الغربى والشرقى وتسهل مهمة اللقاء والإلتقاء ، وكان هدف إسماعيل الأكبر أن يجعل مصر قطعة من أوروبا .

وكانت مصر بخصائصها الكثيرة التى لا يشاركها فيها أحد جديرة بأن تكون ملتقى يلتقى فيه مافاقت فيه أوروبا — بجهدها وكفاحها — من العلوم التطبيقية ، والوسائل الحديثة ، وماخص الله به الشرق الاسلامى من علم ويقين وأسس صالحة خالدة للحياة السعيدة ، ومحركات ودوافع قوية نبيلة لا تنبثق إلاّ من العقيدة القوية والقلب الفائض بالايمان والحب ، وكانت مصر من أوفر البلاد نصيباً من هذه الثروة الكريمة ، ومن أقدرها على توسيعها وتوزيعها بفضل غناها فى اللغة العربية والعلوم الدينية ، ووسائل الطبع والنشر ، ووجود الأزهر — أكبر مركز ثقافى دينى فى العالم الاسلامى — وبفضل مرونة العقل المصرى ، وقدرته القديمة على الأخذ والإعطاء والتأثر ، وكانت جديرة بأن تضرب مثلا صالحاً للعالم الاسلامى وللأقطار الشرقية للتبادل الحر الشريف المؤسس على الشعور بالكرامة والثقة بالشخصية ، والتمسك بالعقيدة فى جانب وروح السماحة والانصاف ، وتقدير العلم والحكمة ، والترحيب بالصالح النافع فى جانب آخر ، التبادل الذى لا يخسر فيه الميزان ، ولا يطفف فيه الكيل .

---

(١) وهى مدة ثلاث سنين ، شهرين من ٢٤ يوليو ١٧٩٨ م — سبتمبر ١٨٠١م .

الحاجة الى قناة جديدة :

لقد كان لمصر أن تنشىء قناة أفضل من قناة السويس ألف مرة ، وأعود منها على الشعوب الإنسانية بالخير والسعادة ، وأعمق منها تأثيراً فى اتجاه العالم ومصير الشعوب والأمم ، وأوسع تأثيراً فى التاريخ الإنسانى ، هى قناة التعارف الصحيح المتبادل المتوازن بين الشرق والغرب ، قناة تصل الشرق المتخلف فى العلوم الطبيعية والصناعات المفيدة بالغرب الذى قد بلغ الذروة فيها ، وتصل الغرب الحائر المتخم بقوته المادية ، المفلس فى الروح والأخلاق ، اليائس المتشائم ، السالك فى سبيل الانتحار ، بمنابع الرضا والهدوء والأمن العاطفى ، والثقة المتبادلة والأمل القوى فى مستقبل الإنسان ، الكامنة فى رسالات الشرق الدينية والروحية التى يمثلها الإسلام فى شكلها الكامل النهائى ، وتصل وسائل الغرب الهائلة الجبارة المكدسة التى لا تعرف غاية ، بغايات الشرق النبيلة الكريمة الرحيمة التى لا تملك وسيلة ، تصل الغرب الذى يستطيع ولا يريد ؛ بالشرق الذى يريد ولا يستطيع ، فيفيض كل واحد منهما على الآخر أفضل ما عنده ، ويتعاونان — تعاون الشقيقين — فى إسعاد البشرية ، وتهذيب المدنية ، هذه القناة الثقافية العقلية التى تعتبر — لو تحققت وظهرت إلى الوجود — فتحاً جديداً فى العالم ، ومأثرة تاريخية تشغل أعظم مكان مشرف فى التاريخ الحديث ، وتكسب لمصر الزعامة الخالدة ، وأشرف مركز تطمح إليه القلوب والأبصار .

لقد كانت مصر جديرة باحتلال هذا المركز الخطير ، وتمثيل هذا الدور العظيم ، لو تهيأ لها — فى أول عهدها بالحضارة الغربية والثقافة الأجنبية — إيمان قوى بخلود الرسالة الدينية التى أكرمها الله بها بالإسلام ، وشدة حاجة الإنسانية إليها ، والعزم الصحيح على الإخلاص لها ، والاتصاف بصفاتها ، والتفانى فى سبيلها ، والهضم الصحيح القوى للعلوم العصرية ، وتقوية نفسها بها وإخضاعها للدور الذى يجب أن تمثله فى العالم المعاصر ، وتهيأت لها شخصيات موجهة قوية .

موقف مصر التقليدى الضعيف :

ولكن الظروف والأوضاع السياسية والتعليمية قد صرفت مصر — زعيمة العالم العربى الإسلامى — عن تمثيل هذا الدور العظيم ، دور القيادة والتوجيه ، ودور التأثير فى العالم الغربى ، وجعلتها تقف من العالم الغربى موقف التلميذ ، وموقف المقلد المقتبس ، وجعلت مهمة هذه القناة الثقافية الفكرية مقصورة على الاستيراد فقط ، استيراداً لا تتجلى فيه شخصية مصر الإسلامية العربية والعقلية الناضجة الناقدة .

من أهم هذه الأوضاع التى اتجهت بها مصر هذا الاتجاه الضعيف الذى أساءت به مصر إلى نفسها ، وإلى العالم العربى الذى تولت زعامته وقيادته ، الوضع السياسى القائم الذى كانت تعيش فيه مصر فى القرن التاسع عشر ، ويشاركها فيه العالم الإسلامى بصفة عامة ، عصر النفوذ الأجنبي والاحتلال البريطانى ، الاحتلال المباشر أو غير المباشر ، فقد شغل هذا الوضع — غير الطبيعى — تفكير قادة الفكر فى العالم الإسلامى ، واستنفد جهودهم ومواهبهم ، ولم يدع لهم مجالا فى التفكير ولا سعة فى الوقت ، ولا فضلا فى الذكاء .

السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده

كان السيد جمال الدين الأفغانى عقلية نابغة وشخصية قوية عرفت الغرب دراسة وسياحة وثقافة وسياسة ، ولكن يكتنفها شىء كثير من الغموض ، ولا يدل ما سجل من حديثه ومحاضراته وكتاباته وما يرويه تلاميذه والمعجبون به من سيره وأخلاقه وعلمه دلالة واضحة على مكنونات نفسه الكبيرة وحياته الشخصية ونظراته فى الحضارة الغربية وقيمها ومبادئها ، وقد كان من الرجال المعدودين الذين يؤمّل فيهم أن يقوموا فى ذلك العصر لمواجهة حضارة الغرب وفلسفاته المادية ونقدها ، وصيانة الشرق من سيطرتها وسلطانها الفكرى ، ومنعه من الانحراف الذى يُفقده شخصيته ورسالته ، ولكن

كتابه الصغير الذى وضعه فى الرد على الدهريين وأعداد مجلة « العروة الوثقى » التى كان الموجه لها والمشرف عليها لا تدل على مقدرته على تحقيق هذا الغرض وأداء هذه الرسالة ، ولكن الدكتور محمد إقبال كان شديد الإعجاب بشخصيته ، كبير الثقة بمقدرته فى ملء الفراغ الذى وقع بين نظام العقيدة والفكرة والخلق القديم وبين نظام العصر الجديد ، وإعادة الثقة إلى الجيل الإسلامى الجديد بخلود الإسلام وجدارته للبقاء والكفاح ، يقول فى إحدى محاضراته التى ألقاها فى (مدراس) :

« إننا نحن المسلمين نواجه عملا ضخماً ، إن واجبنا أن ننظر فى الاسلام من جديد بصفته نظاماً فكرياً ، من غير أن نقطع صلتنا عن الماضى ، إن الرجل الذى قدّر أهمية هذا الواجب واتساع نطاقه تقديراً صحيحاً هو السيد جمال الدين الأفغانى الذى جمع إلى بصيرته النافذة فى حياة الاسلام الملية ، وحياته الفكرية تجربة واسعة بأنواع كثيرة من البشر وعاداتهم وأخلاقهم ، وكانت مقاصده ومراميه بعيدة المدى سامقة الذرى ، لذلك لم يكن من الصعب أن تصبح شخصيته الكريمة حلقة اتصال بين الماضى والمستقبل ، إن جهوده المتواصلة ، لو تركزت على تفسير وضع العقيدة والعمل الذى دعا إليه الاسلام النوع الانسانى لكان لنا نحن المسلمين ، أن نعتمد على أنفسنا ونثق بشخصيتنا أكثر مما نحن فيه الآن[١] » .

ولكن وضع العالم الاسلامى بصفة عامة ووضع مصر — التى قضى فيها جمال الدين أفضل أيام حياته ، وأكثرها إنتاجاً ، واتخذها مركز نشاطه العقلى — والطبيعة التى خلقه الله عليها من الذهن الوقّاد والذكاء الحاد ، والحميّة الاسلامية الثائرة ، والأنفة الأفغانية المتهيجة ، كل ذلك منع جمال الدين من التفكير فى غير إنهاض البلاد الاسلامية سياسة وتنظيماً ، وإعادة الكرامة والقوة إليها ، والربط بين أجزائها ،

(١) محاضرات مدراس ، المحاضرة الرابعة ص ١٤٥ — ١٤٦ (مترجمة من الأردية) .

وإقصاء النفوذ الأجنبي عامة والنفوذ البريطاني — الذى اكتوى بناره فى بلاده وفى الهند وإيران وفى مصر — خاصة ، وطبع نشاطه وكفاحه بطابع السياسة . ولقد أصاب الدكتور محمد البهى ، إذ قال :

« (كان جمال الدين) ينتزع الأمثلة من تاريخ الشعوب ، ومن تاريخ الأمة الاسلامية نفسها ، كما ينتزع الشواهد المحسوسة التى تفزع المسلمين من السياسة الاستعمارية فى البلاد الاسلامية — فى الهند ومصر على الخصوص — هذه الأمثلة التى كان ينتزعها من شواهد الحياة الاسلامية ، ومظاهرها فى وقته ، مع بيان مدى ألاعيب السلطات الأجنبية ودسائسها ، وهدفها الذى نهايته بسط النفوذ الأجنبي لصالح الجماعة الأوروبية وحدها على رقعة العالم الاسلامى .

هذا الاحتكاك المباشر نفسه هو الذى أظهر حركة جمال الدين الأفغانى فى صورة حركة سياسية ، وهو نفسه السبب فى أن يلقى بمركز الثقل فى نشاطه على « الحرية السياسية » فى الشرق الاسلامى ، للمواطنين جميعاً مسلمين ومسيحيين[١] » .

وخير من يحق له التعبير عن نفسية السيد جمال الدين ، وتلخيص دعوته ، هو تلميذه الشيخ محمد عبده ، وهو يقول :

« أما مقصده السياسى الذى قد وجه إليه كل أفكاره ، وأخذ على نفسه السعى إليه مدة حياته — وكل ما أصابه من البلاء أصابه في سبيله — فهو إنهاض دولة إسلامية من ضعفها وتنبيهها للقيام على شئونها حتى تلحق الأمة بالأمم العزيزة والدولة بالدول القوية ، فيعود للإسلام شأنه ، وللدين الحنيفى مجده ، ويدخل فى هذا تقليص ظل بريطانيا فى الأقطار الشرقيه[٢] » .

---

(١) الفكر الاسلامى الحديث ص ٥٠ .

(٢) زعماء الاصلاح فى العصر الحديث للدكتور أحمد أمين ص ١٠٦ .

وكان الشيخ محمد عبده على ماله من حسنات فى الدفاع عن الإسلام وإصلاح مناهج التعليم وتقريب الدين إلى الجيل الجديد ، كان من رواد الدعوة للتجدد ، والدعوة إلى الملاءمة بين الإسلام وبين الحياة فى القرن العشرين ، والتقدير الزائد للقيم الغربية ومحاولة التطبيق بينها وبين الاسلام والحرص على تفسير الفقه الاسلامى وأحكام الشريعة تفسيراً يتناسب مع مطالب المدنية الجديدة ، والجيل الجديد ، يقرب فى ذلك كثيراً إلى السيد أحمد خان فى الهند ، وتتجلى هذه النزعة فى تفسيره وفى فتاواه وفى كتاباته ، وكل من جاء بعده من دعاة التجدد اقتبس من علمه واغترف من بحره ، وقد شهد بذلك اللورد كرومر فى كتابه : « مصر الحديثة » يقول :

« إن محمد عبده كان مؤسساً لمدرسة فكرية حديثة فى مصر ، قريبة الشبه من تلك التى أسسها السيد أحمد خان فى الهند (مؤسس جامعة عليكره) ، ثم يقول : إن أهميته السياسية ترجع إلى أنه يقوم بتقريب الهوة التى تفصل بين الغرب وبين المسلمين ، وأنه هو وتلاميذ مدرسته خليقون بأن يقدم لهم كل ما يمكن من العون والتشجيع ، فهم الحلفاء الطبيعيون للمصلح الأوروبى[1] » .

ويتكلم نيومان فى كتابه : (Great Britain) عن تلاميذ محمد عبده وأتباعه فيقول :

« وكان برنامجهم فوق ذلك يشجع التعاون مع الأجانب لادخال الحضارة الغربية إلى مصر ، وهذا هو ما جعل كرومر يحصر فيهم أمله الوحيد فى قيام الوطنية المصرية ، وهذا أيضاً هو السبب فى تعيينه سعد زغلول باشا وزيراً للمعارف[2] » .

---

(١) Modern Egypt, p. 179 — 180

(٢) p. 165

فضل حركة السيد جمال الدين ومدرسته :

لم تكن هذه الغاية الجسيمة والأوضاع السياسية الجاثمة على الشرق لتدع لمثل السيد جمال الدين الأفغانى — فى قوة عاطفته وحماسته — حقلا آخر للنشاط والانتاج ، وتدعه يعمل عملا إيجابياً بنّاء فى المجتمع الاسلامى ، ويقوم بدراسة عميقة تحليلية للحضارة الغربية ، وما يحسن اقتباسه منها وما لا يحسن ، وبناء فكر إسلامى جديد يساير الزمان ، ويتغلب على نزعة تقليد الغرب .

ولكن دوره لا يستهان بقيمته فى رفع قيمة الدين ، والاعتماد على القرآن فى عيون النشء الجديد ، وفى إعادة الثقة بصلاحية الإسلام لكل زمان ومكان ، إلى نفوس الشباب المثقف ، وحال — إلى حد — بين الطبقة المثقفة الذكية فى مصر وغيرها ، وبين الإلحاد والثورة على الدين . وكان له فضل فى بقاء نفوذ الإسلام الفكرى والعلمى فى أوساط الطبقة المثقفة فى العالم الإسلامى ، وإلى ذلك أشار المستشرق الألمانى الكبير كارل بروكلمان إذ قال :

« لقد كانت للإسلام سيطرة على حياة مصر الروحية ، ولا تزال كذلك ، والفضل فى ذلك يرجع إلى فارسى اسمه جمال الدين ، الذى آثر لأسباب سياسية أن ينسب نفسه إلى أفغانستان ، البلاد التى قضى فيها شبابه[١] » .

المتخرجون فى أوروبا طلائع الفكر الغربى فى العالم العربى :

بدأ صفوة الأذكياء وخيرة الشباب يدرسون العلوم العصرية فى مصر ، ثم يؤمون عواصم الغرب ومراكز الثقافة العصرية الكبرى فى أوروبا للتوسع فى الدراسات والتعمق فيها ، ويخوضون هناك فى لجة الحضارة الغربية وفى الأوساط العلمية التى اعتادت

---

(١) Carl Brocklemam : Geschichteder Islamischen Voelker Und Staaten Munchen Berlin 1939.

البحث العميق الدقيق ، واعتادت الحرية الفكرية والشجاعة الأدبية ، وعافت التقليد والأخذ بشيء على علاته ، فكان من المتوقع ومن المعقول جداً أن يوجد فى هؤلاء الشباب الشرقيين الذين نشأوا فى مصر البلد الإسلامى ، وقرأوا القرآن — معجزة كل عصر — رجال يروعهم ضعف أساس الحضارة الغربية والفكرة الغربية وإسرافها فى المادية ، وتطرفها فى القومية والنظر المادى القاصر المحدود إلى الإنسان ، وكل ما أنتجه وقام به من مظاهر العقل والروح والبطولة ، ويثير ذلك فيهم النخوة الإسلامية والمعانى الإنسانية الكريمة العميقة، ويثير فيهم روح الاستنكار والتمرد على مثل الحضارة الزائفة ، ويكون فيهم مفكر حر مثل محمد إقبال ، وثائر وداعية مثل محمد على(١) . وكانوا أولى

---

(١) هو الزعيم الهندى المشهور محمد على بن عبد العلى ، ولد فى إمارة — رام بور — (فى المقاطعة الشمالية الغربية سنة ١٨٧٨م ، ونشأ يتيما فى حضانة أمه القوية النفس والهمة ، والتحق بمدرسه بريلى الثانوية ، ثم انتقل إلى كلية عليكره الاسلامية . وتخرج فيها فى سنة ١٨٩٦ م ، وسافر إلى انجلترا وانتسب إلى جامعة أوكسفورد حيث نال شهادة فى الليسانس (B. A.) بامتياز ، وفاق فى الأدب الانجليزى ، واحتوى على ثروته الأدبية وأساليب اللغة الانجليزية المتنوعة كأبناء البلاد وأصحاب اللغة ، ورجع إلى الهند وشغل وظيفة كبيرة فى إمارة «برودة» ، ومكث فيها سبعة أعوام ، ثم استقال وأصدر منها من كلكتا سنة ١٩١١م صحيفة Comrade الاسبوعية الانجليزية ، التى نالت إعجاب الانجليز وأدبائهم وحكامهم أسلوبها الادبى الرصين والفكاهة الحلوة ، وانتقل بعد ذلك إلى دهلى ، وأصدر منها صحيفة يومية أردية سماها «همدرد» ، ونالت المكانة الرفيعة والقبول العام لصدق لهجتها . وكتب مقالة مستفيضة فى « كومريد » طويلة بعنوان (Choice of the Turks) « اختيار الاتراك » ، انتقد فيها سياسة الحلفاء والانجليز بصفة خاصة ، تعتبر من أقوى المقالات التى كتبت فى الهند ، أثارت غضب الحكومة الانجليزية فاعتقلته سنة ١٩١٤ م وبقى مدة الحرب العالمية ١٩١٤ — ١٩١٨م حفظ فيها القرآن ودرس الاسلام دراسة عميقة ، وأطلق فى آخر سنة ١٩١٩ م وأسس الجامعة الملية الاسلامية فى سنة ١٩٢٠ م ، واعتقل مرة ثانية بتهمة اثارة الجيش ضد الحكومة وحكم عليه فى كراتشى بسجن عامين وأطلق فى آخر ١٩٢٢ م ، ورأس حفلة المؤتمر الوطنى العام Indian National Congress فى كوكنادا فى جنوب الهند سنة ١٩٢٣ ، واعتزل المؤتمر سنة ١٩٢٩ م وحضر مؤتمر المائدة المستديرة سنة ١٩٣٠ م ، وخطب فيه خطبة عظيمة . ومات فى يوم ٤ من يناير سنة ١٩٣١ ، ونقل جثمانه إلى القدس حيث دفن فى المسجد الاقصى فى احتفال عظيم وجنازة مشيعة تشييعا عظيما ، ورثاه كبار السياسيين فى الاقطار الاسلامية والهند ، واعترفوا بعصاميته وعبقريته الادبية ، وشجاعته السياسية وحميته الاسلامية ، ومن الاقوال المأثورة للمؤرخ الانجليزى الشهير (H. G. Wells) : « ان محمد على جمع بين قلب نابليون ، وقلم ميكالى ، ولسان برك» .

بذلك من هذين ، فقد نشأ الاثنان فى بيئة بعيدة عن مهد الإسلام ومركز الثقافة الإسلامية ، وجرى فى عروقهما دم غير عربى ، وغير إسلامى[١] ، ولكن هذا الأمل لم يتحقق إلاّ فى نادر الأحوال ، ورجع أكثر هؤلاء الشباب المسلمين طليعة الفكر الغربى ، ودعاة متحمسين إلى تقليد الحضارة الغربية وقيمها ومفاهيمها وتصوراتها .

إن اللورد كرومر الذى كان أكبر رائد إلى تغريب مصر ، والعالم العربى بالتتبع ، قد صور بنفسه الجيل المصرى الجديد الذى نشأ فى أحضان التعليم الجديد ، وآمن بسيادة الغرب وفضل حضارته ومبادئه تصويراً صادقاً دقيقاً ، قد ينسب إلى المبالغة والقسوة والتشاؤم ، إذا صدر عن قلم مفكر إسلامى ، أو عالم مسلم متحفظ ، ولكن صدوره عن قلم رجل كان من أكبر دعاة التغريب فى الشرق ، يجرده من كل مبالغة وتهويل ، ويضفى عليه قيمة علمية كبيرة ، ويجعله وثيقة تاريخية تستحق كل اعتبار وكل اهتمام :

« إن المجتمع المصرى فى مرحلة الانتقال والتطور السريع ، وكانت نتيجته الطبيعية أن وجدت جماعة من أفرادهم « مسلمون » ولكنهم متجردون عن العقيدة الإسلامية والخصائص الإسلامية ، وإن كانوا « غربيين » فإنهم لايحملون القوة المعنوية ، والثقة بأنفسهم ، وإن المصرى الذى خضع للتأثير الغربى ، فإنه وإن كان يحمل الاسم الاسلامى لكنه فى الحقيقة ملحد وارتيابى ، والفجوة بينه وبين عالم أزهرى لاتقل عن الفجوة بين عالم أزهرى وبين أوروبى[٢] » .

---

(١) كان محمد على من سلالة هندية فى شمال الهند الغربى ، ومحمد إقبال أشار إلى أصله الهندى البرهمى كثيراً ، فيقول فى بيت يعاتب فيه شابا ينتمى إلى أهل البيت قد تأثر بالفلسفة تأثراً عميقا ومال إلى الالحاد ، «أنت تنتمى إلى سيد بنى هاشم فى نسلك — أما أنا — المؤمن بالاسلام وبمحمد صلى الله عليه وسلم إيمانا لايعتريه شك — فإن طينتى هندية وأنا أنتمى فى نسبى إلى سومنات — معبد الوثنيين القديم — وكان آبائى من عباد «اللات ومناة» (ضرب كليم) » .

(٢) The Earl of Cromer: Modern Egypt (1908), Vol. 11 pp. 228-9

إن الحقيقة أن الشاب المصرى الذى قد دخل فى طاحون التعليم الغربى ، ومر بعملية الطحن ، يفقد إسلاميته ، وعلى الأقل أقوى عناصرها ، وأفضل أجزائها ، إنه يتجرد عن عقيدة دينه الأساسية ، إنه لا يعود يؤمن بأنه لايزال أمام ربه ، وأنه تراقبه عين لاتخفى عليها خافية ، وأنه سيحاسب أمامه يوماً من الأيام ، ولكنه لايزال — رغم ذلك كله — يستفيد من مظاهر الحياة الإسلامية التى تتسامح مع مواضع ضعفه الخلقى ، ولا تتصادم معها ، والتى تتفق مع مصلحته فى مجالات الحياة ، ولكن المصرى المثقف رغماً عن ابتعاده عن الاسلامية لا يميل إلى المسيحية إلا نادراً » .

ويتقدم اللورد كرومر ، فيقول :

« إن المصرى المتحرر يسبق الأوروبى المتحرر فى التنور ، وحرية الفكر والحيرة ، إنه يجد نفسه فى بحر هائج لايجد فيه سكاناً ولا رباناً لسفينته ، فلا ماضيه يضبطه ، ولا حاضره يفرض عليه الحواجز الخلقية ، إنه يشاهد أن الجمهور من مواطنيه يعتقدون أن الدين يعارض « الإصلاحات » التى يراها جديرة كل الجدارة بالنفاذ ، إن ذلك يثير فيه السخط ، والكراهية الشديدة ، للدين الذى يؤدى إلى مثل هذه النتيجة ، فيدوسه بقدمه ، وينبذه بالعراء ، إنه إذا قطع الصلة عن دينه وتعاليمه فلا يحجزه عن التورط فى المزالق الخلقية إلا مصلحته الشخصية السافرة ، مع أن الأوروبى الذى يحرص على تقليسده ، لايزال متقيداً بشرائع أمته الخلقية ، إن المجتمع الذى يتكون من مثل هؤلاء الأفراد المتحررين فى مصر ، لا ينكر على الكذب والخديعة إنكاراً شديداً ، ولا يمنعه من ارتكاب الرذائل خوف سوء الأحدوثة فى المجتمع ، إنه اذا رفض دين آبائه ، فإنه لايلقى عليه نظرة عابرة ، انه لايرفضه فحسب ، بل يرفسه ويركله برجله ، إنه يترامى فى أحضان الحضارة الغربية متعامياً عن كل حقيقة ، ويغيب عنه أن الجانب الزاهر البراق للحضارة الغربية ليس إلا الجانب الخارجى من جوانب هذه الحضاره ، إن الحقيقة أن القوة الخلقية التى تنبع من التعاليم المسيحية هى التى تضبط سفينة الحضارة الغربية ، وتمنعها من الاضطراب

الزائد فى البحر المائج ، ولما كانت هذه القوة قوه باطنية ، فإنها تتوارى فى غالب الأحيان عن أنظار المتشبهين الزائفين بأبنائها الحقيقيين ، إنه يحلف ويقول : إنه نبذ التعصب الدينى ، وأنه يحتقر تعاليم آبائه ، انه يقول لزميله الأوروبى : إننا أصبحنا نملك الخط الحديدى ، وقد أسسنا فى بلادنا مدارس عصرية ، وأنشأنا الجرائد والمحاكم ، ومظاهر الحياة الحديثة ، والمدنية العصرية التى تتكون منها حضارتكم ، فكيف نعتبر متخلفين عنكم وأحط شأناً منكم ، إنه يجهل أنه لا يستطيع أن يجارى زميله الغربى ويكون نداً له ، فإن المسيحى المتحضر وإن لم يكن راسخاً فى دينه ، ولكنه إلى حد كبير نتاج المسيحية فإن لم تكن المسيحية التى مضى عليها ألف وتسع مائة سنة ، رصيده وسنده ، لم يكن قط حيث هو الآن (١) » .

الدعوة الى تحرير المرأة وآثرها :

ومن أوضح الأمثلة لذلك كتابان لقاسم أمين ، أحدهما « تحرير المرأة » ، والثانى « المرأة الجديده »(٢) .

أما الكتاب الأول فقد ذهب فيه المؤلف إلى أن الدعوة إلى السفور ليس فيها خروج عن الدين ، وذكر : « إن الشريعة الإسلامية إنما هى كليات وحدود عامة ، ولو كانت تعرضت إلى تقرير جزئيات الأحكام لما حق لها أن تكون شرعاً عاما ، يمكن أن يجد فى كل زمان وكل أمة مايوافق مصالحها . . أما الأحكام المبنية على مايجرى من العادات والمعاملات فهى قابلة للتغيير على حسب الأحوال والأزمان ، وكل ماتطلبه الشريعة فيها هى أن لا يخل هذا التغيير بأصل من أصولها العامة (٣) » .

---

(١) Ibid p. 232 .

(٢) صدر الكتاب الأول سنة ١٨٩٩ ، والثانى سنة ١٩٠٠ م .

(٣) تحرير المرأة ص ١٦٩ .

وقد تناول فى كتابه أربع مسائل ، وهى : الحجاب، واشتغال المرأة بالشؤون العامة ، وتعدد الزوجات ، والطلاق ، وذهب فى كل مسألة من هذه المسائل إلى مايطابق مذهب الغربيين ، زاعما أن ذلك هو مذهب الإسلام .

ويتجلى أثر الثقافة الغربية والخضوع للحضارة الغربية وقيمها أوضح فى الكتاب الثانى « المرأة الجديدة » فالتزم فيه المؤلف مناهج البحث الأوروبية الحديثة التى ترفض كل المسلمات والعقائد السابقة سواء منها ماجاء من طريق الدين ، وماجاء من غير طريقه، ولا تقبل إلا مايقوم عليه دليل من التجربة أو الواقع على حسب مايفعله باحثو الاجتماع الأوروبيون ، وهو مايسمونه : (الأسلوب العلمى)[١] .

ودعا قاسم أمين فى آخر هذا الكتاب دعوة صريحة إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية فيقول بعد أن ذكر إعجاب المسلمين والمصريين الشديد بالماضى :

« هذا هو الداء الذى يلزم أن نبادر إلى علاجه ، وليس له دواء إلا أننا نربى أولادنا على أن يتعرفوا شؤون المدنية الغربية ، ويقفوا على أصولها وفروعها وآثارها ، إذا أتى ذلك الحين — ونرجو أن لا يكون بعيداً — انجلت الحقيقة أمام أعيننا ساطعة سطوع الشمس ، وعرفنا قيمة التمدن الغربى ، وتيقنا أنه من المستحيل أن يتم إصلاح ما فى أحوالنا، إذا لم يكن مؤسساً على العلوم العصرية الحديثة ، وإن أحوال الانسان مهما اختلفت ، وسواء كانت مادية أو أدبية خاضعة لسلطة العلم ، لهذا نرى أن الأمم المتمدنة على اختلافها فى الجنس واللغة والوطن والدين متشابهة تشابهاً عظيما ، فى شكل حكومتها وإدارتها ومحاكمها ونظام عائلتها وطرق تربيتها ، ولغاتها ، وكتابتها ومبانيها ، وطرقها ، بل فى كثير من العادات البسيطة كالملبس والتحية والأكل ، هذا هو الذى جعلنا (نضرب

---

(١) الاتجاهات الوطنية للدكتور محمد محمد حسين الجزء الأول ص ٢٨٢ .

الأمثال بالاوروبيين) ونشيد بتقليدهم ، وحملنا على أن نستلفت الأنظار إلى المرأة الأوروبية(١) » .

وقد تبع صدور هذين الكتابين ، وما قام به الدعاة إلى تحرير المرأة من النشاط والانتاج والكفاح، حركة حثيثة . من الحرية فى النساء ، والسفور والاختلاط والرحلات إلى أوروبا وأمريكا للدراسات ، يقول الدكتور محمد محمد حسين :

« . . وجزع المحافظون لما صحب هذه الحركة من ميل إلى التبرج ، ومن نزوع إلى التحرر والانطلاق ، وأنكروا ما رأوا من تغير حل المرأة ، ومن جرأتها على التقاليد وتمردها على سلطة الأب والزوج ، وراحوا يتابعون فى ذهول تطور الزى ، وتقلص الثوب فوق جسدها فى سرعة تجاوزت كل ما يتخيلون من حدود(٢) » .

ويقول متحدثاً عن بعض السيدات المتحمسات فى هذه الدعوة وتقدمهن فى هذا المضمار :

« . وتزعمت هذه الحركة النسوية هدى شعراوى ، حرم على باشا شعراوى وتجرأت هذه المتزعمة على ما لم تتجرأ عليه امرأة مسلمة من قبل ، فسافرت إلى باريس وإلى أمريكا لدراسة شئون المرأة ، وأخذت تلقى بالتصريحات والأحاديث لمندوبى الصحف(٣) » .

صدى افكار المستشرقين فى مصر :

ورجع كثير من الجامعيين متشبعين بروح الغرب يتنفسون برئة الغرب ، ويفكرون

---

(١) «المرأة الجديدة» ص١٨٥ — ١٨٦ .

(٢) الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ، للدكتور محمد محمد حسين — ج ٢ ص٢٣٥ .

(٣) الاتجاهات الوطنية فى الادب المعاصر ، للدكتور محمد محمد حسين ج٢ — ص٢٣٥ .

بعقله ، ويرددون — فى بلدهم — صدى أساتذتهم المستشرقين ، وينشرون أفكارهم ونظرياتهم فى إيمان عميق ، وحماسة زائدة ، فلا يقرأ إنسان لعالم مستشرق فى الغرب بحثاً ولا يعرف له نظرية إلاّ ويجد أديباً أو مؤلفاً فى مصر يتبنى هذه النظرية بكل إخلاص ، ويشرحها ويدعو إليها فى كل لباقة وبلاغة ، مثل : بشرية القرآن ، وفصل الدين عن السياسة ، وأن الإسلام دين لا دولة[١] ، والدعوة إلى العلمانية ، والشك فى مصادر العربية الأولى ، والشك فى قيمة الحديث العلمية ، وإنكار مكانته وحجيته ومكانة السنة فى الإسلام ، والدعوة إلى تحرير المرأة ومساواتها بالرجل وإلى السفور ، وكون الفقه الإسلامى مقتبساً من القانون الرومانى ، ومتأثراً به فى روحه وسبكه ، والدعوة إلى إحياء الحضارات السابقة على الإسلام ، وتمجيد العصر الفرعونى ، والتغنى بحضارته وأدبه وأمجاده ، والدعوة إلى العامية والتأليف فيها ، واقتباس الحروف اللاتينية والتقنين المدنى العربى على أساس القانون المدنى الغربى ، والدعوة إلى القومية العربية والاشتراكية المادية — والشيوعية الماركسية أحياناً — فى العصر الأخير ، ترى ظلال الفكر الغربى ، بل التعبير الغربى وارفة ممدودة على العقول العربية والأقلام العربية ، مسيطرة عليها كسيطرة الأشجار الكبيرة على الحشائش الصغيرة ، منعكسة فيها انعكاس الشمس فى المرآة الوضيئة ، وقد شهد بتغلغل الأفكار الغربية فى المجتمعات والدول الإسلامية عالم مستشرق عرف الشرق الإسلامى ، وعرف تياراته الفكرية معرفة دقيقة ، يقول : « هـ ، أ ، ر ، جب » فى كتابه « إلى أين يتجه الإسلام ؟ » :

---

(١) وقد صدر فى هـذا الموضوع كتاب لعالم دينى من علماء الازهر والقاضى الشرعى ، شغل الناس وأحدث ضجة فى الأوساط الدينية والعلمية ، وهو كتاب « الاسلام وأصول الحكم » للشيخ على عبد الرازق . وهو يدل دلالة واضحة جداً على مدى تغلغل فكرة المستشرقين فى عقول الطبقة المثقفة ، حتى تبناها عالم دينى ودعا إليها بحماس وإخلاص ، وهو يدور حول إثبات أن الخلافة نظام تعارف عليه المسلمون وليس فى أصول الشريعة ما يلزم به ، ويخرج منه بنتيجة إنكار أن تكون الخلافة أو القضاء أو وظائف الحكم ومراكز الدولة جميعا من الدين فى شىء ، وإنما « خطط » دنيوية صرفة لا شأن للدين بها .

« وإذا أردنا أن نعرف المقياس الصحيح للنفوذ الغربى ، ولمدى تغلغل الثقافة الغربية فى الإسلام ، كان علينا أن ننظر إلى ما وراء المظاهر السطحية ... علينا أن نبحث عن الآراء الجديدة والحركات المستحدثة التى ابتكرت بدافع من التأثر بالأساليب الغربية ، بعد أن تهضم وتصبح جزءاً حقيقيا من كيان الدولة الاسلامية ، فتتخذ شكلا يلائم ظروفها(١) ».

اتجاه حركة التاليف والترجمة الى الادب والاجتماع :

وكان هؤلاء الأدباء والكتّاب قد أسدوا معروفاً كبيراً ، وأحسنوا إلى مجتمعهم وبلادهم ولغتهم لو نقلوا الكتب من اللغات الغربية المؤلفة فى أغراض العلوم التجريبية المادية بكل فروعها الكيميائية والطبيعية والميكانيكية النظرية والتطبيقية ، التى لا تزال المكتبة العربية فقيرة فيها ، كما فعل الأدباء فى اليابان ، فحوّلوها إلى بلاد صناعية تضارع أعظم الدول والأقطار الأوروبية فى العلوم الطبيعية والصناعية ، وكما فعلت دار الترجمة فى حيدر آباد ، ولكن انصرفت عنايتهم وهوايتهم إلى ترجمة كتب الآداب وعلم الاجتماع والفلسفة والتاريخ ، والروايات والقصص ، وترجمة كتب كثير من دعاة الالحاد والثورة والاضطراب الفكرى فى المجتمع الغربى، التى ساعدت فى إنشاء التبلبل الفكرى والاضطراب الاجتماعى ، وضعف شخصية الفكر العربى والأدب العربى ، وأحدثت اصطراع الأفكار والمثل ومناهج الفكر .

وقد وجد لهذا الاتجاه الأدبى كتّاب وأدباء فى مصر لهم قيمتهم الأدبية وإنتاج أدبى كبير، ولكن لم يظهر فى مصر ولا فى الشرق العربى نوابغ وعبقريون فى العلوم العملية ، وفى مجالات الطبيعة والكيمياء ، وعلم الآلات والعلوم الرياضية ، يعترف العالم الغربى بتفوقهم فى هذه العلوم ، وبقيمة بحوثهم وإنتاجهم العلمى ، وينالون إعجاب الأوساط العلمية الكبيرة وتقديرها .

(١) الترجمة مأخوذة من كتاب « الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر » .
Wither Islam ? p. 328-329

وقد أشار إلى موضع الضعف فى إنتاج الأقطار الواقعة فى الشرق الأوسط الأستاذ برنارد لويس (Bernard Lewis) أستاذ جامعة لندن فى مقال له يقول :

« إن العمل المتكر الأصيل فى مجال العلوم التطبيقية لم يتقدم فى الشرق الأوسط مثل ما تقدم فى اليابان والصين والهند ، إن الجيل الجديد فى الشرق الأوسط لا يزال يستخدم وسائل الغرب التى تدخل من دور إلى دور جديد فى فترة قصيرة من الزمن ؛ لذلك يلاحظ بون شاسع بين الشرق الأوسط وبين الدول الأوروبية المتقدمة الراقية فى العلوم الطبيعية والكفاية الصناعية ، وفى نتيجة ذلك فى القوة الحربية بون أوسع مما كان قبل قرن أو نصف قرن حين بدأت عملية التغريب فى الشرق الأوسط(١) » .

صورة من الحياة الغربية :

ووجد فى مصر كتّاب وأدباء دعوا دعوة سافرة إلى تقليد الحضارة الغربية ، واتخاذها مثلا أعلى فى الحضارة والاجتماع ، وكانت مصر — ببقائها تحت الاحتلال الغربى مدة طويلة ، وبحكم قربها من أوروبا وبفقد الدعوات الدينية التجديدية المؤسسة على النقد العلمى — تزداد انصباغاً بالحضارة الغربية فى كل يوم ، وتتجه إلى الغرب اتجاهاً مستمراً ، حتى كادت تصبح فى الطبقة المثقفة والأرستقراطية صورة من الحياة الغربية ، واستطاع الدكتور طه حسين فى سنة ١٩٣٨ م أن يصور بلده تصويراً غربياً ، ويقول فى كتابه المشهور : « مستقبل الثقافة فى مصر » :

« حياتنا المادية أوروبية خالصة فى الطبقات الراقية ؛ وهى فى الطبقات الأخرى تختلف قرباً وبعداً من الحياة الأوروبية باختلاف قدرة الأفراد والجماعات وحظوتهم من الثروة وسعة ذات اليد ، ومعنى هذا أن المثل الأعلى للمصرى فى حياته المادية إنما هو

---

(١) مقالة Bernard Lewis بعنوان : «The Middle East Versus the West» فى مجلة «Encounter, Oct 1963» .

المثل الأعلى للأوروبى فى حياته المادية[1] » .

« .. وحياتنا المعنوية على اختلاف مظاهرها وألوانها أوروبية خالصة ، نظام الحكم عندنا أوروبى خالص ، نقلناه عن الأوروبيين نقلا فى غير تحرج ولا تردد ، وإذا عبنا أنفسنا بشيء من هذه الناحية ، فإنما نعيبها بالإبطاء فى نقل ما عند الأوروبيين من نظم الحكم وأشكال الحياة السياسية[2] »

« والتعليم عندنا على أى نحو قد أقمنا صروحه ، ووضعنا مناهجه وبرامجه منذ القرن الماضى ؟ على النحو الأوروبى الخالص ، ما فى ذلك شك ولا نزاع ، نحن نكوّن أبناءنا فى مدارسنا الأولية والثانوية والعالية تكويناً أوروبياً لا تشوبه شائبة[3] » .

ويستخلص من هذا كله النتيجة الآتية :

« كل هذا يدل على أننا فى هذا العصر الحديث نريد أن نتصل بأوروبا اتصالا يزداد قوة من يوم إلى يوم ، حتى نصبح جزءاً منها لفظاً ومعنى وحقيقة وشكلا[4] » .

دعوة طه حسين مصر الى اعتبار نفسها جزءا من الغرب :

لقد كان من المتوقع ، ومن المعقول جدا ، أن مثل الدكتور طه حسين صاحب الشخصية القوية فى الأدب والعلم ، الذى حفظ القرآن فى الصغر ، ودرسه فى الكبر ، وتعلم فى الأزهر ، ونظر فى العلوم والآداب نظرة حرة واسعة ، ورأى شقاء أوروبا بحضارتها المادية وفلسفاتها الإلحادية ، وحكوماتها القومية ، وتذمر مفكريها والعلماء الأحرار فيها ، ودرس تاريخ العرب والسيرة المحمدية دراسة تذوق وإتقان ، لقد كان من المتوقع ،

---

(١) مستقبل الثقافة فى مصر ص ٣١ .
(٢) أيضا ص ٣٢ .
(٣) أيضا ص ٣٦ .
(٤) أيضاً ص ٣٤ .

والمعقول جداً ، أن يدعو مصر إلى الاستقلال الفكرى والحضارى ، وتربية شخصيتها الإسلامية العربية ، والنهوض برسالتها العظيمة التى تستطيع أن تحدث انقلاباً فى الأوضاع العالمية ، وتمنح مصر مركز الزعامة والقيادة والتوجيه حتى ولو كانت مصر جزءاً من العالم الغربى وقطعة من أوروبا ، فالرسالات السماوية الإنسانية أسمى وأوسع وأبقى من الحضارات ، وهى غنية عن الحدود الجغرافية والأدوار التاريخية ، وإذا فعل ذلك ، وقام بهذه الدعوة كان رائد النهضة الفكرية الحقيقية ، والثورة المصرية المباركة ، واتفق ذلك مع مواهبه العظيمة كل الاتفاق .

ولكن كان من نتائج تغلغل الثقافة الغربية فى الطبقة المثقفة فى العالم الإسلامى وسيطرتها على التفكير والمشاعر ، وضعف المجتمع الإسلامى الذى نشأ وعاش فيه طه حسين ، أنه قام يدعو مصر إلى اعتبار نفسها جزءاً من الغرب ، ويجند كل ذكائه وإنشائه ودراسته التاريخية لإثبات أن العقلية المصرية عقلية أوروبية ، أو قريبة قرباً شديداً من الاوروبية ، ولها اتصال وثيق بالعقلية اليونانية ، وبعيدة كل البعد عن العقلية الشرقية ، وهى منذ قديم الزمان ، وهى منذ العهد الفرعونى لم تتأثر بالطارىء عليها فى أى عصر ، فلم تتغير بالفرس ، ولا بالرومان ، ولا بالعرب والاسلام ، « إن العقل المصرى منذ عصوره الاولى عقل إن تأثر بشىء فإنما يتأثر بالبحر الابيض المتوسط ، وإن تبادل المنافع على اختلافها فإنما يتبادلها مع شعوب البحر الابيض المتوسط[1] » ، ويقول :

« إن من السخف الذى ليس بعده سخف اعتبار مصر جزءاً من الشرق ، واعتبار العقلية المصرية عقلية شرقية كعقلية الهند والصين[2] » .

وعلى هذا الاساس يدعو الدكتور طه حسين المصريين إلى اختيار الحضارة الغربية حضارة لهم ، ومشاركة الغربيين — أعضاء الاسرة العقلية الواحدة — فى جميع مناهجهم

---

(١) مستقبل الثقافة فى مصر ص٣٢ .

(٢) أيضا ص٤١ .

«مقاييسهم وأذواقهم وأحكامهم، فيقول :

« ... أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً ، ولنكون لهم شركاء فى الحضارة ، خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، وما يحب منها وما يكره ، وما يحمد منها وما يعاب[1] » .

« وأن نشعر الأوربى بأننا نرى الأشياء كما يراها ، ونقوّم الأشياء كما يقومها ، ونحكم على الأشياء كما يحكم عليها[2] » .

مستوى فكرى نازل :

إن هذا المستوى الفكرى ، مستوى التقليد والتطبيق والتشبه والانسجام بالغرب، وإن قياس النبعات والواجبات والرسالات بمقياس الجغرافية والتاريخ وطبائع الأمم وعقلياتها فى ضوء التاريخ القديم، مستوى كنا نتوقع من عالم مصرى وأديب مفكر مثل الدكتور طه حسين أن يترفع عليه ، وقد ترفع على ذلك بعض القادة الشرقيين فى أقطار غير إسلامية ، فصاروا يلهجون بالجامعة الإنسانية والنظرة الآفاقية والمثل الخلقية والروحية التى هى فوق الحدود والثغور وفوق المناطق الحضارية والثقافية فى العالم القديم أو الجديد،ويكفرون بالروابط التى توزع الأسرة الإنسانية الموحدة بين الأوطان والأجناس والمناطق الحضارية وبين العالم الغربى والعالم الشرقى ، وكان المسلم العربى أحق بهذه الفكرة الواسعة ، وأحق بأن يتزعم هذه الدعوة ويقودها ، فإنه نشأ فى ظل « شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولا غربية » .

---

(١) أيضا ص٤١ .
(٢) أيضا ص٤٤ .

حركة « الاخوان المسلمون » وتأثيرها :

إن مواجهة حضارة الغرب وجهاً لوجه ، ونقدها النقد الجرىء الأصيل ، والظهور أمام الغرب فى مظهر الداعى المهاجم كان يتطلب دراسة أعمق ، وجهوداً أكثر ترابطاً وأكثر تركيزاً ، ومعرفة أدق بطبيعة الحضارة الغربية وتركيبها ، وحماسة أشد فى الدعوة إلى الإسلام ونظمه ومناهجه ، ويتطلب موقفاً غير موقف الزعيم السياسى الذى وقفه جمال الدين ، وموقف المحامى للمدافع عن الشريعة الإسلامية الذى وقفه الشيخ محمد عبده .

وقد كان فى حركة « الإخوان المسلمون » كبرى حركات الشرق الأوسط الدينية والسياسية أمل كبير فى تجديد القوة الإسلامية ، لو قدر لها أن تسير سيرها الطبيعى وتؤثر تأثيرها المطلوب ، والتف حولها الباحثون النوابغ والمفكرون الإسلاميون ورجال الاختصاص الفنى ، والدراسات الواسعة العميقة التى قد بدت طلائعها[١] ، وتملأ الفراغ الفكرى فى الشرق وتنجح فى تأسيس المجتمع الإسلامى القوى المستقل فى شخصيته وفى تفكيره وفى وطنه ، ولكن محاربة القوات المتجهة إلى « العلمانية » والاشتراكية لها قد حرمت العالم العربى — والعالم الإسلامى بدوره — ثمرات هذه الحركة الواسعة القوية التى كانت أقوى انتفاضة دينية وثورة إسلامية فى العصر الحاضر ، وكان ذلك رزءاً وخسارة للعالم الإسلامى لا تعوض[٢] .

---

(١) فى كتاب مثل الاستاذ الشهيد عبد القادر عودة والمرحوم الدكتور مصطفى السباعى ، وسيد قطب ومحمد قطب ومحمد الغزالى والدكتور سعيد رمضان والاستاذ محمد المبارك والشيخ يوسف القرضاوى وأضرابهم .

(٢) عاد « الاخــوان المسلمون » فى مصر أخيرا ، إلى نشــاط محدود ، ليس من السهل التكهن باستمراره ، واحتلالهم المركز الذى كانوا يشغلونه ، قبل محنة الدعوة وقادتها ، وقد بدأت صحيفة « الدعوة » تصدر من القاهرة بعد احتجابها عقودا من السنين ، وحظيت بعدد من القراء ، لا تحظى به صحيفة =

هل كانت حركة الإخوان تملك قدرة على تحقيق هذا الهدف الكبير وإلى أى مدى حققت — بقدر وسعها — هذه المطالب والغايات ؟ إنه شيء التبس على كثير من الناس، ويجدر فى هذه المناسبة أن نقدم بعض ماجاء فى كتاب مفكر غربى لايمثل « الإخوان المسلمون » ولا يعطف على قضاياهم وذلك بحذف واختصار ، يقول الأستاذ سمث W.G.Smith فى كتابه Islam in Modern History يشير إلى بعض النواحى المهمة لهذه الحركة :

« إنه لا يصح أبداً أن نعتبر « الإخوان المسلمون » رجعيين على الاطلاق فإن هذه الحركة قد قامت بمحاولة تستحق التقدير والإعجاب لإنشاء مجتمع عصرى على أسس العدالة الاجتماعية وحب الإنسانية الذى هو صفوة القيم والتقاليد القديمة ...

إنها تريد العودة إلى أسس للمجتمع تقوم على قيم خلقية ثابتة مجمع عليها ، وتفكير متزن ، عادل ...

إنها تستطيع أن تحول الإسلام من تحمس عاطفى لأتباعه ومحبيه والمتعبدين له الذين تخلوا من كل شعور ومن كل نشاط ، أو من حقل قديم لهواة التقاليد المحترفين الذين تشبثوا بالماضى فى تفكيرهم وعملهم ، إلى قوة ناهضة صاعدة تستطيع أن تشق طريقها وسط القضايا العصرية ومشكلاتها ...

إن فى دعوة الإخوان حلا عملياً سريعاً لأكثر مشكلات المجتمع ، وإذا لم تقم هناك طائفة أخرى لمعالجة هذه المشكلات بتحمس أكثر ورغبة أكبر ، نستطيع أن

= لم يصدر منها إلا الاعداد الاولى ، وذلك يدل دلالة واضحة على مكانة دعوة الاخوان فى نفوس الشعب المصرى المسلم ، وعلى أن الفراغ لم يملأ طول هذه المدة ، حتى عاد الاخوان ولسان حالهم « الدعوة » على المسرح الاسلامى الجهادى ، ولله الامر من قبل ومن بعد .

نؤكد بأن حركة الإخوان سوف تعيش وتستمر رغم سوط الإرهاب والاستبداد ، إن الاخوان هى الحركة الوحيدة فى هـذا الزمان (هدا الشيوعيين) التى قدمت أمام الناس فكرة تجاوزت تقديساً باللسان وتشديقاً بالكلام إلى كسب التأييد والولاء بنطاق أوسع [١] » .

ثورة ٢٣ يولية فى مصر .

لم تزل الثقافة الأجنبية ـ فى داخل البلاد وخارجها ـ ولم تزل الدعوة إلى « التغريب » والفلسفات الغربية المادية التى ترد إلى البلاد من الخارج ، ويتطوع لنشرها وشرحها كبار الأدباء والكتاب فى البلد ، تعمل عملها الطبيعى فى أذهان الناس وتلتهمها الطبقة الجامعية المثقفة والشباب الناشىء والضباط فى الجيش ، وكل ذلك ثائر على الأوضاع الفاسدة السائدة التى لا تطاق ، وتظهر فى هذه الأغراض كتب ومؤلفات يقرؤها الشبان عند المراهقة الفكرية فيسيغونها وتصبح جزءاً من فكرتهم وعقيدتهم ومطامحهم فى الحياة ، وينظرون إلى هذه الفلسفات كالطريق الوحيد للنهضة بالبلاد ومجاراة الدول والأقطار الحرة الراقية ، وتعجز المعارف ووسائل التربية والتوجيه والأدب المقبول عن أن تخلق فى هؤلاء تفكيراً أسمى وطموحاً أبعد من هذه الخطط التقليدية المرسومة المرددة فى كل بلد ، والتى سبق إليها كمال أتاتورك ، وتحققت له الزعامة فى حركة التغريب ، وتطوير البلاد والمجتمع والعقلية من الأساس الإسلامى الايمانى إلى الأساس الغربى المادى ، فيحاولون تقليدها وتطبيقها فى بلادهم باختلاف نوع القومية [٢] ، وبزيادة الاشتراكية التى لم تبلغ فى عصر كمال أتاتورك هذا الطور الواضح المتميز القوى ، ولم تكسب هذه السيطرة ،

---

(١) Islam in Modern History. p. 161-162

(٢) القومية العربية بدل القومية التركية .

وهذا السحر على العقول والأفكار ، ولم يبق لهذه الطبقة إلا أن تتولى القيادة وتجد فرصة لتطبيق مخططها الفكرى .

جاءت ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢م ونجحت بطبيعة الحال ، ورحب بها كل ساخط على الأوضاع الفاسدة وكل محب للبلاد وللنهضة والقوة والاستقلال ، وعقد بها الناس — على اختلاف طبقاتهم ووجهات نظرهم — آمالا كثيرة مختلفة ، وكان فى إمكانها واستطاعتها أن تعيد إلى مصر مكان الصدارة فى العالم العربى الزعيم للإسلام ، ومكان التوجيه والثقة والاحترام فى العالم الاسلامى ، وأن تشق طريقها إلى الأمام ، وأن تنهج نهجاً فى الحياة يوافق طبيعة الشعب المصرى المسلم القوى فى إيمانه وفى عاطفته الدينية ، وطبيعة العالم العربى الذى أبى الله أن ينهض ويتحد ويسود إلا بهذا الدين الذى اختاره لزعامته وقيادته ، ويوافق طبيعة العالم الاسلامى الذى لا ينشط ولا يتحمس ولا يرتبط إلا بدعوة دينية ، ويوافق طبيعة العصر الذى ضاق بالقوميات وتخطى — فى سيره الحثيث — العصبيات التى تقوم على أساس العنصرية أو اللغة أو اللون أو الوطن ، وصار ينظر إلى هذه الروابط والجامعات كدعوات رجعية جاهلية تمزق الأسرة الإنسانية والوحدة البشرية ، وينتظر من شعب عربى قيادة أوسع نظراً وأكثر « تقدمية » من القوميات ، وكل ينتظر من قيادة هذه الثورة الموفقة عقلية أوسع ، وصدراً أرحب ، وذكاء أكثر عمقاً ، وتخطيطاً أكثر أصالة ومطابقة للواقع .

محاولة تطوير المجتمع المصرى والعربى كليا

ولكن تحقق سريعاً أن هذه الثورة فكرة مستقلة ، وفلسفة قائمة بذاتها ، وخطة كاملة مصممة تصميما دقيقاً لتطوير المجتمع المصرى و — بواسطته وعن طريقه — المجتمع العربى تطويراً قومياً مادياً اشتراكياً ، حتى يصبح مجتمعاً جديداً ، يستخلص لنفسه علاقات اجتماعية جديدة تقوم عليها قيم أخلاقية جديدة وتعبر عنها ثقافة وطنية

جديدة[١]، وينظر إلى الحرية ، والاشتراكية ، والوحدة ، كأساس الحياة وأهداف النضال[٢] ويبحث عن جذور النضال المصرى «فى التاريخ الفرعونى صانع الحضارة المصرية والانسانية الأولى[٣] » ويحدد نضاله للأمة العربية التى تقوم على وحدة اللغة التى تصنع وحدة الفكر والعقل ، ووحدة التاريخ التى تصنع وحدة الضمير والوجدان ، ووحدة الأمل التى تصنع وحدة المستقبل والمصير[٤] ، أما الدين الاسلامى — الذى هو دين العرب — إلا من شذ منهم — فينظر إليه كأى دين من الأديان الكثيرة التى تدين بها أمة أو بلاد ، ويضعها جميعاً فى صعيد واحد ، ومستوى واحد ، ويسمح لها بالبقاء ويعترف بها — جميعاً — بالشرف والتأثير « إن حرية العقيدة الدينية يجب أن تكون لها قداستها فى حياتنا الجديدة الحرة ، إن القيم الروحية الخالدة النابعة من الأديان قادرة على هداية الانسان وعلى إضاءة حياته بنور الإيمان ، وعلى منحه طاقات لا حدود لها من أجل الخير والحق والمحبة[٥] » . ويتكلم عن هذه الأديان كأى اشتراكى مادى لا ينظر إلا إلى قيمة الأديان المادية والثورية ودورها فى التاريخ الانسانى ، وكأنه لا يؤمن بالآخرة والحقائق الغيبية ، وإلى قيمة العقيدة الدينية والثواب الأخروى « إن رسالات السماء كلها فى جوهرها كانت ثورات إنسانية ، استهدفت شرف الانسان وسعادته ، وإن واجب المفكرين الدينيين الاكبر هو الاحتفاظ للدين بجوهر رسالته[٦] » .. وينظر إلى المجتمع وأعضائه وحقوقهم نظرة لا تتقيد بالتشريعات

---

(١) نص التعبير الذى جاء فى النص الرسمى للميثاق الوطنى الذى قدمه الرئيس جمال عبد الناصر فى المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية فى يوم ٣١ مايو ١٩٦٢ ، انظر الباب الاول ، نظرة عامة .

(٢) أيضا .

(٣) الميثاق القومى ، الباب الثالث .

(٤) أيضا الباب التاسع .

(٥) الميثاق القومى ، الباب السابع .

(٦) أيضا ، الباب السابع .

الإسلامية والحدود التى بينها الله تعالى للإنسان ، وإنما تقوم على أسس المجتمع الغربى والتفكير العصرى ، فالمرأة فى نظره « تتساوى بالرجل ، ولابد أن تسقط بقايا الاغلال التى تعوق حركتها الحرة التى تستطيع أن تشارك بعمل وإيجابية فى صنع الحياة[١] » .

وبصرف النظر عن هذه التفاصيل والشواهد ، فإنه مما لا شك فيه أن الفكرة التى تسيطر على هذا الميثاق وواضعه ، والتى دفعت إلى سبكه فى هذا القالب هى الفكرة المادية ، وللإنسان أن يسحب من نص الميثاق كلمة العرب ، ومصر التى تتردد كثيراً ، ومايدل على البيئة التى صدر فيها هذا الميثاق ، وينسبه إلى أى جمهورية علمانية اشتراكية فى الشرق ، وكلها تعترف بحرية العقيدة الدينية وقداستها ، وبتأثير القيم الروحية الخالدة النابعة من الأديان فى تاريخ الإنسان والمدنية .

وقد اتخذ قادة الثورة خطوات حاسمة إيجابية لتطوير المجتمع المصرى وتطوير العقلية المصرية — كمرحلة إلى تطوير العقلية العربية — فشجعوا على الإشادة بالقومية العربية كديانة وعقيدة ، وجعلوا الأدباء والكتّاب يتغنون بها كالهدف الاسمى ، ويتغنون بأمجاد العهد الفرعونى ، والدعوة إلى إحيائها ، والفرعونية كقومية وحضارة وتراث ، وهتف الهاتفون : « نحن أبناء العرب والفراعنة » . ولم تعد كلمة « فرعون » تثير فى النفوس الكراهية والاحتقار ، ومعانى اللعنة والعار ، التى ألحقها به القرآن ، وآمن بها المؤمنون فى كل مكان وزمان ، وأصبح العرب والعروبة تشارك الله فى العزة والكرامة ، فيقول القائلون : « العزة لله وللعرب » ، ويرحبون بكل من يغلو فى ذلك ويبالغ ، ولو وصل إلى درجة الكفر وخرج من الإسلام ، ويشجعون على ذلك بالجوائز والصلات وأنواع التحبيذ وأساليب التحسين ، وأرخوا العنان للكتّاب والصحفيين يسترسلون فى ذلك ما شاؤوا ، وسمحوا للصحف أن تستهزىء بالدين

---

(١) أيضا ، الباب السابع .

وشعائره ومقدساته ، وتنتهك الحرمات ، وتنتشر فى المجتمع الخلاعة والاستهتار والميوعة ، ولم يزدها التأميم إلا خبالا وإسرافاً فى نشر الصور العارية الخليعة ، والروايات الماجنة والقصص الغرامية ، وأخبار الحوادث المثيرة للغريزة الجنسية والإجرام ، حتى يتطور المجتمع وتتطور العقلية ، وتأخذ لونها المادى ، وطابعها الاشتراكى .

واتخذوا لتطوير المجتمع خطوات إيجابية أخرى ، من تطوير الأزهر ، وإلغاء المحاكم الشرعية ، والقضاء الشرعى ، والوقف الشرعى ، ومن التعليم المختلط ، والعناية الزائدة بالبرامج الثقافية ، والرقص والغناء .

تأثير الثورة المصرية وقيادتها فى العالم العربى :

وأصبح الشباب العرب ، وكل ذى طموح ممن تمنى مجد العرب ، وتمنى لهم كياناً ودولة قوية موحدة تقوم فى الشرق الأوسط يتخذ دعاة القومية العربية مثلا أعلى ، ويدين بحبهم ويعتبر هذه الحركة انتفاضة الروح العربية ، تعيد إلى العرب كرامتهم ومجدهم الغابر وسيادتهم المسلوبة ، ولا غرابة فى ذلك ، ولا ما يستحق اللوم والعذل ، فالإنسان مفطور على حب المجد والغلبة والقوة ، وللشباب العرب كل حق فى أن ينشدوا المجد ، ويريدوا القوة ، ويعضوا على الوحدة بالنواجذ ، ولكن — مع الأسف الشديد — قد اقترنت بهذا الاتجاه والتفكير فى العهد الأخير معان وحوادث وتصرفات ، وتوجيهات تضعف قيمة الإسلام وتقطع رابطة هؤلاء العرب وقادتهم عن إخوانهم فى العالم الإسلامى ، وتنشىء فيهم المبالغة فى تقديس القومية العربية ، والتعصب لها ، والإيمان بها كفكرة كاملة وديانة لها مفهومها العقائدى ، وقد بدأ الإلحاد ينتشر بسرعة غريبة فى الشباب المثقف فى العواصم العربية ، وتبدر من المتحمسين منهم كلمات يخاف منها على صاحبها الكفر والمروق من الدين ، وأصبحوا لا ينظرون إلى الرسول الأعظم ﷺ كمنقذ العرب ، ومصدر الحياة الجديدة والكرامة والشرف والخلود

لهذا الشعب العظيم ، ويرجعون إلى الماضى السحيق ، ويحيون أمجاده وحضارته ، ويغضبون للجاهلية إذا ذُمَّت وتأخذهم حمية الجاهلية .

طليعة ردة فكرية :

إنه نذير شر خطير ، وطليعة ردة فكرية وثقافية ودينية لا يتداركها ولا يجبر كسرها أعظم مجد ، وأقوى دولة ، وأكبر نهضة ، وأهول قوة ، إنها خسارة ليست فوقها خسارة ، إنها طريق إلى الخزى والعار ، والتشتت والفرقة ، والهزيمة والإخفاق بعد الإخفاق ، والخيبة إثر الخيبة فى الدنيا ، ولعذاب الآخرة أخزى لو كانوا يعلمون ، ويصدق عليهم قوله تعالى : « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا * الذين ضلّ سعيهم فى الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يُحسنون صنعاً * أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه ، فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً »[١] .

حركة « التشكيك » الشامل والبلبلة الفكرية وآثارها فى الحياة :

لقد قام كتّاب مصر وأدباؤها منذ زمن بعيد[٢] — ومن بينهم عدد من الكتّاب الذين تربوا فى المدارس المسيحية — بحركة تشكيك شامل للعقائد الدينية ، والمقررات التاريخية ، والشخصيات الإسلامية ، والقيم الخلقية ، والأسس الاجتماعية ، والآداب العامة عن طريق بحوثهم وكتاباتهم ، تتنوع فيها الأساليب وتختلف فى ذلك الدوافع والأغراض والعوامل والمؤثرات ، فقد يكون سائقهم أحياناً التطرف وتقليد المتطرفين فى الغرب ، وقد يكون دافعهم حبّ الشهرة ، وتصفيق بعض الطبقات المثقفة والشباب الجامعى ، وقد يكون رائدهم نفاق سلعتهم ورواج بضاعتهم فى السوق ، والربح المادى ،

(١) الكهف ١٠٢ — ١٠٥ .

(٢) منذ عهد رفاعة بك الطهطاوى ، وقاسم أمين ، وأحمد لطفى السيد ، إلى عهد طه حسين ، ومحمد حسين هيكل إلى آخرين .

وقد يكون الحافز لهم التسرع فى نشر ما يسنح لهم من آراء ، وما يجول فى صدورهم من خواطر ، أما الكتّاب المسيحيون فلا يخلو أكثرهم من بُعد النظر ودقّة القصد ، وإثارة الشبهات ، وإضعاف تأثير الإسلام فى الشعب العربى المسلم ، وساعد على ذلك حركة النشر السريعة القوية فى مصر ، ووجود عدد كبير من دور النشر والطباعة « العملاقة » التى يملك أكثرها المسيحيون والمارونيون بصفة خاصة ، ونهامة قراء العالم العربى لمطالعة كل ما يصدر عن مصر من غث وسمين .

وهكذا تدفق سيل جارف من المؤلفات والمطبوعات من مصر ، أكثرها فى أسلوب عصرى جذاب ، وفى ثوب قشيب من الطباعة والإخراج ، وخضع له النشء الجديد وهام به ، وردّد صداه ، وهكذا انتشرت فى مصر — وعن طريقها فى كثير من الأقطار العربية — بلبلة فكرية هائلة ، واضطربت الأسس التى يقوم عليها المجتمع المؤمن الواعى القوى ، المعتز بعقيدته وشخصيته وتاريخه ، ويستمد منها قوة المقاومة والثبات فى المعركة ، والصبر على المكاره ، والغيرة على الدين والعرض ، والكرامة والشرف ، وساد الشك والاضطراب ، والجبن والوهن[1] وحب الدعة والإخلاد إلى الراحة ، وضعفت الأمة العربية بفعل هذا « التشكيك » الشامل ، وبتأثير هذا الأدب الرخيص ، الذى يعتمد على إثارة الغريزة ، وتسلية النفس — فى القوة المعنوية التى تلجأ إليها الشعوب والأمم فى المعارك الحاسمة ، وفى الساعات الدقيقة العصيبة ، ولا شك أن التشكيك والبلبلة الفكرية كانا من أعظم أسباب انهيار كثير من المجتمعات القديمة ، واندثار المدنيات الزاهرة ، وقد كان هذا الوضع الشاذ الذى ابتلى به العالم العربى ، ولعبت فيه الصحافة العربية ، وحركة النشر والتأليف والترجمة ، والتمثيل والرواية والتلفزيون والإذاعة دوراً فعالا ، من أعظم أسباب الكارثة الأخيرة التى حدثت فى ٥ حزيران

(١) فسر فى حديث صحيح مشهور بحب الدنيا وكراهية الموت (رواه أبو داوود) .

١٩٦٧ م ، وما أعقبه من أيام ، والأوضاع الشاذة التي لا تزال تسود على العالم العربي .

وبالعكس من ذلك أوجدت حركة « الإخوان المسلمون » موجة اعتقاد راسخ ، وثقة بهذا الدين وصلاحيته ومستقبله ، واستقامة خلقية ، وإيثارا للجد والعزيمة ، بعثت في أصحابها روح الاستماتة في سبيل المبدأ والعقيدة ، والاستهانة بالحياة في سبيل الشرف والكرامة ، وروح البطولة والمغامرة . تجلت في حرب فلسطين عام ١٩٤٨ ، فلما حرم العالم العربي قيادة هذه الحركة ونفوذها — مهما كانت أسبابه — وأن تلعب دورها في حرب ١٩٦٧ م ، ولم تخلفها جماعة أو قيادة تنادي باسم الإسلام ، وتعتمد على روح الإيمان ، والبطولة الإسلامية ، وعجزت القومية العربية ، والاشتراكية العلمية ، أو الشيوعية الماركسية ، أن تملأ هذا الفراغ ، وتثير الحماس الديني في نفوس الشعوب العربية المسلمة ، وأن تمنح العالم العربي المفكك الوحدة والانسجام ، وروح المغامرة والاقتحام ، وقعت النكبة العظيمة ، التي انتكس لها رأس كل عربي ومسلم في الشرق والغرب ، والتصق بالعرب كلهم العار الذي لا يغسله إلا انتصار أعظم من هذا الاندحار ، وكرة تتغلب على هذه القوة وتنسيها .

صفقة خاسرة :

كان لمصر — التي قادت العالم العربي في مجال الفكر والأدب ، وفي مجال الدين أيضا إلى حد كبير — مبرر في أن تسوق هذه البلاد ، وإلى علمانية كاملة ، وقومية متطرفة ، واشتراكية مكشوفة عارية ، إذا تحقق لها ، أو تحقق لزعيمها جمال عبد الناصر في عبارة أصح مثل ذلك النجاح والانتصار الذي تحقق لكمال أتاترك في انقاذ كرامة تركيا في أشد الساعات العصيبة ، والمواقف الحرجة الدقيقة ، فقد تعتبر ذلك ثمنا دفعته القيادة المصرية في هذه الآونة لتضحيات أبنائها وخيرة شبابها ، فقد تجردت مصر من نخبة ممتازة وشباب أكفاء أذكياء (كان باستطاعتهم أن يلعبوا دورا هاما في المجالات العلمية والدينية والسياسية) وهبطت إلى مستوى أخفض بكثير من ذلك المستوى

الذى عرفت به وامتازت فيه، مستوى الأخوية الدينية ، والعاطفة الاسلامية، بل تخلت عنه بتاتا ، إنها مرت بعقبات كئودة فى المجال الاقتصادى ، وحرمت حرية الفكر والصحافة التى كانت تنعم بها فى زمن مضى، وضعفت روابطها بالبلاد الاسلامية ، وبجاراتها العربية، وساءت سمعتها الدينية فى العالم الاسلامى، وسمعتها القيادية فى العالم العربى .

ان هذه القيادة قامت بدعاية كبيرة عقب الانتصار فى السويس (١٩٥٦ م) وأوهمت العالم بطلاقة وذلاقة لا يضارعها فيها بلد شرقى ، أن مصر هى الكفيلة وحدها بانقاذ العالم العربى كله ،وانها تستطيع أن تصارع وتقارع الدول الغربية فضلا عن دولة اسرائيل الصغيرة الحقيرة ، حتى انها أغلقت مضائق تيران وخليج العقبة ، وأصبحت بفضل هذه الدعايات والتصرفات محط أنظار العالم لحين من الوقت ، ولكن دهش العالم لما سمع أن القوات الاسرائيلية هجمت على الجمهورية العربية المتحدة، وأن قوات الجمهورية العربية المتحدة بدأت تتقهقر ، وقضى على القوة الجوية المصرية فى ساعات معدودات ، وقبلت الجمهورية العربية المتحدة التى كانت تقود هذه المعركة وقف اطلاق النار بلاقيد ولا شرط فى ظرف أربعة أيام أو خمسة ، هكذا لم تحتل اسرائيل شرم الشيخ وغزة وحدها بل انها احتلت جزيرة سيناء ، وضفة السويس الشرقية كلها ، وأصبحت مواقع مصر تحت رحمة المدافع الاسرائيلية ، وهنالك شعر المنصفون والواقعيون بأن مصر ما كسبت شيئا من اهمالها لقوة الايمان وحمية الاسلام ،التى كانت أكبر منبع ومصدر للقوة الحقيقية ، ووجد الناس أن القومية العربية والاشتراكية لم تكونا إلا قربة منفوخة مستها ابرة ، فأفرغت كل ما فى جوفها من الهواء ، وعلمت الدنيا كلها انها كانت مسرحية قامت بها القيادة المصرية اعتمادا على طاقة أجنبية (روسيا السوفيتية) واعتمادا على أوضاع السياسة العالمية ، فخانتاها وما أغنت هذه الحيلة عنها شيئاً .

وكانت نتيجة ذلك أن العالم العربى كله أصيب بيأس مرير وشعور بالمهانة ، وأصيب

المسلمون كلهم بعد ضياع القدس بقلق روحي ونفسي ، وأصيبت جارات مصر التي كانت بجوارها في المعركة بعجز وانكسار ، لانجد لها مثيلا إلا في حادث التتار وسقوط بغداد ، وقد تحقق من ذلك وتبين كالشمس في رابعة النهار أن مصير العرب مرتبط بالإسلام ، وأن كل محاولة وحركة سياسية تقوم على الجحود بالإسلام ، والدعوة إلى المادية السافرة سيكون مآلها — في الأخير — الاخفاق ، وذلك هو ما أشار إليه ابن خلدون بقوله :

« إن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة » .

سوريا والعراق :

إن هذه البلاد الإسلامية الخصبة الغنية التي تعيش فيها الأغلبية الساحقة من المسلمين[١] ، والتي تملك رصيداً عظيماً من التراث الإسلامي الحضاري المشرق ، والتي عاشت كمركز الخلافة الإسلامية برهة طويلة من الزمن مرّت بأدوار سياسية مختلفة ، وثورات عسكرية مرتجلة متلاحقة منذ تحررها من نير الاستعمار الفرنسي والبريطاني ، إن هذين البلدين العربيين المسلمين أصبحا تربة صالحة لنزعات الغرب العقلية والخلقية والاجتماعية ، ولاتزال الطبقة المثقفة ، والزعماء السياسيون والحكام يزدادون تحمساً للقومية العربية ، والعلمانية والتجدد والتغريب ، ورغم أن الجماهير فيها لا تزال على إسلاميتها وحبها للدين ووفائها له ، وكثير من التقاليد الاجتماعية القديمة باقية ، ويوجد فيهما عدد وجيه من العلماء المتضلعين قلما يوجد لهم نظير في البلاد الإسلامية ، إلا أن سيطرة الدين في المجتمع لاتزال تضعف وتنهار ، واحترام العلماء ومكانتهم في المجتمع مهددة بالزوال ، وحرية المرأة وتبرجها ينتشران بسرعة ، والمهرجانات الثقافية واختلاط الجنسين في تقدم وازدياد ، والتعليم المختلط نال رواجاً عاماً في الشعب ، وظلت العناصر

---

(١) نسبة المسلمين في سوريا ٩٠ ٪ وفي العراق ٩٣ ٪ .

اللادينية تستولى على أزمة البلاد وتتحكم في رقاب الشعب . أضف إلى ذلك وجود العناصر والقوميات التي لم تتأثر بتعاليم الإسلام في قليل ولا كثير ، ولم تزل تدين بالعقائد الجاهلية أحياناً ، والمتطرفة أحياناً أخرى التي لا تمتّ إلى الإسلام بصلة ، الأقليات التي لم تزل تحمل للجماهير المسلمة والسواد الأعظم الحقد الدفين ، والعداء الشديد ، وهي تمتاز بالروح العسكرية ، وتحترف الجندية ، وتسكبر جزءاً كبيراً من الجيش السورى كالعلوية والدروزية ، وقد أهملت الحكومات الإسلامية السابقة تعليمها ، ونشر الدين الصحيح فيها ، فكانت في كل زمان مشكلة كبيرة وخطراً على سلامة البلاد ووحدتها ، ومالأت القوات غير الإسلامية والأجنبية(١) ، وأحدثت بلبلة فكرية لا توجد إلا في بلاد عاشت تحت وطأة الفاتحين وكانت حقلا للمذاهب الهدامة والديانات المتطرفة ، واستولت أخيراً على مقاليد الحكم والمراكز الرئيسية الحسّاسة في البلد .

ومن الدليل الساطع على نفوذ الفكرة القومية واللادينية ومدى تغلغلها في المجتمع أن حزب البعث العربي الاشتراكي استطاع أن يسيطر على العراق مدة ، واستطاع أن يبقى في الحكم في سوريا مدة أطول .

وشعار هذا الحزب وهتافه ونظرته إلى الأمة العربية والوطن العربي هو كما يلي : العرب أمة واحدة ذات رسالة خالدة ، تعتبر الأرض التي تسكنها وطنها العربي « الأرض التي تمتد ما بين جبال طوروس وجبال بشتكويه وخليج البصرة والبحر العربي وجبال الحبشة ، والصحراء الكبرى ، والمحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط(٢) » .

نقدم هنا مقتطفات من كتابات زعمائه ورجاله المسئولين ، تلقى الضوء على تفكير هذا الحزب ومبادئه :

---

(١) اقرأ تفاصيل ذلك في أحوال شيخ الاسلام ابن تيمية في « البداية والنهاية » لابن كثير وفي «ابن تيمية» للشيخ أبي زهرة ، وفي « سيرة ابن تيمية» المؤلف

(٢) الاحزاب السياسية في سوريا ص٤٤ .

١ — الأمة العربية وحدة ثقافية ، وجميع الفوارق القائمة[١] بين أبنائها عرضية زائفة تزول جميعها بيقظة الوجدان العربى .

٢ — الأمة العربية ذات رسالة خالدة تظهر بأشكال متجددة متكاملة فى مراحل التاريخ ، وترمى إلى تجديد القيم الإنسانية وحفز التقدم البشرى ، وتنمية الانسجام والتعاون بين الأمم .

٣ — « حزب (البعث العربى الاشتراكى) قومى يؤمن بأن القومية حقيقة حية خالدة ، وبأن الشعور القومى الواعى الذى يربط الفرد بأمته ربطاً وثيقاً هو شعور مقدس ، حافل بالقوى الخالقة ، حافز على التضحية ، باعث على الشعور بالمسئولية ، عامل على توجيه إنسانية الفرد توجيهاً عملياً مجدياً » .

٤ — « حزب (البعث العربى الاشتراكى) ، اشتراكى يؤمن بأن الاشتراكية ضرورة منبعثة من صميم القومية العربية ، لأنها النظام الأمثل الذى يسمح للشعب العربى بتحقيق إمكانياته ، وتفتح عبقريته على أكمل وجه فيضمن الأمة نمواً مطرداً فى إنتاجها المعنوى والمادى وتآخياً وثيقاً بين أفرادها » .

٥ — الرابطة القومية ، هى الرابطة الوحيدة القائمة فى الدولة العربية التى تكفل الانسجام بين المواطنين وانصهارهم فى بوتقة واحدة ، وتكافح سائر العصبيات المذهبية والطائفية والعرقية والإقليمية .

٦ — يوضع بملء الحرية تشريع موحد للدولة العربية ينسجم مع روح العصر الحاضر ، وعلى ضوء تجارب الأمة العربية فى ماضيها[٢] » .

---

(١) الفوارق الدينية أيضا .

(٢) الاحزاب السياسية فى سوريا .

إن مؤسس هذا الحزب ورأسه المفكر ، هو الأستاذ ميشيل عفلق (المسيحى) ، وقد صرح بأفكاره وآرائه فى كتابه : « فى سبيل البعث » .

نقتبس منه ما يلى :

« ... من الطبيعى أن يستطيع أى رجل مهما ضاقت قدرته أن يكون مصغراً ضئيلا لمحمد ، مادام ينتسب إلى الأمة التى حشدت كل قواها فأنجبت محمداً ﷺ ، أو بالأحرى مادام هذا الرجل فرداً من أفراد الأمة التى حشد محمد كل قواه فأنجبها فى وقت مضى ، تلخصت فى رجل واحد كل حياة أمته ، واليوم يجب أن يصبح كل حياة هذه الأمة فى نهضتها الجديدة تفصيلا لحياة رجلها العظيم ، كان محمد كل العرب ، فليكن العرب اليوم محمداً » .

« ... إن تأجيل ظفر الإسلام طوال تلك السنين كان بقصد أن يصل العرب إلى الحقيقة بجهدهم الخاص ، وبنتيجة اختبارهم لأنفسهم وللعالم ، وبعد مشاق وآلام ، ويأس وأمل ، وفشل وظفر ، أى أن يخرج الإيمان وينبعث من أعماق نفوسهم ، فيكون الإيمان الحقيقى الممتزج مع التجربة ، المتصل بصميم الحياة ، فالاسلام إذاً كان حركة عربية ، وكان معناه تجدد العروبة وتكاملها » .

« ... الاسلام خير مفصح عن نزوع الأمة العربية إلى الخلود والشمول ، فهو إذاً فى واقعه عربى ، وفى مراميه المثالية إنسانى ، فرسالة الاسلام إنما هى خلق إنسانية عربية » .

« ... إذاً فالمعنى الذى يفصح عنه الاسلام فى هذه الحقبة التاريخية الخطيرة ، وفى هذه المرحلة الحاسمة بين مراحل التطور ، هو أن توجه كل الجهود إلى تقوية العرب وإنهاضهم ، وأن تحصر هذه الجهود فى نطاق القومية العربية » .

« ... الفكرة القومية المجردة فى الغرب منطقية ، إذ تقرر انفصال القومية عن الدين ، لأن الدين دخل على أوروبا من الخارج ، فهو أجنبي عن طبيعتها وتاريخها ، وهو خلاصة من العقيدة الأخروية والأخلاق ، لم ينزل بلغاتهم القومية ، ولا أفصح عن حاجات بيئتهم ، ولا امتزج بتاريخهم ، فى حين أن الإسلام بالنسبة إلى العرب ليس عقيدة أخروية فحسب ، ولا هو أخلاق مجردة ، بل هو أجلى مفصح عن شعورهم الكونى ونظرتهم إلى الحياة ، وأقوى تعبير عن وحدة شخصيتهم التى يندمج فيها اللفظ بالشعور والفكر ، والتأمل بالعمل ، والنفس بالقدر[١] » .

اخفاق حزب البعث ؛ وشقاء الشعب السورى :

إن هذا النمط من التفكير ، أو هذه الفلسفة للحياة تغلغلت فى عامة العسكريين والجامعيين فى سوريا ، وأقبلت عليها — بوجه خاص — تلك الطوائف التى كانت تنتمى إلى عقائد وديانات مختلفة وكانت تسيطر على الجيش ، بل تهالكت عليها وتبنتها ، ولا يزال ذلك الحزب وأنصاره يتملكون زمام الموقف ، ومفتاح الحكم فى هذه البلاد ، واستولت السياسة العلمانية والقومية العربية والاتجاهات الاشتراكية على أوضاع البلد استيلاء كاملا ، واستسلم أبناء الإسلام ، وحملة الفكر الإسلامى للواقع ، وضاق مجال النشاط على العاملين للإسلام ، وعلى الدعاة للفكرة الإسلامية ، فغادر عدد كبير منهم هذا البلد ، والتجأوا إلى البلاد العربية الأخرى ، أو العواصم الأوروبية ، وحرمت سوريا والعراق — التى كانت تعتبر حصنا وملاذاً للعلوم الدينية والفكر الإسلامى بعد مصر — أجل علمائها وكتابها وأدبائها ، وأقدر قادتها العسكريين ، وأعقل زعمائها السياسيين ، وأعلم علماء الدين ، وتجردت هذه البلاد من الأكفاء كما تتجرد الشجرة عن أوراقها فى فصل الخريف ، واستولت على البلاد عصابة من شباب لم يكن عندها نضج فكرى ولا رصيد عملى ، لا رجاحة عقل ولا حصافة رأى .

---

(١) ميشيل عفلق فى كتابه : «فى سبيل البعث» تحت عنوان «ذكرى الرسول العربى» .

ومن ناحية أخرى أصيبت هذه البلاد التي كانت غنية في ثرواتها الطبيعية والزراعية بأزمة اقتصادية عامة ، وانتقل جزء كبير من موارد البلد ودخل الشعب إلى الخارج ، خوفا من تتابع الثورات اليوميـة ، وطغى سكر القومية والتفكير المـادى المجرد ، والاشتراكية على العقول والألباب حتى بدأ عدد كبير من كتاب الجيل الجديد ، وبعض كبار المسئولين والضباط يسخرون من القيم الدينية والأقدار الثابتة التي تؤمن بها سائر الأديان السماوية علنا وجهاراً ، نستطيع أن نرى صورة من هذا التفكير والاتجاه في مقال نشرته صحيفة « جيش الشعب » الرسمية ، بقلم ضابط كبير ، فقد جاء فيه :

« استنجدت أمة العرب بالإله ... فتشت عن القيم القديمة في الإسلام والمسيحية ، استعانت بالنظام الاقطاعي والرأسمالي . وبعض النظم المعروفة في العصور الوسطى ، كل ذلك لم يجد فتيلا . . مع كل هذا شمرت أمة العرب عن ساعديها ونظرت بعيدا .. بعيدا .. لترى طفلها الوليد ، يقترب منها شيئاً فشيئاً ، ... وهـذا الوليد ليس إلا الإنسان العربي الاشتراكي الجديد .

الإنسان المتمرد على جميع القيم المريضـة المزيلة في مجتمعه .. التي هي ليست إلا وليدة الاقطاع والرأسمال والاستعمار .. تلك القيم التي جعلت من الإنسان العربي إنسانا متخاذلا متواكلا ، إنسانا جبريا مستسلما للقدر ، إنسانا لا يعرف إلا أن يقول « لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » .

أما القيم الجـديدة التي ستخلق الإنسان العربي الجـديد ، فهي قيم نابعة من صلب الانسان المتمرد العنيد ، نابعة من قلب الانسان الجائع ، نابعة من الانسان الاشتراكي الثوري الجديد ، ... الذي لا يؤمن إلا بالانسان وحده .

والطريق الوحيدة لتشييد حضارة العرب وبناء المجتمع العربي ، هي خلق الانسان الاشتراكي العربي الجديد ، الذي يؤمن أن الله والأديان والاقطـاع ، والرأسمال

والاستهتار ، والمتخمين ، وكل القيم التى سادت المجتمع السابق ليست إلا دمى محنطة فى متاحف التاريخ .

ونحن إذ نشترط فى إنساننا الجديد رفضه للقيم السابقة علينا أن نضع قيما جديدة محددة ، ليست هناك سوى قيمة واحدة ، وهى الإيمان المطلق بالإنسان ، القدر الجديد ، الإنسان الذى لا يعتمد إلا على نفسه وعمله وما يقدمه للبشرية جمعاء ، لأنه يعلم نهايته الحتمية .. الموت .. وليس غير الموت ، لن يكون هناك نعيم أو جحيم ، بل سيصبح ذرة تدور مع دوران الأرض ، لذلك هو مضطر إلى أن يقدم كل ما يملك لأمته والإنسانية ، دونما مقابل (كزاوية صغيرة فى الجنة مثلا) .

فى هذه النشوة القومية والاشتراكية والتحمس لها ، والتفانى فى سبيلهما وقعت الحرب بين اسرائيل والعرب ، واضطرت سوريا أن تقابل العدو وتقاتله فى أول الخط ، ذلك العدو الذى سخرت منه زمنا وتحدته طويلا .. بالمجد العربى والقومية العربية للقضاء عليه ، ولكنها لم تستطع أن تدافع عن حدودها وثغورها ، فضلا أن تنتصر على العدو ، بل كان الأمر بالعكس ، فقد جاس العدد خلال ديارها ولم تستطع أن ترده على أعقابه فظلت منهوكة الأعصاب خائرة القوى ، تستنجد بشقيقاتها الاشتراكية ، وتستصرخ ضمائر العالم ، وانحطت انحطاطا ظاهرا فى المجال الاقتصادى والسياسى والعسكرى ، ومن العسير التنبؤ بخروجها من هذا المأزق والخطر المحدق ، وتغلبها على مشكلاتها وأزماتها الراهنة .

وقد اتفق للمؤلف أن يزور سوريا ، ويقضى فى دمشق بعض الوقت فى رجب ١٣٩٣ هـ (آب ١٩٧٣ م) ، وهنا بعض ارتساماته التى سجلها فى رحلته « من نهر كابل إلى نهر اليرموك » تؤيد ما تخوفه المؤلف فى السطور الماضية ، من عدم استفادة الشعب من النظام الشيوعى ، يقول :

« لقد كان هتاف هؤلاء القادة : الرغيف ، ولقمة عيش الجائع ، وتهيئة « الحاجيات » للشعب ، والكفالة بالعيش لرجل الشارع ، وكان جهادهم فى سبيل ذلك ، فإذا لم يتحقق ذلك ، وتحقق كل شىء — على فرض أنه تحقق — فمعنى ذلك أن الاشتراكية والقومية والشيوعية نظم وفلسفات « تعبدية »[١] تقوم على مجرد عقيدة وإيمان وعاطفة ، لا توزن فى ميزان العقل والتطبيق والنتائج ، أو مبادىء سلبية لا يقصد منها إلا هدم كيان أو تخلص من النظام » .

وزار بغداد فى هذه الرحلة فعلق على هذه الزيارة فى السطور الآتية :

« كنت أشعر وأنا أتجول فى شوارع بغداد ، وأطالع وجوه الناس ، وأسمع حديثهم ، وفى ضوء تجربتى الخاصة فى هذه الزيارة الأخيرة أن البلاد كانت أكثر رخاء وسعادة ، والأمة أقوى ثقة وأكثر حرية ، قبل الثورة التى قام بها عبد الكريم قاسم ، منها الآن[٢] » ، إلى أن يقول : « فما الذى استفادته هذه البلاد ياترى بعد الثورات التى قامت لإعادة الأمور إلى نصابها ، والحقوق إلى أصحابها وتخليص الشعب من الظلم والحيف ، والاستبداد ، وخنق الحريات ، وسلبها[٣] ؟ » .

ايران :

وقلّدت إيران تركيا فى عملية التطوير الفكرى والحضارى ، وما يسميه زعماء التجدد « بالإصلاحات » وقد بدأ هذه الرحلة الشاقة ملك إيران السابق رضا شاه البهلوى (١٩٢٥ — ١٩٤١ م) أيام حكمه ، واتخذ لذلك خطوات إيجابية حاسمة . كان تأثيرها فى المجتمع الإيرانى عميقاً وبعيد المدى ، يستعرض الأستاذ (George Lenczowski)

---

(١) ما يقوم على مجرد أمر (من مصدر غير بشرى) من غير أن يدرك بالعقول .
(٢) زار المؤلف بغداد الزيارة الاولى فى سنة ١٩٥٦ م .
(٣) «من نهر كابل إلى نهر اليرموك» ، ص١٦٦ .

للعلم فى جامعة كليفورنيا فى كتابه (The Middle East in World Affairs) «الشرق الأوسط فى القضايا العالمية » تاريخ هذا التطور فى اختصار فيقول :

« لم تكن مشاريع رضا شاه الاصلاحية محدودة فى نطاق تقدم إيران صناعياً ، إنه حاول أن يجعل إيران مطابقة للعصر الجديد فى مجالات التعليم والاجتماع ، وبلدا عصرية متحضرة . فى عام ١٩٢٧ م قرر تنفيذ القانون الفرنسى ، وكان تحدياً لصلاحيـة المحاكم الأهلية وجدارتها فى الشئون المدنية والاجتماعية ، وبدأت النزعة العلمانية فى كل ذلك واضحة جلية ، بيد أنها لم تظهر علنا وجهارا كما كانت فى تركيا ، إنه شعر بأن نفوذ علماء الشيعة الرجعيين المتزمتين حجر عثرة فى تغريب البـلاد ، فخطا لذلك خطوات وئيدة ، إنه تلقى درسا من إخفاق تلك الثورة التى قامت للدفاع عن الديمقراطية فى عام ١٩٢٤ م ، ومن إخفاق الأمير أمان الله خان ملك أفغانستان البلد المجاور فى إصلاحاته ، وهـو أن الشىء الذى أمكن فى تركيا ذلك البلد شبه الغربى ، لا يمكن فى إيران فى هذا الوقت ، ثم إن الدستور الإيرانى ينص بصراحة على أن دين الدولة الرسمى هو الإسلام ، وإن الطائفة الجعفرية (الشيعة) هى الطائفة الرئيسية التى يعتمد عليها ، ويجب على ملك إيران أن يكون من أتباع هذه العقيدة وداعيا إليها ، كما أنه ينص على أن مجلس إيران «البرلمان الإيرانى » ليس له الخيار فى وضع قانون ينافى مبادىء الإسلام ، وكان من اللازم أن يساهم فى وضع هذا القانون وتنفيذه خبراء الشئون الدينية وأهل الاختصاص من العلماء أيضاً ، وهنالك يكون هذا القانون شرعياً ولازماً ، وكان الملك يشعر بأنه لا يستطيع أن يعارض هذه المواد الدستورية الصريحة ، فاتخـذ لذلك تدابير سياسية بدلا من أن يهاجمها علنا ، إنه رأى الإغضاء عن رجال الدين وتجاهلهم أحسن وأقوم من معاكستهم أو معارضتهم .

كانت عملية إنشاء نظام تعليم عصرى وإثارة الحرية واليقظة فى المرأة تتوقف على

أن يتقلص ظل علماء الدين ، ويقل نفوذهم وتأثيرهم فى الشعب ، وقد قطعت البلاد شوطاً كبيراً فى هذا المجال خلال الحرب ، وأصبحت مادة التعليم الدينى فى المدارس الابتدائية والثانويه غير إجبارية من عام ١٩٣٠ م . عنيت برامج التعليم بإثارة الوطنية والشعور المدنى عناية خاصة ، ونالت الرياضة والألعاب تشجيعاً كبيراً ، وأنشئت عدة ملاعب جديدة ضخمة فى المدن الكبيرة ، وأصبح الالتحاق بالكشافة للبنين والبنات إجبارياً للشباب ، وذلك لبث روح القومية فى الجيل الجديد .

هذه النشاطات أبعدت شباب البلاد عن ممارسة الشئون الدينية والتفكير على الأسلوب الدينى ، وفى عام ١٩٢٨ م ضرب النفوذ الدينى ضربة قاصمة بمنع الزى الشرقى ، وحل محل الطربوش والعمامة القبعة البهلوية ، ولم تلبث أن جاءت مكانها القبعة الأوروبية ، واتخذ الملك أساليب مختلفة لإثارة الوعى والحرية فى المرأة ، وقيد البرلمان حرية الطلاق للرجل نزولا إلى رغبته وتوجيهه ، وسمح للمرأة بالتوظف فى الدوائر الحكومية والمصالح الرسمية ، ولو أنها لم يؤذن لها بالدخول فى التمثيل السياسى ، وأصدر التعليمات للضباط العسكريين والمدنيين لتشجيع الزى الغربى للنساء ، وفى عام ١٩٢٥ م اشتركت ملكة إيران نفسها وأميرات العائلة الملكية فى مناسبة عامة فى الزى الغربى ، ومنذ ذلك الحين ، منع الحجاب ، ووقعت اضطرابات ، ولكن تدابير الحكومة الصارمة تغلبت عليها ، واضطر الجميع أخيراً إلى الخضوع أمام القانون ، وبدأت عملية إصلاح اللغة ، وكان هدفها تحرير الفارسية من نفوذ اللغة العربية ، وكان ذلك أهم موضوع للمجمع الأدبى (Academy of Literature) الذى أنشىء عام ١٩٣٥ م ، ولو أن الحروف لم تتغير فيها ، كما حدث فى تركيا ، وفى مارس ١٩٣٥ م أصبح اسم هذه الدولة (إيران) بقرار رسمى بدلا من (فارس) ، أو (برشيا) الذى أطلقه اليونان [١] » [٢] .

---

(١) والعرب أيضا .

(٢) The Middle East in World Affairs p. 180-182

ورأى الملك محمد رضا بهلوى ملك إيران الحالى أنه قد جاء أوان الإصلاحات والتطورات الأخرى فى البلاد ، فأضفى على بعض القوانين والإصلاحات صفة دستورية، وقرر إلغاء الإقطاع وملكة الأراضى ، وقرر حق التصويت والترشيح للمرأة كدستور وقانون رسمى ، وقام علماء إيران بالاحتجاج والمظاهرات ضد هذه الإجراءات ، ووقعت اضطرابات واشتباكات فى البلاد ، ولكنها لم تحدث أى تغيير فى موقف الحكومة .

جانب مشرق :

ظلت إيران قروناً كثيرة مجالا واسعاً للعلوم الإسلامية وآدابها ، ومركزا كبيراً للفكر الإسلامى ، إنها بفضل شعرائها وأدبائها وفلاسفتها ومفكريها ومشائخها الذين لا يأتى عليهم الحصر، تستحق بجدارة أن تسمى بيونان الشرق الإسلامى ، وبالرغم مما يجد هناك من بعض الأفكار الدينية الجامدة الغالبة التى تعتبر نتيجة طبيعية لتاريخ إيران القديم، توجد فيها حركات متعددة للبعث الإسلامى ، والتضامن الإسلامى ، كما ينال الأدب الإسلامى القوى إعجاباً كبيراً وقبولا متزايدا فى الأوساط العلمية هناك .

اندونيسيا :

إن موقف الدول الإسلامية المستقلة المتحررة إزاء التجديد والتغريب ، ونزعتها العامة القوية لضرورة علمانية الدول ، واعتبار القانون الإسلامى غير صالح للتطبيق فى هذا الحياة ، والانسياق مع الأفكار الغربية وأقدارها ، موقف لا يستثنى منه هذا البلد المسلم الذى يكون المسلمون فيه نسبة تسعين فى المائة من النفوس ، وبالرغم من ذلك الصراع العنيف الطويل الدامى الذى ظل عدة سنوات باسم حركة دار السلام ، وكاد أن يحتضر ويلفظ نفسه الأخير ، لا تزال الطبقة الحاكمة فيها بقيادة الرئيس الدكتور أحمد سوكارنو تسوقها إلى تقليد تركيا بتصميم دقيق وتخطيط سابق ، وقد علق الملق الأمريكى المشهور لويس فشر (Louis Fisher) فى كتابه :(The story of Indonesia)

وصور الأوضاع فيها بلباقة ، وعبر عن تفكير الطبقة الحاكمة وعقليتها تعبيراً صحيحاً :

« إن البلد المسلم الوحيد ، غير الشيوعى (Non - Communist) الذى مر بثورة حضارية عميقة هو تركيا ، التى ألغى فيها كال أتاتورك دين الدولة الرسمى (الإسلام) وقرر إلغاء المحاكم الشرعية والخلافة ، والحجاب ، والحرم ، واستعمال الحروف العربية ، وأصبح الزى الغربى والحروف اللاتينية فى التعليم الإجبارى العام ، وحق المرأة فى الانتخاب ، وعطلة يوم الأحد والقومية من الأمور التى نص عليها الدستور ، أما إندونيسيا فلم تكن هناك حاجة إلى تغيير أو إصلاح من مثل هذه « الإصلاحات » فقد وصلت إندونيسيا إلى هذه الدرجة من التغريب من قبل ، جمهورية إندونيسيا علمانية ، ولو أن دستور ١٩٤٥ و ١٩٥٠ يعلنان أن أساس هذه الجمهورية هو « الإيمان بالله » ، ولكن الإسلام لا يشترط لأى موظف فى الحكومة ، ولا لأكبر ضابط أو رئيس جمهورية ، ولا يلزم عليه أن يقسم بالله أو بمحمد ﷺ فى ولائه[١] ، وكل إنسان حر فى اعتناق أى دين والتمسك به فى ضوء الدستور .

إن هذا البلد الذى يحمل طابعاً غير إسلامى ، وغير دينى أثار على نفسه عدداً ضخماً وجيهاً من سكانه ، فشنوا على حكومته حرب العصابات Guerilla war كانت أطول الحروب فى تاريخها ، وأنفقت عليها أموالاً طائلة ، وليستدل لتبرير العلمانية ، بأن كثيراً من الطوائف أمثال المسيحيين والهنادك يعيشون فيها ، ولكن الدليل الحقيقى الذى لا ينطق به اللسان إلا قليلا ، هو أنه لا يمكن لأى دولة عصرية أن يحكم عليها بمبادىء القرآن وتعاليمه التى أنزلت قبل ثلاثة عشر قرناً على محمد ﷺ ، ونقطة أخرى أنه إذا حل القرآن محل القانون يصبح علماء الدين المتزمتون لهم الحق وحدهم فى تفسيره والدفاع عنه ، وتتسم السياسة بطابع قديم يرجع إلى مئات السنين ، إن معظم الأحزاب السياسية ،

---

(١) الكاتب الأمريكى لا يعرف أن الحلف بنبينا صلى الله عليه وسلم غير جائز فى الإسلام .

والزعماء والقادة وأهل الفكر والرأى متنورون ، ومن دعاة العلمانية التى تدعو إليها عقلية العصر الحديث ، ويعتقدون أن الجهاز العلمانى أحرى وأجدر لدولة إسلامية ، وهكذا ترى أكثرهم يفكرون على الطراز الغربى وطابعه(١) .

رد فعل غامض :

وبفضل هذا الاتجاه السافر للتجديد والتغريب والعلمانية (Secularism) كانت إندونيسيا تتقدم بخطى واسعة نحو الشيوعية بقيادة الرئيس السابق سوكارنو ، وقد حاول العنصر الشيوعى فى الجهاز الإدارى والعسكرى ، أن يتغلب على الحكم والعسكر ، ويتولى زمامها ولكنه باء بالفشل ، وظهر رد فعل عنيف فى الشعب الإندونيسى المسلم ، وخاصة فى الطلبة ضد هذه المحاولة الشنيعة ، وأدى ذلك إلى إقصاء العنصر الشيوعى من الحكم والعسكر ، وإعفاء الرئيس سوكارنو من امتيازاته ومنصبه الذى كان يتقلده ، ولكن لا يمكن التنبؤ بما سيؤدى إليه رد فعل الشعب الإندونيسى هذا من النتائج الإيجابية أو السلبية ، وهل سيحدث تغيير فى الخط الذى كانت تخطو عليه إندونيسيا من التجديد والتغريب أم لا ؟ ، وإلى أى مدى تتمكن النظرة الإسلامية وحركات البعث الإسلامى من انتهاز هذه الفرصة النادرة ؟ .

الأقطار الإسلامية المتحررة حديثاً فى طريق « التغريب » :

وأخاف أن تكون هذه قصة القادة المتجددين الثوريين ، وقصة كثير من الأقطار الشرقية التى تحررت ونالت استقلالها فى مدة قريبة ، يظهر أن زعماءها ، وولاة الأمور

---

(٢) The Story of Indonesia-P. 260-261.

ثار الشعب الاندونيسى المسلم أخيراً على الاتجاه اللادينى والشيوعى الذى كان يقوده الرئيس سوكارنو ، وعدد كبير من ضباط الجيش فانتزع من الرئيس السلطة ، وأبقاه حاكما رمزيا ، وشكلت الحكومة تشكيلا جديداً ، وأقصى جزء كبير من العنصر الشيوعى ، أما سياسة الحكومة واتجاهها الفكرى ، فلا يزال فيها شىء كبير من الغموض ، والبلد يواجه اصطراعا عقائديا لا يعلم مصيره إلا الله .

فيها ، قد صمموا على تطبيق الفلسفة الفكرية الغربية — بشعبها الاقتصادية والسياسية والثقافية — وفلسفة القومية المادية فى بلدهم الإسلامى ، فهم فى حرب دائمة دامية مع الطبيعة الإسلامية العميقة الجذور الممتدة العروق ، وفى صراع مع الجهاز الاجتماعى والملى والخلقى ، الذى فيه الخير الكثير والقوة التى ترهب ويحسب لها الحساب ، ويمكن أن تنمى وتستغل لصالح الأمة والبلاد ، وفى صراع مع المعنويات التى نشأت ورسخت فى نفوس أفراد هذه الأمة وأجيالها ، بجهود جبارة ، ودماء زكية سخية ، وإخلاص ليس له نظير ، وعلى حساب الإيمان — بالله وبالرسول وبالغيب — الذى لا يصنع فى المصانع، ولا يولد بالخطب الرنانة ، ولا يخلقه إلا تأثير الرسل وشخصيتهم القوية ، وجهود الدعاة المخلصين من الطراز الأول ، والذى إذا فقد من الأمة لا يعود بسهولة ، ولا يملأ فراغه شعور قومى ، أو وهى سياسى ، أو تقدم فى المعرفة والثقافة ، والذى صنع المعجزات فى القديم ، وخليق بأن يصنعها فى كل وقت ، وعلى حساب العاطفة الدينية التى يرجع إليها الفضل فى الفتوح والانتصارات القومية والسياسية ، وتجلت قوتها فى معركة القناة، وتحرير الجزائر ، وتكوين دولة على أساس الإسلام والقومية الإسلامية فى شبه قارة الهند(١) لا يحلم بها عصر السياسة الوطنية والعلمانية .

وقد تبين — كالشمس فى رابعة النهار — زمن اصطدام البلدين فى شبه القارة الهندية فى ١٩٦٥ م ، أن لا ملجأ لشعب مسلم مهاجم ، يفوقه الشعب المهاجم أضعافاً مضاعفة فى العدة والعتاد ، وفى الغنى وسعة البلاد إلا الإيمان العميق ، والحمية الدينية والحماسة الإسلامية ، والحنين إلى الشهادة ، والاستهانة بالحياة والمادة ، واتضح له خذلان القوى الحليفة ، وفضل الجامعة الإسلامية الدينية التى أسسها الإسلام ، وظل زعماء الإسلام من عهد السيد أحمد الشهيد إلى عهد جمال الدين الافغانى ومحمد إقبال ، يشيدون بها ويدعون إليها ، فكأنهم يصيحون فى واد ، وينفخون فى رماد .

---

(١) وهى دولة باكستان .

فإذا بهذه الجامعة الإسلامية تهب من رقدتها ، وتنهض من كبوتها ، ويصبح هذا العالم الإسلامي الذى كان كبحر العروض ، بحراً ولا ماء ، واسماً من غير مسمى ، يصبح حقيقة ، ويقوم كثيرمن حلقاته بواجبها المقدس ، من الانتصار والدفاع ، والتجأ القادة إلى إثارة الشعور الديني الذى استهانوا بقيمته ، وتحريك العاطفة الإسلامية ، وإشعال الجمرة الإيمانية ، « وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه » ، فصادفوا فى الشعب رغبةوإجابة وتهيؤا لذلك ، وأعاد التاريخ نفسه ، واكتشفوا قيمة الإيمان وقيمة التربية الإسلامية ، وقلة غناء التجديدوالتغريب ، والتقليد الأوروبى ، فكان مبدأ انطلاق جديد ، وتحول ملموس فى التفكير والأدب والصحافة ، والإذاعة ، وعادت لغة الدين والإيمان ، ولغة الحديث والقرآن ، ونداء الضمير والعقيدة من جديد ، وسيطرت على جميع مجالات الحياة ، وخفت صوت التجدد المتهور ، والتقليد الغربى الأعمى ، والدعوة إلى الميوعة والاستهتار .

إنها مأساة أليمة ومهزلة تاريخية فى وقت واحد ، أنه إذا كانت هذه البلاد فى حاجة إلى التخلص من الاستعمار الأجنبي ، وكانت فى حاجة إلى تضحيات الشعب وجهاده وحماسته ، الشعب الذى لايعنيهشيء مثل مايعنيه رضا الله وثواب الآخرة وسيادة الإسلام، والذى لا يفهم لغة غير لغة الدين ، ولا يثير فيه الحماسة ولا يحرك ساكنه هتاف غير الهتاف الدينى ، يقوم الزعماء وأبطال جهاد الحرية فى هذه البلاد فيتكلمون بلغة الدين ويدعونه إلى المغامرة والمجازفة بالحياة ، وبذل النفس واقتحام الأخطار بالشعارات الدينية ولإعلاء كلمة الله ورفع راية الإسلام ، وينتصرون على العدو القاهر ويذللون كل عقبة بفضل قوة الإيمان التى لا يوجد لها نظير فى الأمة الإسلامية على أقل تقدير ، ويرغمون خصومهم الأقوياء وأعداءهم الجبابرة على الخضوع والاستسلام ، ولكن لا يجتازون هذه المرحلة العابرة ، ولا يأخذون زمام القيادة والسلطة ولا يملكون (على حد تعبيرهم) مصير الشعب وناصيته ، إلا ويسوقون بلادهم إلى التغريب والعلمانية Secularism ،

ويبدأون عملية إصلاح الدين وإحداث التغييرات فى قانون الأحوال الشخصية وصهر البلاد فى بوتقة الغرب ، ويتظاهرون فيه بسرعة عجيبة وحرص بالغ ، بجعل هؤلاء الذين قاموا بالتضحيات الكبيرة فى هذا السبيل ، يعتقدون لعلهم أخطأوا أو جنوا على أنفسهم وبلادهم بالكفاح الذى قاموا به لأجل تحرير البلاد ، ولعل استقلال البلاد ، قد عاد وبالا وشؤماً على الحياة الإسلامية والحرية الدينية .

فمن عام ١٩٢٤ م إلى عام ١٩٦٢ م ، ومن تركيا إلى الجزائر ، قصة واحدة ذات فصول وحلقات ، لا تستثنى منها دولة إسلامية ، ونرى أن الدول العربية — بنفسها — أيضاً تتقدم إلى هذا الهدف بنفس العزم والحماسة والقوة ، وتقتفى أثر تركيا التى كانت فى زمن من الأزمان ناقمة عليها ثائرة ضدها ، والتى لا تزال تتظاهر باستنكارها واستيائها لسياستها حتى الآن .

تونس :

إن تونس فى مقدمة البلاد العربية التى نالت الحرية والاستقلال فى عام ١٩٥٧ م ، وبدأ رئيسها الأول الحبيب بورقيبة بعملية التجدد وتنفيذ الإصلاحات الكمالية فى هذا البلد العربى المسلم المتحمس ، إن تصريحاته وأحاديثه التى يدلى بها بين حين وحين إلى الصحف تدل بصراحة ووضوح أنه يريد أن يسير بهذه البلاد إلى الطريق الذى سارت عليه تركيا من قبل ، وينشىء تونس الحديثة كما تملى عليه ثقافته الفرنسية ، ونقدم هنا رأى جريدة فرنسية معروفة بدقة التحرى كجريدة « لوموند » الباريسية تنفى وجود الاتجاه اللادينى فى الجمهورية التونسية ، ففى سلسلة تحقيقاتها عن تونس المستقلة على عتبة السنة الثالثة نجدها تنشر فى الفصل المعنون « بين العرب والاسلام » بتاريخ ٢٩ يناير ١٩٥٨ م .

« لقد وضع السيد الحبيب بورقيبة حداً لتعدد الزوجات[1] والطلاق الانفرادى

---

(١) كان ذلك فى عام ١٩٥٨ م ، ثم منع تعدد الزوجات بتاتا .

وللاستبداد الزوجى، وجعل قبول الزوجين معاً إجبارياً ، هذا التحرير العائلى يتضاعف بتحرير سياسى واجتماعى ، والنساء منذ الآن ناخبات ومنتخبات (١١ مستشارة بلدية انتخبن فى السنة الماضية) ويدخلن فى جميع الوظائف ، ويوجد من بينهن فعلا نحو مائة فى التعليم و ١٥٠٠ فى الإدارات و ٧ آلاف فى المشاريع المختلفة .

إن تونس فى هذا الميدان تظهر بمظهر الأمة المرشدة، لقد نهجت الطريق المفتوحة من طرف تركيا الكمالية ، فالتطور فى تونس ذو إحساس دقيق بصفة خاصة ، فالحجاب أخذ يقل خصوصاً عند الفتيات ، وظهور الأزواج فى الأزقة أصبح أكثر عدداً ، ويزداد يوماً عن آخر جلوس الرجال والنساء جنباً إلى جنب فى الاجتماعات السياسية ، وفى البوادى حيث المعارضة أقوى نجد التقدم أقل سرعة .

إن بورقيبة لم يحاول أن يفرض هذا التطور ، بل إنه يفضل أن تسقط هذه « الخرق الشنيعة» من ذات نفسها ، وهو يدافع عن نفسه أيضاً ضد اللادينية ، وبالأحرى أن يريد الانفصال عن الإسلام ، ولكنه يبذل جهده للتوفيق بين الحضارة العصرية الضرورية والتقاليد الدينية ، ويهتم بالتدليل على أن إصلاحاته إذا كانت لا تحترم دائماً النصوص الحرفية للقرآن فإنها لا تخون روحها ، وبهذا الاعتبار فإن الاتجاه التونسى أقرب لنظيره فى النظام المصرى منه للنظام الكمالى ، بل وعلى نفس المرونة ، فقد تجنب مهاجمة الجامع الكبير (الزيتونة) وجهاً لوجه ، ولكنه منذ سنتين يحدد بالتدريج دوره ومهامه ، ويفكر كما قيل لى ، فى تحويله إلى مجرد كلية لعلم اللاهوت فى إطار الجامعة التونسية .

هذه الاصلاحات المختارة كنماذج من بين غيرها تفصح عن نوايا جد مؤكدة لتحويل تونس إلى دولة عصرية ، وجميع الشباب التونسى يصادق فى هذه الناحية على عمل الرئيس ، بل إن أفراداً يجدونه شديد البطء شديد الخجل ، ولكن بورقيبة يفضل هو أيضاً احترام « المراحل » ، ومع ذلك فمن رأى بعضهم أن « التحضير » (اقتباس

الحضارة) لا يعني بالضرورة « التغرب » (التحول غربياً) ، ويقولون : لماذا نرتبط بهذه الشهرة مع الغرب ، ونعلن ذلك بهذا التكرار ؟! . وهكذا فإن اتجاهاً يتكون حالياً عند بعض المثقفين لفائدة نوع من الإصلاح والحياة والحياد على الطريقة المصرية [١]» .

وقد ذكر جوزف شاخت (Scho Cht) في مقالة نشرت له حديثاً تحت عنوان «قضايا الفقه الإسلامي الحديث» هذا الشوط الذي قطعته تونس في مجال التجدد والتغرب ، وذلك في صراحة ووضوح ، إنه يقول :

« . . وأخيراً قبلت تونس قانون ١٩٥٦ م ، وأثبتت أنها في مقدمة البلاد آمنت بتغيير الفقه الإسلامي ، فألغيت أولا الأوقاف العامة ، ووضعت أملاكها وميزانيتها تحت تصرف الحكومة ، وكان هذا القرار أهم بكثير من إلغاء الأوقاف في سوريا ومصر من وجهة النظر القانونية ، وألغيت المحاكم الشرعية اقتداء بالقانون المصري في السنة الماضية ، ونفذ قانون آخر للأحوال الشخصية بعنوان : « مجلة الأحوال الشخصية » (Tunisian Code of Personal Status) وقد زعمت وزارة العدلية بتونس أن هذا القانون نال إعجاب كبار رجال القانون الإسلامي ، ومع أن هذا القانون أبقى على بعض القضايا التي هي إسلامية في صميمها مثل المهر ، وتحريم النكاح على أساس الرضاع ، ومع أنها تتفق مع أحد المذهبين الفقهيين المعتمد عليهما في تونس ، إلا أن القول بأنه صورة القانون الإسلامي في المحاكم الشرعية قديماً مع بعض التغيير والتعديل استناداً إلى تأويل بعيد لا يصح ، وقد أفتى بعض كبار علماء هذه المحاكم من الطراز الأول ضد هذا القانون ، واستقبال أربعة منهم (ومنهم مفتي المذهب المالكي الأكبر ومفتي المذهب الحنفي الأكبر) من المحكمة العليا (Tribnual Superior) احتجاجاً ضد هذا الإجراء ، صحيح أن الجزء الذي يتعلق بقانون المواريث هو على حالته لم يغير فيه مطلقاً — ولعل

---

(١) المغرب المسلم ضد اللادينية : لادريس الكتاني ص ٩٥ — ٩٦ .

السبب فى ذلك أن هذا القانون كان صالحاً للأوضاع الاجتماعية فى تونس ومطالبها حتى الآن — أما أحكام النكاح والطلاق فإنها مسخت مسخاً شديداً ، حتى لم يعرف شكلها الصحيح ، فمثلا منع تعدد الزوجات واعتباره جناية تستحق عقوبة ، النكاح لا يعقد إلا برضا الفريقين ، الطلاق لا يقع إلا بواسطة المحكمة ، وذلك فى ثلاث نقاط :

أ — أن يكون طلب الطلاق على الشروط التى ذكرت فى القانون .

ب — أن يكون الفريقان متوافقين على الطلاق .

ج — أما إذا طلبه فريق واحد ، فيعين القاضى الغرم الذى يدفعه ذلك الفريق إلى الفريق الآخر .

وهكذا لم تجعل المرأة متساوية بالرجل فى الطلاق والزواج أمراً أساسياً فحسب ، بل فى شئون الملكية أيضاً التى تتبع النكاح ، إنه بعيد أن يكون لواضعى هذا القانون اطلاع على أفكار خدا بخش ، ولكن مما لا شك فيه أن القانون التونسى تأثر بمثل هذه الأفكار والنزعات ، ومهما زعم أهل الحل والعقد فى تونس ، فإن قانونهم الشخصى يختلف عن القانون الإسلامى التقليدى ، كما يختلف عنه القانون العلمانى . . فى تركيا ، تماماً(١) » .

يتضح من تصرفات الرئيس التونسى وبياناته أن رحلته الثقافية (التى بدأت بتشابه دقيق مع الأفكار التى يلقنها دعاة الحضارة الغربية والإرساليون المسيحيون والمستشرقون) تستمر وتقطع أشواطاً بعيدة ، وأنه قد وصل الآن إلى مرحلة يصعب عليه التزام التعريض والكناية وقد بدأ يعرب عن أفكاره بتصريح بدون أى حذر وتحفظ ، بل يتمدى

(١) مقالة شاخت بعنوان Problems of Modern Islamic Legislation ترجمة الأستاذ فضل الرحمن الأنصارى ملخصاً فى مجلة « برهان » ديسمبر ١٩٦٣ .

أحياناً إلى تجرؤ شنيع ، ويدل على ذلك تصريحاته التي أثارت ضجة في العالم الإسلامي ، والتي أدلى بها في مؤتمر المدرسين والمربين لمناسبة « الملتقى الدولي حول الثقافة الذاتية والوعي » المنعقد في تونس في مارس ١٩٧٤ م ، وقد نشرت الصحف التونسية تصريحات الرئيس ، بحذف فقرات كانت أكثر تهجما على الإسلام، وشخصية النبي ﷺ كما حذفت وسائل الاعلام الرسمية الفقرات النافرة .

نشرت صحيفة « الشهاب » الصادرة من بيروت في عددها الأول للسنة السابعة ، الصادر في ١٥ نيسان ١٩٧٤ م هذه الفقرات المحذوفة :

(١) إن في القرآن تناقضاً لم يعد يقبله العقل بين « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » . . . « وأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »(١) .

(٢) الرسول محمد كان إنساناً بسيطا يسافر كثيراً عبر الصحراء العربية ويستمع إلى الخرافات البسيطة السائدة في ذلك الوقت ، وقد نقل تلك الخرافات إلى القرآن ، مثال ذلك ، عصى موسى ، وهذا شيء لا يقبله العقل بعد اكتشاف باستور ، وقصة أهل الكهف(٢) .

(٣) إن المسلمين وصلوا إلى تأليه الرسول محمد ، فهم دائماً يكررون « محمد ﷺ ، الله يصلي على محمد ، وهذا تأليه لمحمد(٣) .

---

(١) إن التناقض الذي وجده الرئيس بين الآيتين يرجع إما إلى جهله للغة العربية (لأنه تلقى تعليمه من فرنسا) وإما إلى عدم تمكنه من دراسة القرآن الكريم وتفسيره ، ولو أنه كان قد راجع أي عالم عادي للدراسات الاسلامية لما وقع في مثل هذه الورطة .

(٢) إن هذه التهمة أيضا تكشف عن جهل الرئيس أو عن الاضطراب الفكري الذي لا يستغرب في الطبقات المتعلمة خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر حيث لم تكن البحوث التاريخية والعلم قد أحرزت تقدما كبيرا ، ولكن لا مبرر لمثل هذه الدعاوى الآن في العصر الحديث ، ويدل ذلك على أي حال من الأحوال على أن الرئيس بورقيبة يعتبر القرآن كتابا من تأليف النبي صلى الله عليه وسلم ولا يعتبره كتابا منزلا .

(٣) وهو دليل آخر على جهل الرئيس ، وحرصه على اصدار حكم على أي موضوع بدون أن يهتم باجراء تحقيق فيه ، فما هي العلاقة بين الصلاة والتبريك والدعاء ، وبين التأليه ، إن مثل هذه الأدعية توجد في جميع الكتب السماوية ، بل في سائر الكتب الدينية .

هذا ما نقلته الصحف الإسلامية من التصريحات التى حذفتها الصحف الرسمية ، ولكن ما نشرته جريدة «الصباح» التونسية فعلا والتى نالت موافقة الحكومة ، لاتبرىء الرئيس ، ولا تخفف من شناعة فكره ونورد هنا مانقلته الجريدة حرفياً :

« هناك أمور أخرى مثل قصة عصا موسى التى ألقى بها فإذا هى حية تسعى ، وقد كان الإيمان بأن الحياة يمكن أن تخرج من الجماد سائداً فى أوروبا أيضاً ، ولكنه انقرض تماماً منذ عهد باستور ، ومن هذه الأساطير التى ظلت موضع إيمان الناس فى البلاد العربية دهراً قصة أهل الكهف ، الذين لبثوا رقوداً مئات السنين ثم انبعثت فيهم الحياة[١] » .

إننا لا نريد أن نعلق على هذه التصريحات هنا ، لأنها لا تستحق ذلك ، وكل ما يتضح من هذه البيانات أن الرئيس بورقيبة يعانى من مركب النقص والتبعية الفكرية ، فانه لم يدرس أى علم من العلوم الإسلامية فى الوقت الذى لم يستطع فيه أن يفهم كليا الاعتراضات والشكوك التى أثارها الناقدون ، أما المسألة التى يجب أن تكون موضع الاهتمام فهى أن الشخص الذى يحمل مثل هذه الأفكار المعادية للإسلام هل يبقى فى حظيرة الإسلام ، وهل يتمتع بحق ليحكم بلداً إسلاميا ذا أغلبية إسلامية ؟ .

إن رد الفعل العنيف الذى أثارته تصريحات الرئيس فى الدوائر الإسلامية ، والأوساط الدينية فى سائر أنحاء العالم يحمل خير رد على هذا السؤال[٢] .

بالإضافة إلى الاعتراضات الثلاثة التى ظهرت فى بيان الرئيس ، تدل الأفكار

---

(١) جريدة «الصباح» التونسية ، ٢٠/٢١ آذار ، مارس ١٩٧٤ م .

(٢) عقد المجلس الاستشارى للجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة بعد وصول هذه التقارير ، اشترك فيه كبار العلماء والباحثين من العالم العربى والعالم الاسلامى من أندونيسيا الى مراكش ، اشترك فيه المؤلف أيضا ، كعضو للمجلس الاستشارى ، وأرسل احتجاجا شديد اللهجة الى الرئيس بورقيبة أعرب فيه أعضاء المجلس الاستشارى عن قلقهم العميق بأفكاره ، وتضمن الاحتجاج إشارات الى أن الذى يحمل مثل هذه الآراء لايعتبر مسلما ، واحتج على هذه التصريحات عدد كبير من الصحف الاسلامية أيضاً ، وعلقت عليها .

التى أعرب عنها الرئيس على حياة النبي ﷺ ، والعقائد الإسلامية وطرق العبادة ، على أنه لا يختلف مع المبادىء الأساسية للإسلام والشريعة فحسب ، بل إنه يريد أيضاً أن يقود مسلمى تونس إلى نفس الجهة ، ويثير شكوكا وريبا فى قلوبهم ، وليس من العسير إذاً أن يعلم إلى أى جهة تسير تونس التى أنجبت عدداً من أعلام الفكر الإسلامى، والبحوث الإسلامية ، مثل ابن خلدون ، والذى يزخر بأمثاله التاريخ الإسلامى ، وإننا نعلم أن عملية تحويل تونس إلى بلد متحضر بالحضارة الغربية ، قد بدأت بطاقة وحماسة بالغتين بعد استنكار الدوائر الإسلامية لخطاب الرئيس بورقيبة .

الجزائر :

الجزائر التى دفعت ضريبة الحرية بتضحية مليون نسمة ، وكان السر فى هذه التضحية والثبات (الذى لا يوجد له نظير فى العصر الحديث) حب الشهادة ، والحنين إلى الجهاد. وكانت وكالات الأنباء الغربية تعبر عنهم — أى الجزائريين — بكلمة المسلمين فحسب فى أخبار معاركهم وكفاحهم ، هذه الجزائر المجاهدة تعانى نفس المشكلة ، وتمر بنفس التجربة التى مرت بها الدول الإسلامية التى يتزعمها قادة التجدد والتغريب فى هذه البلاد، فقد أصبح زعماء الجزائر يسوقون بلادهم نحو مادية اشتراكية علمانية ونحو الحضاة الغربية رغم عاطفة الشعوب الدينية والآمال التى عقدتها العناصر الإسلامية(١) .

نستطيع أن نتمثل هذه الأوضاع التى تحتج عليها روح الجزائر الإسلامية ودماء الشهداء بتصريح من علماء الجزائر وصل إلينا بطريق صحيفة يهودية جويش أوبزرفر (Jewish Observer) الصادرة من لندن .

---

(١) نشرت الصحف الانجليزية الصادرة من الهند هذا الخبر فى ٥ ابريل ١٩٦٢ م ، أن الأستاذ بكر ممثل الجزائر فى الهند صرح فى مؤتمر صحفى هناك ، أن الجزائر الحرة ستكون دولة علمانية ديمقراطية ، أما ثقافتها فتكون عربية إسلامية ...

نشرت هذه الصحيفة في عددها الصادر في ٣١ أغسطس ١٩٦٢ م لمراسلها في الجزائر تحت عنوان « حكم الإسلام لابد أن يسود » ما تلي ترجمته :

« أعلن القادة المسلمون الدينيون هنا أن « الإسلام واللغة العربية » لابد أن يسودا الجزائر الجديدة ، وهاجم علماء الجزائر في بيان لهم القادة القوميين الذين ينادون بدولة جزائرية اشتراكية يعزل الدين فيها عن التدخل في شئون الدولة .

لقد أعلن بيان العلماء أن الثورة الجزائرية تكون قد خانت شهداءها الذين سقطوا في الميدان وفشلت في رسالتها التاريخية إن لم يكن الإسلام دين الدولة واللغة العربية لغتها الرسمية ، إن اتفاقية « افيان » لوقف القتال تنص على أن دستور الجزائر في المستقبل لا بد أن يتضمن حرية الأديان وأن تكون اللغتان العربية والفرنسية هما اللغتين الرسميتين في الدولة ، وأن الدستور سيرسم خطوطه الجمعية العمومية التي كان مفروضاً أن تجتمع يوم ٩ سبتمبر بعد أن تأجل انعقاد جلستها عدة مرات ، ولكن انعقادها حتى بهذا التاريخ قد أجل بسبب التوتر المستمر في العلاقات بين قادة الجيش والقادة السياسيين ، ولكن هاجم العلماء الجزائريون الآن ، ولأول مرة ، في تصريح عام لهم ، منذ انتهى الحكم الفرنسي يعلنون أن الاستقلال والتنمية المادية للاقتصاد ليسا كافيين كي يكونا هما غاية الثورة الجزائرية ، وذكر بيانهم : « أن لكل أمة مستقلة شخصية ، وإلا تشابهت الأمم كالسمك في الماء ، الجزائريون والفرنسيون والإسبانيون و . . . ومعنى ذلك أن نصبح دولة مفتوحة للعالمية الواسعة ، نحن نعارض كل هذا . . . نحن جزائريون ولنا شخصيتنا الوطنية المستقلة ، يقضي بذلك ديننا الإسلامي ولغتنا وتقاليدنا وتاريخنا » ، ووصف بيان العلماء محاولة البعض في فصل الاسلام عن الدولة بأنه « تنكر لمبادىء ثورتنا ، وهجوم على الاسلام في هذه الأمة المسلمة ، وانتهاك لحرية هذا الشعب كله[1] » .

---

(١) المسلمون ، العدد التاسع ، جمادى الأولى ١٣٨٢ أكتوبر ١٩٦٢ م .

إن هذه الدول العربية المستقلة وزعماءها القوميين لا يزالون يبدون رغبتهم فى الإسلام وصلتهم به بين حين وآخر ، إنهم لا يجهلون أن الإسلام لا يزال رابطة وحيدة قوية بينهم وبين الشعب ، وإنهم لا يستطيعون أن يحكموا الملايين إلا باسمه ولافتته ، ولكن مفهوم الاسلام عندهم يختلف كلياً عن ذلك المفهوم الذى يحمله المسلمون المتمسكون بدينهم، إنهم يريدون بالاسلام ديناً مر بمرحلة الاصلاح والتطور (Reformed) يتلاءم مع الحضارة الغربية وقيمها وأقدارها ، ويصلح لقومياتهم ووطنياتهم، ويحصر فى إطار العقائد والأخلاق، فلا يتدخل فى وضع الدستور وشئون الدولة ومصالحها .

وأعتقد أن رأى كاتب لبنانى هو الدكتور سالم ليس من المبالغة وتهويل الواقع فى شىء إذ كتب فى صحيفة أمريكية مشهورة (Muslim World) تحت عنوان : **(Nationalism and Islam)**

« إن القومية قد توافقت مع الإسلام لتحقيق هذا الهدف ، ولكن الإسلام الذى تعنيه القومية ليس هو الإسلام القديم الجاف ، بل إنه إسلام عصرى جديد مر بمرحلة التطوير والإصلاح ، موضة عصرية تزيت بزى الإسلام فقط ، لا شك أن اسم محمد ﷺ والقرآن يتردد على الألسن ، ولكن ليكون ذلك مبرراً لكل ما يعمله القوميون ، إن القومية العربية حققت كل هذه الانتصارات بتمسكها بالإسلام ، ونستطيع أن نقول إلى حد كبير أن القومية العربية لا تدخر وسعاً فى استغلال الإسلام استغلالا كاملا لتكوين أمة عربية جديدة ، إن الزعماء القوميين يحققون انتصاراً باهراً بهذا المزج بين القومية والاسلامية (١) » .

الاشتراكية والولاء لها :

يمتاز رئيس الجزائر الحالى هوارى بومدين بين أقرانه من القادة العرب فى الولاء

---

(١) مقالة (Nationalism and Islam) فى مجلة (Muslim world) عدد أكتوبر ١٩٦٢ م .

الاشتراكية ، والاستعطاف من الاتحاد السوفياتى فى مجال السياسة والحكم ، وحينما وقف الاتحاد السوفيتى من حرب حزيران الماضية موقفاً لم يكن يتوقعه منه الشعب العربى الذى شعر بعجزه واستكانته فى ذلك الوقت ، وعمت موجة السخط واليأس من الاتحاد السوفياتى فى الدول العربية التى كان لها اتجاه خاص نحو الاشتراكية ، وبدأ اعتقاد الناس يضعف باخلاص الاتحاد السوفياتى وولائه لهم ، قام الرئيس هوارى بومدين بدور كبير فى إعادة ثقة هذه الدول العربية والشعب العربى بالاتحاد السوفياتى ، ودعم العلاقات معه من جديد .

وقد أصيبت بعض الأقطار فى آسيا وفى أفريقيا ، التى دخلت حديثاً فى حلبة التقدمية أو الاشتراكية ، بنوبة عصبية عنيفة فى تغيير معالم الاسلام والسير بهذه البـــلاد إلى العلمانية والاشتراكية ، بخطى سريعة متهورة ، حتى تعدت فى ذلك بعض الأوقات مبادىء حقوق الانسان ، والمبادىء الجمهورية البسيطة الأولية ، وظهرت من قادتها فى بعض الأحيان قسوة يندر نظيرها فى هذا العصر المتحضر ، وقد نقلت روايات انتهاك الحرمات الاسلامية وإهانة علماء الدين ، والاستخفاف بالشعائر الاسلامية عن جمهورية جنوب اليمن الشعبية ، تشمئز منها النفوس ، وتقشعر منها الجلود .

كذلك أذاعت وكالات الأنباء ، وبعض الصحف الأوربية ، أن جمعاً من العلماء (يبلغ عددهم عشرة) قتلوا حرقا فى الصومال ، لأنهم عارضوا بعض الأحكام الرسمية الجديدة التى تتعارض مع النصوص القرآنية ، والمقررات الاسلامية ، كالمساواة بين المرأة والرجل فى التركة ، وحق الطلاق وغيره .

عملية هدم وازالة أنقاض .

وهكذا تنقل شجرة الحضارة الغربية والفلسفة الغربية ، التى ساعد فى نشأتها ونموها مناخ خاص ، وسقى خاص ، وغذاء خاص ، وقد توافرت هذه العوامل كلها فى الاراضى

الاوروبية .. تنقل هذه الشجرة — بعد ما كبرت وترعرعت — إلى الارض الاسلامية فتغرس فيها وتنصب بقوة ، ويهيأ لها الجو ، وتحفر لها الارض حفراً عميقا ، ويقوم الحريصون على نصبها فى البلد الاسلامى بعملية الهدم الواسعة وإزالة الانقاض الفكرية والاجتماعية — كما يسمونها — من حولها ، وتستغرق هذه العمليه الهدامة جهودا وطاقات وأوقات كانت تعود على الأمة وعلى البلاد بنفع كبير ، لو وجهت إلى عملية إيجابية بناءة ، وإلى إثارة القوى الكامنة فى نفوس رجال هذا الشعب الاسلامى عن طريق الايمان والدعوة الدينية ، والإصلاح الخلقى .

رجعية التقدميين :

وقد يلجأ هؤلاء المتجددون فى سبيل التجديد إلى بعض الفلسفات والنظم والروابط التى فقدت قيمتها ومكانتها فى المجتمع الأوروبى من زمان ، وأصبحت تعتبر من الشعارات الرجعية ومن التجارب القديمة التى لجأ إليها القادة فى أوروبا فى ظروف خاصة ، وفى وقت محدد ، ثم استغنوا عنها بما رأوا من أضرارها وجناياتها وتركوها إلى فلسفة أو فكرة أفضل منها وأوسع ، وخير مثال لذلك « القومية » التى تخلت عنها أوروبا تقريباً ويعض عليها بعض القيادات فى الشرق الإسلامى بالنواجذ ، وترى فيها الأسلوب الأخير من التفكير ، وآخر ما وصل إليه العقل البشرى من وسائل التنظيم والتخطيط ، مع أنها من بقايا عصر البداوة والحياة القبلية المحدودة فى صورة موسعة ، وطمر بال خلعه الأوروبيون ، ومن العوامل الهدامة التى فرقت المجتمع البشرى ووزعت الجيل الإنسانى على نفسه .

قد بدأ مفكرو الشرق والغرب الأحرار ينظرون إلى القومية نظرة احتقار وازدراء ويعتبرونها موضة قديمة ، ودليلا على الرجعية والتزمت ، وعنصراً هداماً للإنسانية والسلام العالمى ، ويدعون إلى الوحدة الإنسانية وفكرة الأسرة العالمية ، ونقدم هنا

ـ كدرس وعبرة ـ رأى مفكرين عظيمين ، أحدهما ينتمى إلى الغرب والآخر ينتمى إلى الشرق ، الاول هو المؤرخ الشهير أرنولد توئنبي (Arnold Toynbee) والثانى الدكتور رادها كرشنان رئيس الجمهورية الهندية سابقاً .

إن أرنولد توئنبي يكتب فى إحدى مقالاته :

«ان مستقبل الانسانية يتوقف على أخوة روحية لا يمنحها غير الدين ، وهو الشىء الذى يحتاج اليه النوع الانسانى فى هذا الوقت ، الشيوعية تزعم أنها تستطيع أن توحد النوع البشرى ، كما أن الاسلام يثبت صلاحيته كقوة موحدة للإنسان فى أفريقيا ، المسيحية أيضاً تستطيع أن تلعب هذا الدور إذا عملت بمبادئها ، ولكن القومية لا تستطيع أبداً أن توحد الإنسانية ، بل إنها توزعها وتشتت شملها ، ومن أجل ذلك ليس لها مستقبل ، وإنها لا تستطيع إلا أن تدفن الإنسانية فى ركامها .

إنه يجب علينا أن نختار إحدى النتيجتين فى عصر الذرة ، وإننا إذا أردنا أن ننقذ أنفسنا من الهلاك والدمار فينبغى لنا أن نحتضن الإنسانية كلها من غير استثناء ، ونتعلم كيف نعيش كأسرة واحدة(١) » .

ونادى الدكتور رادها كرشنان بتبنى فكرة « الأسرة الواحدة على وجه الأرض » حتى يسلم العالم من عواقب « القومية العسكرية » ، وقد قال فى خطبته التى ألقاها فى ١٠ يونيو ١٩٦٣ م ، فى مؤسسة الأمم المتحدة(٢) :

« إن تقاصر الإنسان عن إلغاء التجارب النووية لا يدل إلا على نظرة خاطئة كبيرة ، التاريخ يشهد أن الاستيلاء السياسى ، والتمييز العنصرى ، والاستغلال الاقتصادى

---

(١) Islamic Review March 1961

(٢) وكان رئيس الجمهورية الهندية يومئذ .

دفع الإنسان إلى نار الحرب ، فإذا قضى على هذا الاستيلاء السياسى والاستغلال الاقتصادى بإدخال الرخاء ، والقضاء على النّعرة الجنسية يـكون ذلك خدمة كبيرة للسلام العالمى .

إن الوطنية ليست المثل الأعلى للإنسان ، بل إن مثله هو فـكرة الأسرة العالمية الواحدة ، إننا نعيش فى عالم حديث ، ولـكن أفـكارنا قديمة عتيقة[١] » .

تقليد دعاة التجديد :

إن هذه المحاولة المخلصة الملحة لتطبيق تجارب الحياة الأوروبية فى بلد إسلامى يبرهن على أن قادة هـذه البلاد — وإن دوت أسماؤهم فى العالم وقادوا الجماهير الـكثيرة — لا يزالون — رغم ثقافتهم العصرية الواسعة — فى دور الطفولة العقلية التى يكثر فيها التقليد والمحاكاة والتلمذة المتواضعة لأساتذتهم الغربيين ، وأن شخصياتهم مجردة عن كل ابتـكار ، وعن القدرة على الإنتاج الأصيل والإبداع ، وعن التفـكير الحر ، وإنهم فضلا عن جهلهم أو تجاهلهم لطبيعة الشعوب التى يحكمونها ، ولمواهبها وطاقاتها لا يسايرون الفـكر الأوروبى فى تقدمه وأطواره ، ولا يعرفون ما يجيش به المجتمع الأوروبى من قلق وتذمر ، وبحث عن الإيمان والروحانية .

سياسة النفاق لدعاة الالحاد والعلمانية :

ماهى طريقـة هؤلاء الدعاة المتحمسين إلى العلمانية والتقدميـة الغربيين (الذين نفخوا روح التجدد والتغريب فى العالم الإسلامى) فى محيطهم وبيئتهم التى يعيشون فيها ، وهل طبقوا العلمانية فى حدود دولهم وحكوماتهم ، أم أنهم كانوا متعصبين للدين ومن كبار الرجعيين ، كلما دعتهم إلى ذلك حاجة ؟

---

(١) «National Herald» Lucknow (India)

أما الذين ينتسبون إلى العالم المسيحى والحكومات التى تنتمى إليه فقد كتب عن ذلك كثيراً .

ولا يخفى على البصير ما يتجلى فى كتابات المستشرقين المسيحيين من روح التبشير ، ومرارة ذكريات الحروب الصليبية ، والتعصب على الأتراك ، ودوافع الانتقام ضدهم ، ويوجد من بين هؤلاء المستشرقين ، الذين يعتبرون من متحمسى الدعاة إلى الثورة على الشريعة الإسلامية والقانون الإسلامى فى العالم الإسلامى — عدد وجيه لليهود يتعصب للديانة اليهودية وأتباعها ويظهر من كبار الرجعيين والمتزمتين المتعصفين .

إن دولة اسرائيل المزعومة لم تقم إلا على أساس خالص للدين ، إن فى تشبثها بتعاليم التوراة والعض عليها بالنواجذ فى كل مجال من مجالات العلم والدين والسياسة والاجتماع والاقتصاد ، وفى الحياة الفردية واليومية ، لعبرة كبيرة للعالم الإسلامى ، ودليلا ساطعاً على أن التقدميين ذوو لسانين ، فإنهم يتكلمون مع إخوانهم وأتباعهم بغير ما يتكلمون به مع الآخرين ، وهم يركزون جهودهم ودعوتهم على نشر الالحاد والعلمانية ، والمحاربة للدين فى الأقطار الإسلامية الغرة التى استقلت حديثاً .

وفيما يلى مقتطفات لأحد الشيوعيين العرب سابقاً ، الذى عاش مع الشيوعيين اليهود جنباً إلى جنب وعمل معهم إلى مدة طويلة ، إنه يقول :

« فى قطب بلادنا تقوم دولة تحمل اسم نبي من التوراة ، ليس لها دستور لأن الأحزاب الدينية تصر على أن التوراة هى الدستور : .. محرماً فيها العمل يوم السبت ولم ترق ذلك أى اخلال باقتصادها وارتباطها بالبنوك العالمية التى تعمل يوم الأحد ، بل يحرصون على أن تكون الجلسة الأسبوعية للكنيست يوم الأحد — ويحرم فيها على الجيش طبخ الطعام يوم السبت .. تقول يائيل دايان فى « مذكرات جندى » : « أكلنا طعامنا مطهواً يوم السبت ٣ يونيو بتصريح خاص من الحاخام الأكبر » ،

جيش اسرائيل الذى يوشك أن يمتلك القنبلة الذرية يمتنع عن طبخ الطعام يوم السبت ، وبنغوريون وشازار يسيران ميلا ونصف ميل على الأقدام فى جنازة تشرشل لأنها صادفت يوم السبت ومحرم فى التوراة ركوب وسائل النقل يوم السبت ، وعمر بنغوريون ٧٨ سنة وعمر شازار ٧٦ سنة فى وقت الجنازة ، ولم تجد الصحافة العالمية ولا الرأى العام الانجليزى فى ذلك مدعاة للسخرية ، لكنها تجد فى ذلك مدعاة للاعجاب ، نصف المصلين فى مسجد الخليل من العسكريين اليهود ، ونفخوا فى البوق ايذاناً بانتهاء الصوم ، وجميع طائرات شركة « العال » الاسرائيلية وسفن شركة « زيم » لا تقدم لحم الخنزير ، فى اسرائيل أحزاب دينية معترف بها ولها وزنها ، الزواج المدنى غير معترف به لحد أنهم رفضوا إعطاء الجنسية لحفيدبن غوريون لأنه من أم غير يهودية ، اللغة العبرية لغة رسمية ، درسوا بها الصواريخ وإفساد الرادار ، وضرب الطائرات على المدرجات وألفوا بها أدبا نالوا به جائزة نوبل العالمية ، فى نفس الوقت ولأجل أن تقوم إسرائيل صدروا إلينا عملاء يجعلون لب كفاحهم فصل الدين عن الدولة .. ويصابون بالفالج عندما يسمعون بأن الدستور سينص على أن دين الدولة هو الإسلام ، ويسودون الصحائف فى أضرار رمضان على الإنتاج ونحن أمة مستهلكة والحمد لله ، والذين ألغوا شعار الهجوم « الله أكبر » من الجيش ولم يعيدوه إلا بعد النكسة بخمسة عشر شهراً ، بينما أول دبابة إسرائيلية دخلت سيناء مكتوب عليها آية من التوراة . وتصاب بالذين تشغلهم صعوبة اللغة العربية ويبحثون عن حروف أخرى لها أو عزلها عن مجال العلم بزعم أنها لغة متخلفة ، والعبرية التى انقرضت منذ ألفى سنة أصبحت لغة العلم » .

ولكن نطلع على شىء من سياسة إسرائيل وطريقتها فى مجال التعليم نقدم بعض المعلومات عن مؤلفات وتقارير خبراء التعليم فى الشرق الأوسط .

يقول الدكتور رودر مايثوز والدكتور متى عقراوى فى كتاب « التربية فى الشرق العربى » :

« إن أهم مايسترعى الأنظار فى المدارس الإسرائيلية فى فلسطين أن لغـة الدراسة فى كافة المواد هى العبرية فيما عدا اللغات الإنجليزية والفرنسية والعربية ، والعناية شديدة فى جميع مراحل التعليم بالدراسة الدينية وجعل التعليم الدينى أساس الصهيونية وتقدمها .

ويفهم مما يلى هذه العبارة أن جميع أنواع المدارس الاسرائيلية أو اتجاهاتها تبعـاً للأحزاب التى ينتمى إليها آباء التلاميـذ رغم اختلاف هـذه الأحزاب فى مثلها العليا التعليمية والدينية والسياسية تلتقى على هذه الفكرة الأساسية ، وتعنى عناية خاصة بالتربية الدينية ، ويرى بعضها أن التقاليد الدينية اليهودية هى النبراس الذى ينبغى أن تستهدى به نظم التعليم ويحتم بعضها على المعلمين أن يكونوا تقليديين ، أى أن يحـرصوا على التقاليد اليهودية الأصولية .

وجاء فى مقال « التعليم العالى فى إسرائيل » فى مجـلة فلسطين مقتبسا من الدراسة التى قدمتها دائرة البحوث والدراسات فى الهيئة العربية العليا لفلسطين ما يلى :

« إن سياسة التعليم العالى تهدف إلى تنمية العقيدة اليهودية والولاء لها بالإضافة إلى الدعاية لاسرائيل وكسب الأصدقاء» ، وفى المقال تفاصيل هائلة عن «العناية باللغة العبرية وجامعاتها وميزانيتها وتمويلها وما يبذل لهـا اليهود من عناية فائقة ، وأموال طائـلة ، وتنظيمات دقيقة » .

ومما يبعث على الاستغراب الشديد بعد الاطلاع على هذه السياسة ذات الوجهين التى اتخذها المثقفون من غير المسلمين فى بلادهم وأمتهم نحو الأقطار الإسلامية وشعوبها المسلمة ، أن نرى عقلاء البلاد وقادتها يقعون فريسة الدعاية المنافقة للعلمانية والتجديد ، فى غاية من البساطة والاغترار ، ولعل هؤلاء العقلاء اليهود والمسيحيين والمستشرقين من أصحاب القلم والصحافة لم يكونوا يقـدّرون أن الزعماء المسلمين ينخدعون بمثل هـذه السهولة ويؤمنون بتوجيهاتهم فى مثل هذه السرعة ، ويصبحون لهـا دعاة متحمسين فى

بلادهم من غير أن يشعروا بهذه الحقائق النيّرة ، كما أثبتت التجربة العملية ذلك ، وسوف لا يوجد نظير فى تاريخ العالم الفكرى والمدنى ، لإفلاس القيادة الفكرى وافترارها ، مثل الذى قدمته القيادة المسلمة فى هذا القرن العشرين .

اسراف الدول الاسلامية المتخلفة :

الحالة الاقتصادية فى الدول المسلمة سيئة بوجه عام ، إنها مفتقرة إلى الدول الأخرى وعالة عليها ، حتى فى حاجات الحيـاة ، وإن مستوى حياة شعوبها منحط خافض بوجه خاص ، أما البلاد التى عدد سكانهـا هائل فإن مستوى معيشتها وحالتهـا الاقتصادية أحط بكثير مما عليه البلاد الأخرى ، ولـكن حكومات هذه البلاد تحاول تقليد الدول الغربية المتحضرة الغنية ولا تدخر فى ذلك وسعاً ، وتعتبر إنشاء القنصليات والسفارات فى جميع البلاد فريضة لازمة ، وتتخذ هذه السفارات كل الأساليب التى تتخذها السفارات الغربية التى لا دين لها ولا حشمة ، ولا حدود خلقية ، إن هذه السفارات المسلمة والعربية تقيم مآدب فاخرة وحفلات الـكوكتيل Cocktail Parties وتصب فيها أموال الفقراء والطبقة الوسطى كالمـاء الجارى ، وتقدم الخمر فى عامة الأحوال ، ولحم الخنزير أيضاً فى بعض الأحيان وبعض المناسبات ، إنهذه السفارات لا تتحمس مطلقاً لدعوة الإسلام ، والتمسك بمبادئه الخلقية التى تنتمى إليها ، ولا تـكون لها صـلة بالمسلمين فى تلك البلاد وعنـاية بتوجيههم وتشجيعهم والاطـلاع على أحوالهم وأوضاعهم ، ولا تفيدهم ثقافيـاً وأدبياً إلا نادراً .

إن كثيراً من زعماء الدول المسلمة (ومنهم من آمنوا بالديمقراطية والاشتراكية كمبدأ ودستور) يعيشون عيشة باذخة مبذرة ، نفقاتهم لوكية وجولاتهم تذكر بعهد كسرى وقيصر وامبراطور روسيا فى العهد الأخير ، وحياتهم المنزلية ومناهج عيشهم تشبه قصص ألف ليلة وليلة ، والانسان يكاد لا يصـدق أن هؤلاء هم زعماء البلاد الاسلاميـة المتخلفة ، والشعوب المتأخرة الفقيرة ، والدعاة إلى الاشتراكية والديمقراطية والشعبية .

نقدم بهذه المناسبة الدكتور سوكارنو رئيس جمهورية إندونيسيا سابقاً[١] كنموذج لهـذا النوع من القـادة والزعماء، ونضرب مثالا لأسلوب حياته، ومستوى معيشته، تقول جريدة «الصندى تلغراف» الصادرة من لندن فى أحد أعدادها:

«الرئيس الاندونيسى سوكارنو أنفق خلال إقامته فى طوكيو خمسة آلاف جنيـه يومياً، وكان يرافقه ستة ضباط، وكانت المومسات والبغايا والفتيات الأخريات يجلبن إلى فندقه الذى كان يكلفه ٥٥ جنيها يومياً، وكان ٥٠ من الحراس منزعجين لـكثرة تردد المومسات والبغايا الزائرات فى هذا الفندق».

كما أن مكتب وزارة الخارجية باليابان لا ينظر بعين الرضا إلى هذه الجولات التى يقوم بها الرئيس سوكارنو بين آن وآخر لطوكيو، ولـكن بما أن اليابان تريد استغلال الوسائل الطبيعية فى إندونيسيا فإنهـا لا تبدى استنكارهـا لهذه الجولات بطـريق علنية[٢]».

صراع بين الحـكومات والشعوب:

إنهم فى بلاء وشقاء من هـذه الشعوب التى لا يسهل عليهـا التخلى عن المبادىء الدينية، ومن ثروتها الايمانية ومن تراثها الغنى، والانقطاع عن منابع الحياة والقوة التى تـكمن فى مصادرها الدينية، وأدبها الاسلامى، وتاريخ الاصلاح والتجديد، فهم فى عملية هدم واسعة الأكناف، طويلة المـدى، محاربة من جهـات كثيرة، والشعوب الاسلامية — التى وقعت تحت حكمهم وقيادتهم — فى بلاء وشقاء من هؤلاء القادة،

---

(١) اندونيسيا بلد متخلف فقير بعدد سكانه الهائل، وقد صرح نائب الحاكم العام بجاوا أن مليون نسمة تقريبا فى جاوا الوسطى تعانى الفقر والجدب والفاقة، وقال أن هناك ١٢ ألفا من الناس يأخذون العلاجات الغذائية فى المستشفيات الحـكومية.

(٢) Sunday Telegraph 12, January 1964

فهم يحاربون طبيعتها ويقودونها بهتافات وشعارات لا تسيغها هذه الشعوب ولا تنشط لها، لا تستطيع أن تحبب إليها الموت والفداء ، وتهون عليها بذل النفوس والأموال والهجرة من الأوطان، وتتغلب على الشهوات الأنانية الفردية ، وقد عرف هؤلاء القادة ضعف هذه الهتافات والشعارات فى إثارة الحمية ، وإشعال الحماسة فى نفوس الجماهير ، فهم يلجأون دائماً أيام الجد والمعارك الدموية الحاسمة إلى الهتافات الدينية والشعارات القديمة من الجهاد فى سبيل الاسلام والشهادة فى سبيل الله حتى إذا وضعت الحرب أوزارها ، وتسلموا مفاتيح البلاد ، عادوا إلى هتافاتهم ، وشعاراتهم القومية والزمنية ويفترضون أنهم يحكمون شعوباً ليست لها ديانة تحبها وتقدسها وتستميت فى سبيلها ، وليست لها عاطفة دينية تحتاج إلى التربية والاستثمار .

اهمال طاقات وكنوز مخبوءة :

وهكذا تضيع طاقات هذه الشعوب ومواهبها ، وإمكانياتها التى لو استثمرت وقدرت حق التقدير ، وكان القادة « واقعيين » أكثر منهم « خياليين » لفعلت الأعاجيب ، وكانت قوة يحسب لها الحساب الكبير فى ميزان القوى وفى ميزان « المعسكرات » ، ولا سبب فى ذلك إلا ضيق تفكير هؤلاء القادة ، وتقليد هذه الحضارة ، والتصميم على تطبيقها فى بلادهم بحذافيرها ، وهذا بتأثير الثقافة الأجنبية التى تلقوها فى الخارج ، أو خضعوا لها وهضموها فى داخل بلادهم .

تقليد الحضارة الغربية ونتائجه :

إن اتباع أساليب الحضارة الغربية فى الحياة الاجتماعية والإيمان بمبادىء حياتها ومنهج اجتماعها يحمل نتائج بعيدة المدى، إن أوروبا اليوم مصابة بالجذام الخلقى، ولا يزال جسمها يتقطع ويتعفن حتى أصبح الجو كله موبوءاً ، وسبب هذا الجذام هو الاباحة

الجنسية والخلقية التي تسود أوروبا اليوم ، وتتخطى حدود الحيوانية والبهيمية[١] ، والسبب الحقيقي لهذه البهيمية والحيوانية هي حرية المرأة المطلقة ، والتبرج المطلق ، والاختلاط الذي لا حد له ولا نهاية ، وإدمان الخمر . فأي بلد إسلامي سار على هذا الدرب وطرح الحشمة وسمح بالاختلاط بجميع أنواعه ،وشجع التعليم المختلط، كانت نتيجة ذلك هي التفسخ الخلقي والجنسي، والثورة على سائر الحدود، الخلقية، والدينية، وفي عبارة وجيزة ، الجذام الخلقي الذي أشرنا إليه آنفاً ، والذي أصيب به الغرب ، إننا نرى معالم هذا الجذام واضحة في البلاد الإسلامية التي تحمست في تقليد الحضارة الأوروبية ورفع الحجاب ، وشاع فيها الاختلاط ، وظلت الصحافة والسينما والتلفزيون والعلوم والآداب، وحياة الطبقة الحاكمة تشجعها ، بل تقودها وتوجهها .

سنة الله في الأرض « ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

---

(١) وقد رأينا بعض ملامحها في فضيحة بروفومو Profumo المشهورة في لندن التي رفع الستار عنها لأسباب سياسية .

أسباب «التجدد» والتغريب
وعلاجها

وبعد ما ذكرنا فى الفصول السابقة تاريخاً مجملا لحركة التجدد والتغريب فى العالم الإسلامى التى قادها كمال أتاتورك (١٩٢٤ — ١٩٣٨ م) ، وعرف القراء أن قادة الدول المسلمة التى نالت استقلالها حديثاً ومؤسسى الحكومة المسلمة الوليدة ، إما موافقون لها تماماً ، أو خاضعون لها فى قليل أو كثير ، كما أن الطبقة المثقفة بالثقافة العالية فى كل بلاد العالم الإسلامى تتجه نحو الأساليب التى اتخذها كمال أتاتورك فى النهضة والإصلاح ، ونحو « التجديد » والتغريب .

يجب أن نفكر فى أسباب هذا التأثير العميق الذى تركه مصطفى كمال فى قلوب هذه الطبقة ، هل هى مصادفة من مصادفات التاريخ ، أم هى نتيجة شخصية « كمال » القوية ؟ أم أن هناك أسباباً أخرى أكثر قوة وأشد نفوذاً تجعل كل من ينهض للإصلاح والتشكيل الجديد للمجتمع يقتفى آثاره فى ذلك ويقلده فى النهضة بالبلاد وتقويتها ، ويعتقد أن سر النهضة إنما هو التجدد والتغريب ، ليس غير .

إننا نرى لذلك أسباباً هى فى نفوذها عميقة الجذور ، وهى تكاد تكون شائعة منتشرة فى الأقطار الإسلامية ، نستعرضها واحدا واحدا بالإجمال ، ونبحث فيها باختصار .

نظام التعليم الغربى :

لا يخفى على المطلع الخبير أن لنظام التعليم روحاً وضميراً كالكائن الحى ، له روح وضمير ، إن روح نظام التعليم وضميره إنما هو ظل لعقائد واضعيه ونفسيتهم ، وغايتهم من العلم ودراسة الكون ، ووجهة النظر إلى الحياة ، ومظهر لأخلاقهم ، وذلك ما يمنح نظام التعليم شخصية مستقلة ، وروحاً وضميرا بذاتهما ، إن هذه الروح هى التى تسرى

فى هيكله تماماً ، إنها تسرى فى جميع العلوم ، فى الأدب والفلسفة والتاريخ والفنون والعلوم العمرانية ، حتى فى علمى الاقتصاد والسياسة بحيث يصعب تجريدها من هذه الروح، وليس فى وسع كل شخص أن يميز بين الصحيح والسقيم منها ، وإنما يتيسر ذلك لرجل أوتى من قوة الاجتهاد وملكة النقد القوية ما يستطيع به أن يميز النافع والضار، فيكون عاملا بمبدأ « خذ ما صفا ودع ما كدر » ، ويفرق بين الأصل والزائد حتى يتمكن من أخذ جوهرها وروحها .

وهذا العمل سهل فى العلوم الطبيعية والتطبيقية ، بينما هو صعب ودقيق فى نفس الوقت فى الأدب والفلسفة والعلوم العمرانية ، ولا سيما إذا كانت أمة تؤمن بعقائد معينة وتتبنى فلسفة مستقلة وأسلوباً خاصاً للحياة ، وتاريخاً مستقلا — لا يعد من أنقاض الماضى وإنما هو منارة نور للأجيال القادمة — وتعتبر شخصية الرسول وعهده الأسوة الحسنة التى تفوق جميع القيم والمثل العليا للحياة الانسانية . إذا كانت أمة هذه صفتها تتبنى نظام تعليم لأمة تختلف فى الأساس والقيمة والمعيار ، يحدث هنالك صراع مستمر لا يفارق هذه الأمة فى أى مرحلة من مراحل حياتها، يجر إلى بناء واحد وهدم آخر ، إلى تصديق واحد وتكذيب آخر ، إلى إجلال واحد وازدراء آخر ، وفى مثل هذه الحال يجب أن يحدث هناك نزاع عقلى ، وتزعزع فى العقيدة وانحراف عن الدين ، وأخيراً قبول القيم والأفكار الحديثة مكان القيم والأفكار السابقة ، وذلك أمر طبعى يجب أن يحدث كأمور طبعية ، لا يحول دون حدوثه حسن النية أو القلق ، ورغبة الآباء والجدود والاحتياطات الفرعية والخارجية ، وإنما يمكن تأجيل موعده أو إبطاء سيره على أكثر تقدير ، دون تعويقه أو القضاء عليه ، كما أن الشجرة إذا نشأت وتربت وفق نظامها الطبعى تؤتى أكلها وتثمر فى موعدها ، أما الانسان فبإمكانه أن لا يغرس شجرة ، ولا يسهر عليها بالتعاهد والسقى ، أو يعضدها إذا اكتملت وشبت ، ولكن ليس بإمكانه أن يقوم فى وجه شجرة مثمرة خضراء أو يفرض عليها أن تثمر ثمر شجر آخر .

تلك هي قصة نظام التعليم الغربي ، فإنه يحمل روحاً مستقلة وضميراً منفرداً تتجلى فيه عقيدة مؤلفيه وعقلية واضعيه ، وهو نتيجة التقدم الطبعي لآلاف السنين ، وتعبير عن أفكار أهل الغرب ومجموع أقدارهم وقيمهم ، فإذا ما طبق هذا النظام التعليمي في بلاد مسلمة ، أو مجتمع إسلامي يحدث به قبل كل شيء صراع عقلي ثم يتدرج ذلك إلى تزعزع العقيدة والردة الفكرية ، وأخيراً إلى الردة الدينية ، وذلك طبعي لكل من يستهدف لذلك (إلا من عصم ربك) ، وما أحسن ما كتبه أحد علماء الغرب الناقدين[١] الذي رزق قلباً سليماً وله خبرة واسعة لنتائج نظام التعليم الغربي في الشرق :

« لقد بسطنا في الفصول الماضية بعض الأسباب المؤيدة للرأي القائل بأن الاسلام والمدنية الغربية — وهما يقومان على فكرتين في الحياة متناقضتين تماماً — لا يمكن أن يتفقا ، فإذا كان ذلك كذلك ، فكيف نستطيع أن نتوقع أن تظل تنشئة أحداث المسلمين على أسس غربية ، تلك التنشئة القائمة في مجموعها على التجارب الثقافية الأوروبية وعلى مقتضياتها ، خالصة من شوائب النفوذ المعادي للإسلام ؟ .

ليس ثمة ما يبرر توقعنا لذلك ، وإننا إذا استثنينا بعض الأحوال النادرة التي يتاح فيها لعقل نير للغاية أن يتغلب على مادة التعليم ، فإن التنشئة الغربية لأحداث المسلمين ستفضي حتما إلى زعزعة إرادتهم في أن يعتقدوا أو أن ينظروا إلى أنفسهم على أنهم ممثلو الحضارة الالهية الخاصة التي جاء بها الاسلام ، وليس ثمة من ريب في أن العقيدة الدينية آخذة في الاضمحلال بسرعة بين « المتنورين » الذين نشأوا على أسس غربية[٢].

ثم يقول ، وهو يتحدث عن أجزاء برامج التعليم الغربية المختلفة فيتحدث عن تدريس الآداب الغربية وتأثيرها في عقلية النشء الاسلامي .

---

(١) هو محمد أسد (Leopold Weiss) سابقا .

(٢) الاسلام على مفترق الطرق ص ٧٣ .

« إن تعليم الأدب الأوروبى على الشكل الذى يسود اليوم الكثير من المؤسسات الإسلامية يقود إلى جعل الاسلام غريباً فى عيون الناشئة المسلمة ، ومثل هذا — ولكن إلى حد أبعد — يصدق على التعليل الأوروبى للتاريخ العام ، إذ لايزال الموقف القديم فيه : « رومانيون وبرابرة » يظهر بجلاء ، ثم إن لمثل هذا العرض فى التاريخ هدفاً خفياً ، ذلك أنه يدلل على أن الشعوب الغربية ومدنيتها أرقى من كل شىء جاء أو يمكن أن يجىء إلى هذا العالم ، وهكذا يمكن خلق نوع من التبرير الأدبى لسعى الأوروبيين إلى السيطرة وإلى القوة المادية[1] » .

ويتكلم عن تأثير تدريس مادة التاريخ على النمط الغربى فيقول :

« .. أما التأثير الوحيد الذى يمكن أن يتركه مثل هذا التثقيف التاريخى فى عقول الأحداث من غير الشعوب الأوروبية ، فإنما هو شعور هذه الشعوب بالنقص فيما يتعلق بثقافتهم الخاصة ، وبماضيهم التاريخى الخاص وبالفرص السانحة لهم فى المستقبل ، وهكذا يتربون تربية منظمة على احتقار ماضيهم ومستقبلهم ، اللهم إلا إذا كان مستقبلا مستسلماً للمثل العليا الغربية » .

وأخيراً يقول بكل حماسة وصراحة :

« .. وإذا كان المسلمون قد أهملوا ، فيما مضى ، البحث العلمى فإنهم لا يستطيعون أن ينتظروا اصلاح هذا الخطأ اليوم عن طريق قبول التعليم الغربى من غير وازع ما ، إن كل تأخرنا العلمى وكل فقرنا لا يوزنان بذلك التأثير المميت الذى سيحدثه تقليدنا الأعمى لنظام التعليم الغربى فى قوى الإسلام الدينية الكامنة ، إذا أردنا أن نحفظ حقيقة الإسلام على أنها عنصر ثقافى فيجب علينا أن نحترس من الجو الفكرى للمدنية

---

(١) أيضا ص ٧٢

الغربية ، ذلك الجو الذى أصبح على وشك أن يتغلب على مجتمعنا وعلى ميولنا ، وبتقليد عادات الغرب وزيه فى الحياة يصبح المسلمون تدريجاً مضطرين إلى الأخذ بوجهة النظر الغربية . إن تقليد المظاهر الخارجية يقود شيئاً فشيئاً إلى تقبل الميل العقلى المصاقب لذلك[1] » .

وقد تكهن بهذه النتيجة بعض مفكرى الغرب الذين كانوا مسئولين عن تطبيق هذا النظام التعليمى فى بلدان الشرق ، وقد كتب الكاتب الانجليزى المعروف اللورد ميكالى (Lord Macaulay) فى تقريره ، وقد كان رئيس اللجنة التعليمية (عام ١٨٣٥ م) التى قررت جعل اللغة الانجليزية أداة التعليم لأهل الهند بدلا من اللغات الشرقية الأخرى ، إنه يقول :

« يجب أن ننشىء جماعة تكون ترجماناً بيننا وبين ملايين من رعيتنا ، وستكون هذه الجماعة هندية فى اللون والدم ، وانجليزية فى الذوق والرأى واللغة والتفكير[2] » .

ويقرر المستشرق الكبير « جب » (Gibb) فى كتابه : « وجهة الإسلام » (Wither Islam) أن التجدد والتفرنج فى الشرق إنما هما خاضعان لمقياس نظام التعليم الغربى ، ومدى سيطرته وتغلغله فى المجتمع الإسلامى الشرقى ، يقول :

« .. والسبيل الحقيق للحكم على مدى التغريب (أو الفرنجة) هو أن نتبين إلى أى حد يجرى التعليم على الأسلوب الغربى ، وعلى المبادىء الغربية ، وعلى التفكير الغربى ، والأساس الأول فى كل ذلك هو أن يجرى التعليم على الأسلوب الغربى ، وعلى المبادىء الغربية ، وعلى التفكير الغربى .. هذا هو السبيل الوحيد ، ولا سبيل غيره ،

---

(١) الاسلام على مفترق الطرق ص٧٣ .
(٢) تاريخ التعليم لمؤلفه ميجر با ـو ص ٨٠ .

وقد رأينا المراحل التي مرّ بها طبع التعليم بالطابع الغربي في العالم الإسلامي ، ومدى تأثيره على تفكير الزعماء المدنيين ، وقليل من الزعماء الدينيين[١] » .

يلاحظ « جب » أن النشاط التعليمي والثقافي (عن طريق المدارس العصرية والصحافة) قد ترك في المسلمين — من غير وعي منهم — أثراً جعلهم يبدون في مظهرهم العام لا دينيين إلى حد بعيد ، ثم يعقب على ذلك بقوله .. « وذلك خاصة هو اللب المثمر في كل ما تركت محاولات الغرب لحمل العالم الإسلامي على حضارته من آثار[٢] » .

لقد كان نظام التعليم الغربي محاولة عميقة وخفية لإبادة العنصر الإسلامي والقضاء عليه ، وانتقل مفكرو الغرب من طريقتهم الممقوتة القديمة التي كانوا يؤثرونها في إبادة الأجيال والفتك بها إلى هذه الطريقة الجديدة التي قرروا صوغها في قالبهم ، فأسسوا لهذا الغرض مراكز كثيرة باسم الكليات والجامعات ، وقد عبّر عن هذه الحقيقة التاريخية أحسن تعبير الشاعر الإسلامي « أكبر » (الإله آبادي) في أسلوبه الطريف الخاص ، إنه يقول في بيته السائر :

« يا لبلادة فرعون الذي لم يصل تفكيره إلى تأسيس الكليات ، وقد كان ذلك أسهل طريق لقتل الأولاد ، ولو فعل ذلك لم يلحقه العار وسوء الأحدوثة في التاريخ » .

كما أوضح الفرق بين ساسة الشرق والغرب في بيت آخر يقول :

« إن أهل الشرق يقضون على العدو بشدخ رأسه ، ولكن الغربي يغيّر طبيعته وقلبه » . وجاء إقبال بعده بعدة سنوات وقد اكتوى بنار نظام التعليم الغربي

---

(١) الجزء الثاني من الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ص ٢٠٢ .

(٢) أيضاً ص ٢٠٤ .

شخصياً وخاض فى دراسته ، فأبدى حقيقته فى أسلوب أكثر عمقاً وأبعد عن التنكيت والدعابة ، يقول :

« إياك أن تكون آمناً من العلم الذى تدرسه ، فإنه يستطيع أن يقتل روح أمة بأسرها[١] » .

إنه يعبر عن ذلك الانقلاب الهائل والتحويل الجذرى الذى يحدثه نظام المعارف الحديث بقوله :

« إن التعليم هو « الحامض » الذى يذيب شخصية الكائن الحى ، ثم يكوّنها كما يشاء ، إن هذا « الحامض » هو أشد قوة وتأثيراً من أى مادة كيميائية ، هو الذى يستطيع أن يحوّل جبلا شامخاً إلى كومة تراب[٢] » .

إنه يرى نظام التعليم الغربى مؤامرة على الدين والخلق ، كما يقول :

« إن نظام التعليم الغربى ، إنما هو مؤامرة على الدين والخلق والمروءة[٣] » .

إن إقبال من أولئك الرجال المعدودين الذين خاضوا بحر نظام التعليم الغربى فلم يخرجوا من قعره سالمين فقط ، بل وقد جاءوا معهم بدرر كثيرة ، وازدادوا إيماناً بخلود الإسلام ومضمراته الواسعة ، وازدادوا ثقة بنفسهم ، ولو كان من الصعب أن نحكم على إقبال أنه لم يخضع للتعليم الغربى والفلسفة الغربية فى قليل أو كثير ، وأن فهمه للدين يطابق الكتاب والسنّة وفهم السلف تماماً[٤] ، ولكن الذى لا مرية فيه

---

(١) أرمغان حجاز .
(٢) ضرب كليم .
(٣) أيضاً ص ٨٠ .
(٤) وفى محاضراته التى ألقاها فى مدراس بعنوان : «تجديد الفكر الاسلامى» نماذج من التفكير أو التعبير الذى تأثر بثقافته الغربية .

أنه لم ينصهر فى بوتقة الغرب ، كما انصهر آلاف من معاصريه ، وحق له أن ينشد فى هذه المناسبة شعره الذى معناه :

« كسرت طلسم العصر الخاضر وأبطلت مكره ، التقطت الحبَّة وأفلتُّ من شبكة الصياد ، يشهد الله أنى كنت فى ذلك مقلداً لإبراهيم فقد خضت فى هذه النار واثقاً بنفسى وخرجت منها سليما محتفظاً بشخصيتى[١] » .

أما شهادة الزعيم الإسلامى الهندى مولانا محمد على عن التعليم الحديث وأثره فتحمل قيمة لا تنكر ، وقد تربى فى بيئة مؤمنة دينية ثم بدأ دراسته فى أكبر مراكز التعليم الغربى « الجامعة الإسلامية فى عليكرة » فى الهند ، إنه يقول فى ترجمة حياته :

« لقد كانت الحكومة البريطانية تحمل لواء الحياد الدينى الكامل ، فقد أقصت دراسة مادة الدين حتى دراسة الأخلاق تماماً من الكليات ، وطبقت هذه السياسة التعليمية عمليا فى ذلك ، ولم يبق من المعلومات الدينية والخلقية إلا ما يتلقفه الطلاب بأنفسهم من الكتب الانجليزية أو الكتب الدراسيه المؤلفة بلغات الشرق .

كما أن نظرية التعليم التى وضعتها الحكومة للشباب الهندى كانت « حديثة » وكانت تهدف بجميع ما فيها من عوامل هدامة ، إلى أن يتربى فى الطالب شعور خاطىء بعلمه وكبريائه ، يقضى على قداسة الرواية والحجة والإسناد بأوهامه التى يرجع تاريخها إلى ما قبل قرون ، ومما لا شك فيه أن هذا التعليم سبب إثارة دافع التحقيق والبحث عن الحقيقة مع مسايرته للزمان ، غير أنه كان هداما فى حملته على الديانة والأخلاق ، أما ما أعطاه بدلا مما قضى عليه من « الأوهام الدينية » — كما يقول الغربيون — فلا يقوم أيضا إلا على أساس من الأوهام والعقائد الخرافية ، ولكن هذه الثقافة التى يتزود بها

---

(١) أرمنان حجاز ص ٧٠ .

الطالب كانت حديثة لا شك[١] » .

إن مؤلف « الإسلام فى التاريخ الحديث » (W. C. Smith) الذى يحمل معلومات جديدة حول نزعات العالم الإسلامى وطبقاته المختلفة يعترف بالتأثير العقلى العميق الذى يتركه التعليم الغربى الحديث ومراكزه فى العالم الإسلامى ، إنه يقول ، وهو يتحدث عن حركة التنور والتسامح فى العالم الإسلامى (Liberalism) :

« إن من أهم أسباب حركة الحرية والإباحية التى تسود اليوم فى العالم الإسلامى ومن أكبر عواملها نفوذ الغرب ، فقد بلغت هذه الحركة أوجها فى أوروبا من أواخر القرن التاسع عشر إلى الحرب العالمية الأولى ، وهكذا شأن نهضة أوروبا وتقدمها ، وقد سافر كثير من الشباب المسلم إلى الغرب واطلعوا على روح أوروبا وقيمها وأعجبوا بها إلى حد ، وينطبق هذا بخاصة على الطلاب الذين درسوا فى جامعات أوروبا بعدد لم يزل يزداد مع الأيام ، وهم الذين سببوا استيراد كثير من أفكار الغرب وقيمه إلى العالم الإسلامى ، وقد حازت قصب السبق فى هذا المضمار تلك المعاهد الثقافية التى قامت بتربية جيل بأكمله على النمط الغربى الحديث ، وكان مما صدره الغرب إلى العالم الإسلامى تلك الأفكار المتعددة الجديدة التى تقع من الأهمية والدقة بمكان ، والاتجاهات العقلية الدقيقة الفجة ، والميول الحديثة التى كان فى نشرها أوفر نصيب لنمط التعليم الغربى الحديث ، ويفوقها فى ذلك تأثير معاهد الغرب الحقوقية والسياسية والاجتماعية الجديدة ونفوذها الزائد ، ومنها ما يسلط إجبارا ، وما يحاول تسليطه ، وبينما قام بعض المسلمين لمقاومة هذا التيار رحب به البعض الآخر ، إن بعضهم قد وقع تحت تأثير هذه التربية رسمياً ، وبعضهم قد رحب بهذا التيار بدافع من أنفسهم ، وأنتج ذلك أن كثيرا من المسلمين اعترفوا

---

(١) My life, A. Fragment, P. 23-24 .

بهذه النظريات والمعاهد كحقيقة ثابتة ، وخضعوا لها بالتدريج ، وهكذا استمر عمل التغريب بسرعة وقوة بالفتين[١] » .

لقد جرف تيار نظام التعليم الغربى الشباب الإسلامى فى البلاد العربية والعجمية (الذين كانوا زبدة أمتهم وزهر بلادهم) وغير عقليتهم إلى حد أن عقولهم أصبحت لا تستطيع أن تسيغ الإسلام الصحيح ، وأصبحوا لا يندمجون فى المجتمع الإسلامى أيضاً ويصبحون جزءاً منه ، ويشير إلى ذلك « إقبال » بقوله :

« إن سحر الإفرنج ، أو فنه أذاب الصخور وأسالها ماء » .

إن الإلحاح على كون الدين قضية شخصية لا علاقة لها بالدولة والحكم ، والمعاملة مع الإسلام كمعاملة الكنائس المسيحية ، ونظرية فصل الدين عن الدولة ، والاعتقاد بأن الدين عائق فى سبيل النهضة والاكتشافات والتحقيق ، وإقامة علماء الإسلام فى صف ممثلى الكنيسة المسيحية الذين كانوا يملكون السلطة المطلقة فى العصور المتوسطة ، وإعطاء المرأة حق الأسهام فى جميع أمور الحياة فى كفاحها والخروج مع الرجل متكاتفة متساوية ، وجعل الحجاب — فى أى شكل كان — تذكاراً لنظام الحرم القديم فى الشرق ، وعلامة استبداد الرجل بالمرأة ، والقضاء عليه خطوة أولى نحو الاصلاح والتقدم ، والاعتقاد بأن قانون الوراثة والنكاح والطلاق اجتهاد فقهاء المسلمين فى العصور المتوسطة ونتيجة طبعية للمجتمع البدائى المحدود الذى وجد فى القرنين السابع والثامن الميلاديين ، وإدخال التغيير والاصلاحات فى ذلك المجتمع وصوغه فى قالب المجتمع الغربى بتطبيق المبادىء الغربية ومعاييرها عليه ، فريضة الساعة وواجب الوقت ، وصرف النظر عن الربا والخمر والميسر ، وعن العلاقات الجنسية المنطلقة ، والايمان بالقومية والاندفاع نحو إحياء الحضارة القديمة واللغات العتيقة ، والايمان بأهمية الخط اللاتينى وفوائده ، كل هذه النزعات

---

(١) المصدر المذكور ص ٦٤ .

والاتجاهات وما أشبهها التى تحتل محل الحقائق الثابتة لدى الجيل المثقف،وتعد من أمارات التنور والنهضة والتقدم ، كل ذلك نتيجة نظـام التعليم الغربى وبيئته الفكرية وجـوه العلمى والعقلى وتراثه التاريخى ليس غير .

إن القادة وولاة الحكم فى البلاد المسلمة كلهم إنتاج نظام التعليم الغربى ووليد حضارته ، أما الذين لم يتح لهم أن يتثقفوا فى بلد أوروبى وينشأوا فى بيئته فإنهم تعلموا فى مراكز هذا التعليم فى بلادهم ، وتثقفوا بها تحت إشراف ممثليه الكبار ورقابتهم ، إن بعضهم تخرجوا فى الكليات الحربية التى يعنى فيها بالتعليم والتربية الغربيـة عناية فائقـــة .

وذلك هو السر فى أن العالم الإسلامى اليـــوم يتأرجح بين عقليتين وفلسفتين ووجهتين مختلفتين تتصارعان دائمـاً ، وهذا الصراع ينتهى فى أغلب الأحوال بانتصار فئة هى أكثر قـوة وأكثر تسلحاً ، إنه صراع طبعى ، وهـو إن استحق الأسف فلا يستحق الاستغراب أبداً ، بل كان موضع الدهشة والاستغراب إذا لم ينشأ الصراع ولم توجد هذه النزعة إلى التجدد و « التغريب » .

حل المشكلة :

وحل هذه المشكلة — مهما تعقد وطال واحتاج إلى الصبر والمثابرة — ليس إلا أن يصاغ هذا النظام التعليمى صوغاً جديداً يلائم عقائد الأمة المسلمة ومقومات حياتها وأهدافها وحاجاتها ، ويخرج من جميع مواده روح المادية والتمرد على الله ، والثورة على القيم الخلقية والروحية وتعبد الجسم والمادة ، وينفخ فيه روح التقوى والانابة إلى الله ، وتقدير الآخرة ، والعطف على الإنسانية كلها ، فمن اللغة والأدب إلى الفلسفة وعلم النفس، ومن العلوم العمرانية إلى علوم الاقتصاد والسياسة لا تسيطر إلا روح واحدة ، ويقصى الغرب العقلى ويكفر بإمامته وسيادته ، وتجعل علومه ونظرياته موضـع الفحص والدراسة

الجريئة(١) ويوضح ماذا جنى نفوذ الغرب وسيطرته على الإنسانية والمدنية ، وتدرس علومه بشجاعة وحرية ، وتعتبر كمواد خام (Raw material) نصنع منه ما يوافق حاجاتنا ورغباتنا ، وعقيدتنا وثقافتنا .

إن هذا العمل ، ولو كانت فى طريقه عقبات وعراقيل ، ولو تأخرت نتائجه ، ولكنه حل وحيد للموجة الطاغية التى قد اكتسحت العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه ، موجة التجدد والتغرب التى تتحدى الكيان الفكرى للإسلام وجهازه الاجتماعى ، وظلت تهدد حياته وبقاءه ، ونتيجة لذلك أصبحت عاطفة الشعوب المسلمة وتضحياتها وجهودها وإخلاصها ووفاؤها (التى هى السبب المباشر الأساسى فى إنشاء الحكومات الإسلامية وتحرير البلاد المستعمرة) وقوداً حقيراً فى نار التجدد والتغرب ، وأصبحت الجماهير المسلمة السليمة المخلصة المتحمسة الصامتة قطعانا من الغنم يحكم فى رقابها هؤلاء القادة والولاة وتساق إلى أى هدف فى صمت وهدوء .

لقد كان السر فى نجاح الحكم الأجنبي فى الشرق الإسلامى واستمراره طبقة الضباط والموظفين الكبار والحكام الذين ربوا تربية غربية خالصة ونشأوا على الطاعة والنظام ، إنهم وضعوا نظام هذه البلاد ، ومارسوه مائة سنة حسب رغبة ولاتهم الأجانب وفكرتهم وثقافتهم ، فالطريق إلى تغيير اتجاه البلاد الإسلامية والعودة بها إلى الحياة الإسلامية أن يهتم بتعليم هذه الطبقة الإسلامية وتربيتها على أسس الإسلام ، فإنها الطبقة التى تتحكم فى البلاد ، وأن نصلح نظام التعليم الذى يخرج هؤلاء الأشخاص ! .

لقد أصبح من المقرر فى كل بلد واع حريص على سلامته وشخصيته أن المعارف

---

(١) إن كتاب « القرآن والعلم الحديث » للدكتور رفيع الدين نموذج لهذا الأسلوب ، كما توجد هذه الدراسة الجريئة والنقد الحر فى كتاب : « الاسلام على مفترق الطرق » للأستاذ محمد أسد ، وكتاب « تنقيحات » بالأردية و « [illegible] » للأستاذ أبى الأعلى المودودى ، و « العدالة الاجتماعية فى الاسلام » لسيد قطب .

ليست إلا جهازاً يغرز المعانى والأسس التى يؤمن بها هذا الشعب ودرجت عليها أجياله ويعيش بها وفيها فى التاريخ الماضى وفى العالم المعاصر ، فمن أول واجبات نظام التربية فى جميع البلاد المتمدنة الواعية أن يغرز هذه العقائد والحقائق فى قلوب الناشئة ويغذيها حتى يؤمن بها كحقائق علمية ويتحمس فى سبيل الدعوة إليها والمثابرة عليها ، وقد أصبح من المقرر عند أساطين التعليم الحديث فى الغرب أن كل شعب من شعوب العالم إنما يصوغ نظامه التعليمى وفق نظرية الحياة التى يؤمن بها، فيقول Sir Percy Neion الذى يحتل الصدارة بين خبراء التعليم فى بريطانيا فى مقالة له لدائرة المعارف البريطانية :

« لقد سلك الناس مسالك مختلفة فى التعريف بالتعليم ، ولكن الفكرة الأساسية التى تسيطر عليها جميعاً أن التعليم هو الجهد الذى يقوم به آباء شعب ومربوه لإنشاء الأجيال القادمة على أساس نظرية الحياة التى يؤمنون بها .

« إن وظيفة المدرسة أن تمنح للقوى الروحية فرصة التأثير فى التلميذ، القوى الروحيه التى تتصل بنظرية الحياة ، وتربى التلميذ تربية تمكن من الاحتفاظ بحياة الشعب وتمديدها إلى الأمام » .

إن جون ديوى John Dewey الذى كان تأثيره فى نظام التربية الأمريكى أكبر من تأثير كل رجل فى هذا العصر ، يقول فى كتابه « الديمقراطية والمعارف » (Democracy and Education) إن الأمة إنما تعيش بالتجديد وإن عمل التجديد يقوم على تعليم الصغار ، إن هذه الأمة بطرق متنوعة تكون من الأفراد الأميين ورثة صالحين لوسائلها ونظرية حياتها وتصوغهم فى قوالب عقائدها ، ومناهج حياتها » .

ويقول البروفسور كلارك (Prf Clark) : « مهما قيل فى تفسير المعارف فما لا محيص عنه أنه سعى للاحتفاظ بنظرية سبق الايمان بها ، وعليها تقوم حياة الأمة وجهادها فى سبيل تخليدها ، ونقلها إلى الأجيال القادمة » .

لذلك ليس من المعقول وليس من الجائز أن تستورد أمة لها شخصيتها ورسالتها، ولها عقائدها ومناهج حياتها، ولها طبيعتها ونفسيتها، ولها تاريخها وماضيها، ولها محيطها الخاص وظروفها الخاصة، نظاماً تعليمياً من الخارج، ولا أن تكل وظيفة التعليم والتربية وتنشئة الأجيال وصياغة العقول إلى أناس — مهما بلغوا من البراعة في تدريس مواد تعليمية، وإتقان اللغات والفنون — لا يؤمنون بهذه الأسس والعقائد، ولا يتحمسون لشرحها وتعضيدها، يقول الأستاذ الأمريكي الدكتور (Dr.J.B. Conant) في كتابه التعليم والحرية (Education and Liberty) :

« إن عملية التعليم ليست عملية تعاط وبيع وشراء، وليست بضاعة تصدر إلى الخارج أو تستورد إلى الداخل، إننا في فترات من التاريخ خسرنا أكثر مما ربحنا باستيراد نظرية التعليم الإنجليزية أو الأوروبية إلى بلادنا » .

وعلى هذا الأساس يتفق المعسكران الشرقي والغربي، وقد سبق من أقوال خبراء التربية وقادة الفكر في أوروبا وأمريكا مادل على وجهة نظرهم إلى المعارف، وأنها ليست إلا أداة مؤثرة قوية لترسيخ العقيدة ونظر الأمة إلى الحياة والكون وتعميق جذورها في قلوب الناشئة ونفوسها، ونقل التراث العقلي والعقائدي والاجتماعي إلى الاجيال القادمة، وإقناعها بضرورة الاحتفاظ بها، والمثابرة عليها، والجهاد في سبيلها، فأما المعسكر الشرقي الذي اشتهر بالثورة على جميع الاسس والقيم، ونقض القديم، وبلبلة الافكار، فإنه ليس أقل تمسكاً بهذه النظرية نظرية التطبيق بين التعليم والعقيدة التي يختارها والفلسفة التي آمن بها، وإخضاع نظام التربية كله لهذا الغرض، وصوغه في قالبه صياغة دقيقة متقنة — من المعسكر الرأسمالي المنافس، فيقول عالم طبيعي من كبار علماء البلاد السوفيتية (Mc Govern) :

« إن العلم الروسي ليس قسماً من أقسام العلم العالمي، يشغل في البلاد السوفيتية، إنه

قسم منفصل قائم بذاته ، يختلف عن سائر الأقسام كل الاختلاف ، فإن سمة العلم السوفيتى الأساسية ، أنه قائم على فلسفة واضحة متميزة ، إن التحقيقات العلمية لا تزال فى حاجة إلى أساس ، وإن أساس علومنا الطبيعية الفلسفة المادية التى قدمها ماركس وانجلز ولينين وستالين ، إنا نريد أن نخوض (وفى أيدينا هذه الفلسفة) فى معترك العلم الطبيعى ونصارع جميع التصورات الأجنبية ، التى تناهض فلسفتنا المادية الماركسية بكل عزم وقوة(١) »

ومن المآسى التى تحير العقل وتجرح القلب أن تظل الأقطار الإسلامية وحدها فى فوضى تعليمية ، وغموض والتباس ، بل فى تناقض ومصارعة بين العقائد والحقائق ، التى تؤمن بها ، والغايات والأهداف التى خلقت لأجلها ، والرسالة والدعوة التى تحتضنها ، وبين نظام التربية الذى تطبقه والنظريات التى تستوردها ، والأساتذة الذين لا يؤمنون بها ، وعلى الأقل لا ينشطون فى تدعيمها وتنميتها ، ولا تفكر فى التطبيق بين العقيدة التى تتمسك بها ، وبين التعليم الذى تنفق عليه أكبر جزء من امكانياتها ، ووسائلها ، مع أنها كانت بحملها الرسالة الأخيرة والأمل الأخير للإنسانية أجدر بهذا التطبيق وأحرص على إزالة جميع العناصر التى تجنى على شخصيتها ، ومقومات حياتها ، ومستقبل أجيالها ، وأغير على عقيدتها ودينها ، من الشعوب الغربية بما فيها من الشيوعية والرأسمالية ، والتى تتناولها دائماً بالتغيير والتحوير ، وتعيش هذه الأقطار متطفلة على مائدة الأمم الأجنبية والنظم الدخيلة ، تقتبس منها وقد تطبقها بحذافيرها ، ولم تفكر إلى الآن فى إخضاع جهاز التربية لرسالتها السماوية ، وعقائدها الثابتة ، وعلومها المعصومة عن الخطأ والضلال ، وإزالة جميع العقبات فى سبيل هذا الوئام ، والتعاون بين العلم والدين ، وتتصارعه القوى المضادة ، والموجهون للتنافرون ، ويسيطر عليها الفصام النكد بين العلم والدين ، والصراع المستميت بين الحقائق الغيبية والمحسوسات المادية ، وبين الايمان والشك ،

---

(١) (From Hitler to Britber)

وبين الإسلام والنفاق ، وبين الخلق والثبات ، والاستغلال والانتهازية ، وشعر بضرورة ذلك بعض علماء الغرب المنصفين ، فقال أحد كبار أساتذة الإسلاميات فى أمريكا (Charles L. Gedder) فى كلمته التى ألقاها فى ١٣ مايو عام ١٩٦٦ م فى كراتشى :

« إن الإسلام يملك جميع الخصائص التى تستطيع أن تنشر السلام والانسجام فى العالم ، إن الغرب يؤمل من المسلمين الذين يحملون الدين الذى أنزله الله ، وكان لهم ماض مجيد مشرق أن يقدموا مبادىء الحياة وفلسفتها إلى الغرب — وبذلك يستطيعون أن يحملوا راية السلام التى عينت لهم فى عالم الغد » .

وذلك لا يكون إلا بإنشاء الجيل المؤمن المثقف الذى يجمع بين العقيدة والعلم ، ويؤمن بخلود رسالته وصلاحيتها لكل جيل وعصر ، وإنها هى المنقذة للعالم من النهاية الأليمة التى ترتقبه ، ومن المستنقع الذى يتردى فيه ، وذلك لا يمكن كما لا يخفى إلا بوجود نظام التربية يقوم على تطبيق بين العقيدة والثقافة ، وبين قوة العاطفة ، وإشراق الروح ، والتهاب جذوة الإيمان ، وبين العلم الواسع ، والفكر النير ، ومعرفة أحدث ما وصلت إليه الأجيال البشرية من تجربة واكتشاف .

المستشرقون ونفوذهم فى ميدان التفكير :

المستشرقون وعلماء الغرب الذين كرسوا حياتهم على دراسة العلوم الإسلامية ، ويملكون إعجاب الأوساط العلمية فى الشرق والغرب وإجلالها وتقديرها ، ويقام لآرائهم ونظرياتهم فى البحوث الإسلامية فى الشرق وزن كبير أثاروا فى قلوب قادة العالم الإسلامى اليوم وزعمائه — ممن تثقفوا فى مراكز الغرب الثقافية الكبرى أو درسوا الإسلام بلغات الغرب — شبهات حول الإسلام والمصادر الإسلامية ، وأحدثوا فى نفوسهم يأساً عن مستقبل الإسلام ، ومقتاً على حاضره ، وسوء ظن بماضيه ، كما أن لهم سهواً كبيراً فى الحث على نعرة « إصلاح الديانة » و « إصلاح القانون الإسلامى » .

إن تاريخ هذا الاستشراق قديم يرجع إلى القرن السادس عشر الميلادى بالوضوح، والعوامل التى كونت هذا التاريخ إنما هى دينية وسياسية واقتصادية ، أما العامل الدينى فواضح لا غموض فيه ، وهو يهدف إلى نشر الديانة المسيحية وتبليغ دعوتها ، وتصوير الإسلام تصويراً يثبت فضل المسيحية ورجحانها على الإسلام ، ويبعث فى الطبقة المثقفة إعجاباً بالمسيحية وحرصاً عليها ، ولذلك نرى أن الاستشراق و« التبشير » يسيران معاً فى أغلب الأحوال ، وأن عدد المستشرقين الأكبر أساقفة ، وعدد كبير منهم يهود ديانة وجنسا .

والعامل السياسى هو أن المستشرقين بصفة عامة كانوا رواد الدول الغربية فى الشرق، ومن واجبهم أن يمدوها بمددهم العلمى ، وكانوا مصادر وثيقة للغرب يطلع بها على تفاصيل ومعلومات عن تقاليد الشعوب الشرقية وبلدان الشرق ، وعن طبيعتها ومعيشتها ، ولغاتها وآدابها ، حتى عواطفها ونفسياتها ، وذلك ليتسنى للغرب أن يبسط نفوذه وسلطته فى الشرق.

وزد إلى ذلك مايقوم به هؤلاء المستشرقون من الرد على الأفكار والعقائد وقمع الحركات والأوضاع التى تسبب للدول الغربية صداعاً وعرقلة ، وتحدث لها مشكلات وعقبات ، ويحاولون خلق جو لا تكاد تخطر فيه معارضة ، بل تحدث هالة من التقديس والإجلال حول حضارتهم، حتى يعترفوا بمآثرهم وجلائل أعمالهم، ينبعث فيهم دافع الاقتداء والتقليد الذى يحملهم على الاقتفاء بآثارهم فى سبيل إصلاح البلاد وترقيتها ، وتظل سلطة حضارتهم وعقليتهم مضمونة على النفوس ، رغم ذهاب دولهم ونهاية حكمهم .

ولذلك فقد شعرت الدول الغربية بقيمة المستشرقين ومكانتهم شعوراً كاملا وساعدهم زعماؤها عن كل طريق ممكن ، ولتحقيق هذا الغرض يصدر المستشرقون من مختلف أقطار الغرب عدة مجلات ورسائل حول العالم الإسلامى ، ينشرون فيها مقالات تحليلية ومواد تحقيقية تبحث عن مشكلات العالم الإسلامى وميوله ونزعاته ، ولا تزال تصدر مجلة

« الشرق الأوسط » (Journal of Near East) ومجلة « العالم الإسلامى » (The Muslim World) من أمريكا ، ومجلة (Le Monde Musulmans) من فرنسا .

كما أن هناك عاملا اقتصادياً للاستشراق يتخذه كثير من المثقفين كمهنة ناجحة ، وكثير من أصحاب المكتبات التجارية والقائمين عليها ، يشجعون نشر المؤلفات والكتب التى تدور حول الإسلاميات والشرقيات ويشرفون على نشرها لما يرون لها من سوق نافقة فى أوروبا وآسيا ، وتنال هذه المؤلفات من القبول والإعجاب مايجعلها عظيمة الانتشار ، كثيرة الذيوع ، وهى لاشك وسيلة لتجارة رابحة ، وكسب أموال خطيرة .

غير أن عدداً من المثقفين يتبنون موضوع الشرقيات والاسلاميات دون تأثير هذه العوامل ، وبمجرد ذوقهم وشغفهم بالعلم ، ويبذلون فيه جهوداً ضخمة ، ويكون من المكابرة والتقصير ألا ينطلق اللسان بمدحها والثناء عليها ، وبفضل جهودهم برز كثير من نوادر العلم والمعارف التى لم تر الشمس منذ قرون ، إلى النشر والاذاعة ، وأصبحت مصونة من الورثة الجاهلين وعاهة الأرضة ، وكم من مصادر علمية ووثائق تاريخية لها مكانتها وقيمتها صدرت لأول مرة ، بفضل جهودهم ، وقرت بها عيون العلماء فى الشرق .

ورغم هذا الاعتراف بفضلهم وعلمهم لا يمنع الكاتب شىء من أن يصرح أن طائفة المستشرقين هى التى لم يرافقها التوفيق الالهى فى غالب الأحيان على ما درسته من علوم القرآن والسنة والسيرة النبويه والفقة الاسلامى والأخلاق والتصوف ، وغاصت فى أحشائها ، ولكنها خرجت صفرة اليد لا حظ لها من الايمان واليقين ، بل وزادت الفجوة بينها وبين هذه العلوم لما أضمرته فى قلبها من عداوة للإسلام ، وبعد عن الحق ، وأكبر سبب

لذلك هو أن ثمرة الأعمال تابعة لغايتها وهدفها ، والمعلوم أن غاية هؤلاء المستشرقين بوجه عام إنمـا هى البحث عن مواضع الضعف وإبرازها لأجل غاية سياسية أو دينية ، فلا يرون فى مدينة ذات بهجة إلا المزابل والمراحيض ، كما هو دأب مفتش النظافة فى كل مكان .

وليس حرمان هؤلاء المستشرقين محدوداً إلى ذواتهم فحسب ، ولو كان ذلك وحده لم ينل منا هذا الاهتمام ، ولـكن الناحية المهمة ذات التأثير العميق لهذه القضية هى أن المستشرقين يركزون كل جهودهم ومساعيهم على تعريف مواضع الضعف وتمثيلها فى صورة مروعة مضخمة ، إنهم ينظرون إليها عن طريق الآلة المكبرة ويعرضونها كذلك للقراء حتى يروا الذرة جبلا ، والنقطة بحراً ، وقد ظهرت حذاقتهم وذكاؤهم فى تشـــويه صورة الاسلام .

ومن دأبهم أن يعينوا لهم غاية ويقرروا فى أنفسهم تحقيق تلك الغاية بكل طريق ، ثم يقوموا لها بجمع معلومات — من كل رطب ويابس — ليس لها أى علاقة بالموضوع ، سواء من كتب الديانة والتاريخ أو الأدب والشعر أو الرواية والقصص ، أو المجون والفكاهة ، وإن كانت هذه المواد تافهة لا قيمة لها ويقدمونها بعد التمويه بكل جراءة ، ويبنون عليها نظرية لا يكون لها وجود إلا فى نفوسهم وأذهانهم .

إنهم فى أغلب الأحيان يذكرون عيباً واحداً ويجودون لتمكينه فى النفوس بذكر عشرة محاسن ، وذلك كى يخشع القارىء أمام سمة قلبهم وسماحتهم ، ويسيغ ذلك العيب الواحد الذى يكفى لطمس جميع المحاسن ، إنهم يصورون بيئة دعوة أو شخصية ، وتاريخها ، وعواملها الطبيعية بلباقة وبلاغة تصوران أن هذه الدعوة والشخصية لم تكن إلا نتاج هذه البيئة أو العوامل ورد فعلها الطبيعى ، فينكر القارىء أى اتصال بمصدر غير مادى ولا يعترف لها بقدس وعظمة ، وكثير من هؤلاء المستشرقين يدسون فى كتاباتهم مقداراً خاصاً من « السم » ويحترسون فى ذلك فلا يزيد على النسبة المعينة لديهم حتى

لا يستوحش القارىء ولا يثير ذلك فيه الحذر ولا يضعف ثقته بنزاهة المؤلف، إن كتابات هؤلاء أشد خطراً على القارىء من كتابات المؤلفين الذين يكاشفون العداء ، ويشحنون كتبهم بالكذب والافتراء ، ويصعب على رجل متوسط في عقليته أن يخرج منها أو ينتهى من قراءتها دون الخضوع لها .

لقد قام المستشرقون بعملية التحقيق فى كل موضوع من مواضيع الكتاب والسنة والسيرة النبوية ، والفقه والكلام ، كما تحدثوا عن الصحابة الكرام والتابعين والأئمة المجتهدين ، والمحدثين والفقهاء ، وللمشائخ والصوفية ، ورواة الحديث ، وعن فن الجرح والتعديل ، وأسماء الرجال ، وحجية السنة ، وتدوينها ، ومصادر الفقه الاسلامى ، وتطوره فى أسلوب لا يخلو عن التشكيك و إثارة الشبهات ، ويكفى لزعزعة العقيدة والترغيب عن الاسلام لرجل ذكي ليس له نظر عميق فى هذا الموضوع ، ولسنا الآن بصدد استعراض علمى و إيضاح تحريفاتهم وأخطائهم الفنية ودجلهم وتلبيسهم ، فإنه لا شك موضوع علمى مهم ، وخدمة دينية عظيمة ، تحتاج إلى مجمع علمى منظم .

ويكفى أن نقدم الآن ملخصاً لدعوتهم وتربيتهم — بغاية إيجاز — التى يعرضونها على قرائهم المثقفين والشباب الناهض مراراً وتكراراً بعناوين مختلفة ، وتسيغها عقول هؤلاء الشباب كحقيقة بديهية معقولة ، ولأن هذه الدعوة والتربية لها صلة قريبة بحركات الاصلاح والتجديد فى الأقطار الاسلامية ، ولا يمكن فهمها والاطلاع على حقيقتها بدون ذلك، نقدم فى هذه المناسبة ذلك الملخص مقتطفاً من كتاب العالم المصرى الدكتور محمد البهى الذى جمعه فى كتابه « الفكر الاسلامى الحديث » ، يقول :

١ — إن المجتمع الإسلامى ، فى صلته بالإسلام لم يكن على نحو قوى إلا فى فترة قصيرة ، هى الفترة الأولى على عهد بدائية المجتمع الإسلامى ، وبدائية هذا المجتمع هى التى أوجدت نوعاً من التلاؤم بين الحياة فيه وتعاليم الإسلام ، ثم بعد مضى هذه الفترة القصيرة البدائية اتسعت الفجوة بين الطرفين : بين المجتمع والإسلام ، كمصدر توجيه فى الحياة ،

وكلما تطورت الحياة للمجتمع الإسلامى بفعل العوامل الخارجية ، الثقافية والسياسية الاقتصادية ، تخلف الإسلام عن أن يجارى تطور الحياة لهذا المجتمع ، وما زالت الفجوة تتسع حتى أعلنت تركيا الحديثة — مقر آخر خلافة إسلامية — إبعاد الاسلام عن مجال الحياة العامة ، وتركه فى ضمير الفرد مستوراً ، لا يعبر عنه الفرد إلا لنفسه فقط ، وفى غير إعلان أو حماسة .

٢ — إن التخلف عن تنفيذ تعاليم الإسلام ، تمليه الضرورة الاجتماعية تحت ضغط ظروف الحياة المتجددة التى لم يستطع الإسلام أن يكيفها فى ضوء تعاليمه ، ولم يستطع أن يلائم بين تعاليمه وبينها ، والتشدد فى تطبيق تعاليم الإسلام معناه إذن : العزلة فى الحياة ، والتخلف فى استخدام وسائل الحضارة ، والترحيب بالفقر والمرض والجهل ، لسكان المسلمين على نحو ما هو الحال ببلاد المملكة العربية السعودية ، إذ هى البلد الوحيد بين بلاد الإسلام التى جعلت الحكومة الرسمية تعبيراً عملياً عن الإسلام ، وإذن هى النموذج فى تطبيق الإسلام .

٣ — إن التطور ، وهو قانون الحياة العام الذى لا مفر من الخضوع له ، يجب أن يستخدمه المسلمون فى إسلامهم ، ليسايروا العالم الغربى الحديث ، ولينجوا من أسباب الضعف والفساد ، ويجب لهذا أن يتطوروا بالإسلام نفسه كدين .

الجماعة الإسلامية — كى تتطور — يجب أن تسير وفق المثل الغربية وتتفاعل معها فى بيئتها الشرقية ، إذ أن اتجاهات الغربيين فى الفكر ، وفى الحياة ، قامت على مجموعة من التجارب الإنسانية ، واستخدموا فى تكوينها الطريقة « العلمية » وهى الطريقة التى لا تتأثر بخرافة أو عقيدة خاصة ، مستهدفة خير الإنسانية وحدها .

وقد شعر المستشرقون بعد تجربة طويلة امتدت نحو قرنين أن الطريقة التى مارسوها فى تطوير عقلية المسلمين وتسييرها وفق المثل الغربية والاتجاهات المادية لم تنجح حتى

النجاح ، وعثروا على الخطأ الأساسى الذى سبب لهم بعض الإخفاق وجعل جهودهم لم تثمر كل الاثمار ، بل قد واجهت بعض الأحيان رد فعل عنيف، من الأوساط الإسلامية كان خطراً كبيراً من وجهة نظر الدعوة التبشيرية ، فما زالوا يستعرضون جهودهم ونتائجها وتأثيرها فى ضوء التجربة والواقع حتى توصلوا إلى أن يحدثوا فى طريقتهم وأساليب دعوتهم تغييراً أساسياً ، وذلك بأن يقدموا للإسلام تعبيرات جديدة ويدعوا إلى حركة إصلاح الديانة بدلا من أن يغيروا عقلية المسلمين ويقوموا بتطويرها ، وأن تنال جميع حركات التجديد وإصلاح الديانة حينما وجدت تشجيعاً وتأييداً منهم .

ويدل على هذا التغيير فى العقلية ، والطريقة الجديدة التى ابتكروها العبارة التالية التى نقتطفها من كتاب (Towards Understanding Islam) للكاتب (Harry Gaylord Dorman) ، يقول :

« يتوقع من المبشرين فى الأقطار الاسلامية فى ظرف عدة أعوام أن تثمر جهودهم فى تجديد الاسلام وتطويره أكثر من تطوير عقلية المسلمين وتغييرهم ، ومما لاشك فيه أن هذا مجال واسع مفتوح للعمل ، لايغفل عنه فى أى حال » .

ولو تأملنا قليلا ظهر أن حملة لواء الاصلاح والتقدم (قادة التجديد والتغريب) الذين نشأوا فى العالم الاسلامى فى ظرف نصف قرن مضى ، تتجلى فى أفكارهم وآرائهم وأساليب حياتهم روح هؤلاء المستشرقين ودعوتهم وتربيتهم ، حتى أننا نستطيع القول بأن أفكار المستشرقين إنما هى أساس تفكير هؤلاء القادة ومبدأ عملهم .

إن هؤلاء المستشرقين إنما أضعفوا مثل الاسلام وقيمه العليا فى جانب ، وأثبتوا تفوق المثل الغربية وعظمتها فى جانب آخر ، إنهم فسروا تعاليم الاسلام تفسيراً يضعف

قيمة القيم الاسلامية ، ويضعف علاقة المسلم المثقف بالدين ويقع فريسة الارتياب والشك بالاسلام ، أو يضطر إلى الاعتراف بأن الاسلام لايتفق وطبيعة الحياة الحاضرة ، وإنما هو عاجز عن مسايرة حاجات العصر ومقتضياته ، وبينما يقول هؤلاء المستشرقون : إن من التشبث بالتقاليد والعض عليها بالنواجذ والرجعية أن يعمل الانسان بالإسلام -- الذى هو دين الله المختار الخالد — فى هذا العصر الراقى المتقدم المتطور بسرعة وفى استمرار ، إذا هم يدعون الناس إلى إحياء الحضارات العتيقة الغارقة فى التاريخ القديم ، وإحياء اللغات البالية التى فقدت كل صلاحيتها للبقاء ، ودفنت تحت أنقاض الماضى السحيق منذ آلاف السنين ، ولم يكن الغرض بمثل هذه البرامج إلا أن يضطرب حبل المجتمع الإسلامى وتتمزق وحدة الإسلام، وتواجه الحضارة الاسلامية واللغة العربية ضرراً، وتنال الجاهلية القديمة حياة من جديد ، وقد نجحت كتاباتهم وجهودهم فى إنشاء طائفة من تلاميذهم الذين قاموا بحركة إحياء الحضارة الفرعونية ولغتها فى مصر ، والحضارة الآشورية ولغتها فى العراق ، والبربرية فى إفريقيا الشمالية ،والفينيقية فى سواحل فلسطين ولبنان ، ووجد لها دعاة وأتباع .

يقول « جب » فى كتابه : (وجهة الاسلام) :

« . . وقد كان من أهم مظاهر فرنجة العالم الاسلامى تنمية الاهتمام ببعض الحضارات القديمة التى ازدهرت فى البلاد المختلفة التى يشغلها المسلمون الآن ، فمثل هـذا الاهتمام موجود فى تركيا وفى مصر وفى إندونيسيا وفى العراق وفى إيران ، وقد تكون أهميته محصورة الآن فى تقوية شعور العداء لأوروبا ، ولكن من الممكن أن يلعب فى المستقبل دوراً مهماً فى تقوية الوطنية الشعوبية وتدعيم مقوماتها » — (ص٣٤٢) .

ويقول الأستاذ محمد محمد حسين فى كتابه (الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر) معلقاً على دعوة الفرعونية في مصر التى نشطت في مصر فى أوائل هذا القرن :

« .. واجتاحت مصر موجة من الفرعونية تحاول أن تغزو سائر النواحي الثقافية، وتدعو إلى إقامة الفنون على أسس فرعونية ، وتزعمت صحيفة « السياسة الأسبوعية » هذا الاتجاه الجديد ، فأفسحت صدرها لدعايته ، وأعان عليه رئيس تحريرها محمد حسين هيكل فى شطر كبير من حياته [١] »

أولئك هم المستشرقون وتلاميذهم الذين بدأوا يقولون بكل قوة :

« إن لغة القرآن العربية الفصحى إنما هى لاتساير حاجات العصر ، فيجب أن تعم اللغة العامية حتى تصبح لغة الجرائد والمؤلفات ».وقد تكررت منهم هذه الدعوة بصورة شائقة جذابة كسبت تأييد المثقفين فى مصر وأوقفتهم بجانبها ، وقد عنيت حكومات الاحتلال وبعيدو النظر من الولاة والمستعمرين والمفكرين الغربيين بهذا الموضوع عناية فائقة ، ونشطوا فى تحبيب هذه الفكرة وترويجها ، وقد كان لهذه الدعوة دوى فى مصر فى فجر هذا القرن أفزع كثيراً من المحبين للإسلام والغيارى فى اللغةالعربية، يقول الأستاذ محمد محمد حسين فى كتابه : « الاتجاهات الوطنية » :

« .. ثم هاجت المسألة مرة أخرى فى أوائل سنة ١٩٠٢ حين ألف أحد قضاة محكمة الاستئناف الأهلية فى مصر من الانجليز — وهو القاضى ولمور — كتاباً سماه لغة القاهرة ، وضع لها فيه قواعد ، واقترح اتخاذها لغة للعلم والأدب ، كما اقترح كتابتها بالحروف اللاتينية ، وتنبه الناس للكتاب حين أشادت به «المقتطف» فى « باب التقريظ والانتقاد » ، فحملت عليه الصحف ، مشيرة إلى موضع الخطر من هذه الدعوة التى لا تقصد إلا إلى محاربة الاسلام فى لغته ، وفى ذلك الوقت كتب

---

(١) الجزء الثانى من الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ص ١٣٥ .

حافظ ابراهيم قصيدته المشهورة ، التى يقول فيها ، متحدثاً بلسان اللغة العربية (١) :

رجعت لنفسى فاتهمت حصاتى
وناديت قومى فاحتسبت حياتى. الخ..

ويقول فى موضع آخر :

« .. وثارت المسألة من جديد ، حين دعا إنجليزى آخر ، كان مهندساً للرى فى مصر — وهو السير وليم ولكوكس — سنة ١٩٢٦ إلى هجر اللغة العربية ، وخطا بهذا الاقتراح خطوة عملية ، فترجم الانجيل إلى ما سماه « اللغة المصرية » ونوه سلامة موسى بالسير ولكوكس وأيده ، فثارت لذلك ثائرة النـــاس من جديد ، وعادوا لمهاجمة الفكرة ، والتنديد بما يكمن وراءها من الدوافع السياسية ، ولكن الدعوة استطاعت أن تجتذب نفراً من دعاة الجديد فى هذه المرة ، فاتخذوا القومية والشعبية ستاراً لدعوتهم ، حين كان لمثل هذه الكلمات رواج ، وكان لها بريق خداع يعشى الأبصار ، وحين كان الناس مفتونين بكل ما يحمل هذا العنوان فى أعقاب ثورة شعبية تمخضت عن « الفرعونية » ، وحين كانوا يتحدثون بما صنع الكماليون من استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية ، وترجمة القرآن للغة التركية وإلزام الناس بالتعبد به ، وتحريم تدريس العربية فى غير معاهد دينية محدودة وضعت تحت الرقابة الشديدة ، وقد مضوا من بعد فى مطاردة الكلمات العربية الأصل ينفونها من اللغة التركية كلمة بعد كلمة (٢) .

ولو نجحت هذه الدعوة لأنتجت توزع اللغة العربية بين لغات شتى ، وانقطاع صلة العرب عن القرآن والأدب الإسلامى ، وسبب للغة العربية أن تصبح لغة غريبة لهم ،

---

(١) ديوان حافظ إبراهيم ١ : ٢٥٢ .
(٢) الجزء الثانى : الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ص ٣٣٦ .

وتفقد مكانتها الدولية ، ويحرم العرب كلهم تراثهم الديني وروحه ، فيقعوا فريسة الإلحاد والردة والخلافات والاضطرابات بكل سهولة .

كما أنهم دعوا إلى اتخاذ الحروف اللاتينية مكان الحروف العربية ، وأثبت تلاميذهم ضرورته من حين لآخر ، وجهروا بذكر فوائده وفضله ، ووقع ذلك فعلا في مصر كنانة الإسلام ، وحصن العربية . يقول الأستاذ محمد محمد حسين :

« تقدم عضو من أبرز أعضاء المجمع العلمي المصري ، وهو عبد العزيز فهمي — ثالث الثلاثة الذين بنى عليهم الوفد المصري — في سنة ١٩٤٣ باقتراح الكتابة العربية بالحروف اللاتينية ، وشغل المجمع ببحث اقتراحه عدة جلسات ، امتدت خلال ثلاث سنوات ، ونشر في الصحف وأرسل إلى الهيئات العلمية المختلفة ، وخصصت الحكومة جائزة مقدارها ألف جنيه لأحسن اقتراح في تيسير الكتابة العربية [١] .

والمعلوم أن ذلك لا ينتج إلا حرمان الأمة العربية وجهلها بقراءة القرآن على وجه صحيح ، وفقدان التراث العلمي — الذي لا يوجد له نظير في سمته — قيمته وأهميته .

ونستطيع أن نعرف هدف المستشرقين ومدى أفكارهم ، ودقة نظرهم في تحقيق غرضهم وعدائهم السافر للإسلام بهذه الاقتراحات والتوصيات الآنفة الذكر ، وإن مؤلفات أغلبية هؤلاء المستشرقين تستأصل أسس الإسلام وتشكك في مصادره بما فيها الفقه والحديث ، وتحدث جو الاضطراب الفكري والارتياب في المجتمع الإسلامي ، وتبذر في في القلوب بذور الشك والريبة في تفقه حملة الإسلام وذكائهم (الفقهاء والمحدثين) وقد تحمل مؤلفاتهم من الأخطاء العلمية الفاحشة وسوء الفهم ، وعدم الرسوخ في اللغة وقواعدها ومن التحريف والتزوير ما يدعو إلى الضحك والعجب ، ولكن أكثر مؤلفاتهم نالت

---

(١) أيضا ص ٣٣٨

قبولا هاماً فى الشرق والغرب ، وأثارت إعجاباً فى الطبقة المثقفة الحديثة (وفيها عدد من المثقفين الناضجين) بحسن ترتيبها ، والاستنباط الدقيق للنتائج ، وطريقة عرضها العلمية، وهى طبقة لا تشفى غليلها مؤلفات علماء الشرق الأقحاح .

ولكى نعرف المكانة التى يحتلها علماء الغرب ، والثقة التى ينالونها فى الشرق يجب أن نعلم أن المجامع العلمية الثلاثة فى الشرق الأوسط، أعنى المجمع اللغوى فى مصر ، ومجمع اللغة العربية فى دمشق ، والمجمع اللغوى العراقى فى بغداد ، لكل واحد منها عدد وجيه من الأعضاء المستشرقين الذين يستفاد من آرائهم ودراستهم .

ومما يدل على ضعف العالم الإسلامى، والعربى وفقر وسائلهما العلمية أن هذين العالمين كليهما يعتمدان على مؤلفات المستشرقين فى المواضيع الإسلامية الخالصة منذ زمن بعيد ، وهى مؤلفات تحتل مكانة « الكتاب المقدس » (Gospel) فى موضوعها ، فإن كتاب ر . أ . نكلسن ، (R. A. Nicholson) فى موضوع تاريخ آداب العرب (A. Literary History) وكتاب الدكتور حتى (Dr H. P. Hitti عن تاريخ العرب والإسلام (History of Arabs) وكتاب كارل بروكلمان (Carl Brocklemann) فى تاريخ الآداب العربية (Ceschtirder Arabichen Literature) باللغة الألمانية وترجمتها إلى الإنجليزية باسم (The History of Ard Literature) وكتاب شاخت (Schacht) فى مصادر الفقه الإسلامى باسم : (The Hregins of Mohammadane Jurisprudence)

كل ذلك مما ينفرد فى موضوعه ، ويعد مصدراً علمياً له ، أهميته وقيمته بجامعات الشرق فى قسمها العربى والإسلامى ، وعليه أكبر اعتماد المؤلفين فى الأقسام الإسلامية فى الجامعات .

إن « دائرة المعارف الإسلامية » التى ألفها المستشرقون ولو كان فيها لبعض المسلمين

إسهام ضئيل) ، وصدرت منها طبعات متعددة ، فى أوروبا وأمريكا ، تعد أكبر مصدر للمعلومات والحقائق الإسلامية ،وأثمن ذخيرة لها ، وتعتبرها بعض البلاد الإسلامية اليوم (كمصر وباكستان) أساساً للمعلومات الإسلامية وتقوم بترجمتها إلى العربية والأردية .

ولسدّ تأثير المستشرقين الهدام ، وإصلاح هذا الفساد يجب أن يقوم علماء الإسلام من رجال البحث والتفكير بالكتابة حول الموضوعات العلمية ، ويقدموا للعالم الإسلامى المعلومات الإسلامية المؤكدة ، ووجهة نظر الإسلام الصحيحة ، مع مراعاة الجوانب المحمودة التى يمتاز بها المستشرقون ، بل والزيادة فيها ، كما يجب أن تكون كتاباتهم ومؤلفاتهم ممتازة من حيث اصالة التحقيق ، وسعة الدراسة ، وعمق النظر وتأكد المصادر وصحتها ، واستدلالها اللغوى بالنسبة لكتابات المستشرقين ومؤلفاتهم،وأن تكون حاملة لجميع نواحى الاستحسان ، بعيدة عن الأخطاء والنقائص العلمية .

ومما يجب أيضاً هو أن يقوم هؤلاء العلماء المفكرون باستعراض مؤلفات المستشرقين العلمية ومحاسبتها فى ضوء الحقيقة والواقع ، حتى ينكشف الغطاء عن تلبيساتهم ،وأخطائهم فى فهم النصوص وبيان المعنى ، ويبدو للناس ضعف مصادرهم التى يعتمدون عليها وأخطاء النتائج التى يستنبطونها منها ، ويطلعوا على ما يضمرون فى نفوسهم من عداء للإسلام ، وما يكنونه من أغراض سياسية ودينية فى خفايا دعوتهم وتربيتهم ، وكل ذلك مؤامرة على الاسلام والأمة الاسلامية يجب إحباطها .

أما بدون الجمع بين هذا العمل الإيجابى الذى يقتضى تأليف كتب تحليلية وأبحاث عميقة حول المواضيع الاسلامية ، وبين العمل السلبى (بالمحاسبة العلمية)فلا تتحرر الطبقة المثقفة فى العالم الإسلامى من تأثير أفكار المستشرقين المسمومة ، تلك الطبقة التى تعد من أذكى الطبقات فى العالم الاسلامى وأكثرها طموحاً ، والتى تدرس فى جامعات أوربا وأمريكا الكبرى ، أو فى جامعات بلادها ، وتحب دراسة الإسلام بلغات الغرب التى

تنقنها ، وما لم تتحرر هذه الطبقة المثقفة التي برزت تحت تأثير أفكار الغرب وعلمائه من تأثيرهم فلا تزال تواجه الأقطار الإسلامية عاصفة الاضطرابات العقلية،والردة الفكرية ، ويتبنى حملة التجديد والتغريب ، أفكارهم وآراءهم ، حتى إذا تمت لهم سلطة سياسية حاولوا تطبيق كل ما ينافي روح الإسلام على المجتمع وتنفيذه في الحكم ، ويشكلون بذلك مجتمعاً يشبه المجتمع الإسلامي القديم في الجنس والقوم فحسب ، ولكنه يتجه نحو الغرب والمادية في الحقيقة والواقع ، ويصح عند ذاك أن يخطب قادة العالم الاسلامي وعلماؤه بهذا البيت الفارسي الذي معناه ! :

مهلا أيها الأعرابي فإن الطريق الذي اخترته يذهب بك إلى باكستان ، وأنت تريد الكعبة ! .

تخلف العلوم الاسلامية وركود الفكر الاسلامي :

ومن العوامل التي أثرت في انسياق الطبقة المثقفة في العالم الاسلامي وقادته — الذين بيدهم أزمة الحكم — مع الحضارة الغربية وبعدهم عن الدين وانصرافهم عنه ، ذلك الجمود العقلي والركود الفكري الذي يطرأ على مراكز العلوم الاسلامية وعلى علمائها من مدة طويلة ، ومن أجل ذلك عجزت هذه العلوم الحافلة بالحياة والروح ، الصالحة للنمو والازدهار عن إقامة برهان على صلاحيتها التي تتدفق بها ومسايرتها مع الحياة المتطورة ، وذلك في عصر كانت حاجتها فيه إلى ذلك أشد وأعظم من حاجة كل عصر .

وقد كان المنهج القديم للدراسات الاسلامية في العصر الماضي يتطور بين حين وآخر يساير الحياة ومطالبها ، ولم تكن هناك ثورات ولا انقلابات إلا نادراً ، ولم يكن في وضعها فرق جوهري ، وإنما كانت تلك الثورات عبارة عن تبادل الشخصيات والأسر الحاكمة، ولكن واضعي المنهج التعليمي في ذلك العصر وزعماء الحركات العلمية في العالم

الاسلامى آنذاك كانوا يقومون بتعديلات مستمرة فى المناهج تشهد بذكائهم واعترافهم بالواقع .

ولما جاء القرن التاسع عشر الميلادى الذى لم تكن فيه انقلابات الأسر والشخصيات الحاكمة ، وانما كانت ثورة حضارية وانقلابا شاملا ، فزالت حضارة وجاءت حضارة أخرى وذهبت قيم وحلت محلها قيم أخرى ، وأصاب المنهج الدراسى جمود لم يسمح له بالتجاوز عن خطه المرسوم ، وأبى كل تعديل أن يقبله ، وظهر إلحاح شديد على البقاء على الخط القديم والأسلوب الذى اختاره المتقدمون فى وضع المنهج الدراسى فى عصورهم ، ومن بينهم الشيخ نظام الدين اللكهنؤى مؤسس « الدرس النظامى » (م ١١٦١ هـ) فى الهند وعلماء الأزهر فى القرن الثامن عشر فى الشرق الاوسط ، فقد أغلق باب الاجتهاد ، ووقف توسيع نطاق الفقه الاسلامى فى القضايا والمشكلات الجديدة التى خلقتها الحضارة الحديثة والاكتشافات الجديدة ، وبالرغم من أن الاجتهاد بشروطه الضرورية كان فريضة علماء الاسلام ووسيلة لتبليغ رسالة الاسلام إلى العصر المتطور أصبح مقفل الباب مسدود الطريق كما صور ذلك (١) أحد علماء العرب المعاصرين ببلاغة إذ قال : « فباب الاجتهاد ليس ممنوع الفتح فى نظرهم ، بل هو مفقود المفتاح » .

إن أساليب البيان وطرق التعبير الآسرة للقلوب التى كانت خاصة العلوم الاسلامية ومعارف القرآن وشريعته كانت مفقودة أو كادت ، وذلك فى عصر تجدد فيه التعبير وأساليب البيان ، كما ندر وجود العلماء النوابغ الذين يستطيعون إقناع الجيل الجديد بخلود الحقائق الدينية وصلاحية الحياة وتفوق الاسلام ، ويزيحون الستار عن وجه الحضارة الحديثة بنقدهم العلمى المتزن وتحليلهم الدقيق .

الحاجة الى تدوين الفقه الاسلامى :

ومما لا شك فيه أن العالم الاسلامى فى أجزائه المختلفة أنجب شخصيات دينية ممتازة

(١) الأستاذ مصطفى أحمد الزرقا ، أستاذ الفقه الاسلامى بجامعة دمشق سابقا .

أثارت الإعجاب فى بعض أوساط العلم الواسعة بنبوغها وفضلها ، وأنقذت طبقة كبيرة من الردة الفكرية ، كما قام بعض العلماء فى بعض الأقطار بخدمة الفقه الإسلامى ومشكلاته فى إطارهم الشخصى ، وعرضوا الفقه الإسلامى فى ثوب قشيب ، ولكن العالم الاسلامى تعوزه حركة علمية قوية دولية ، تعرِّف الطبقة المثقفة الجديدة بذخائر الاسلام العلمية وتراثه المجيد ، وتنفخ فى العلوم الاسلامية روحاً من جديد ، وتثبت على العالم المتمدن أن الفقه الاسلامى وقانونه من أرقى القوانين وأوسعها فى العالم ، وهو يقوم على أساس من المبادىء الخالدة ، التى لن تبلى ولن تفقد صلاحيتها فى يوم من الأيام ، وهى تصلح لمسايرة الحياة الانسانية فى كل زمان ومكان ، وتغنيها عن كل قانون وضعته أيدى الناس .

إنه عمل ضخم يقتضيه الوقت الحاضر ، وهو نداء الوقت ، وصوت الساعة ، وبذلك نستطيع أن ننقذ العالم الاسلامى والمجتمع الاسلامى المعاصر من الردة الفكرية والاجتماعية ، ونسد تيار التغريب والتجدد الجارف ، الذى يجرف العالم الاسلامى اليوم بكل قوة وشدة وطغيان ، ولقد صدق محمد إقبال ، إذ أبدى أهمية هذا العمل ونتائجه البعيدة المدى ، يقول :

« إننى أومن وأعتقد أن من درس أصول قانون العصر الحاضر ، وأثبت خلود تعاليم القرآن وبقاءها فى ضوء دراسته إنما هو مجدد الاسلام فى عصره وأكبر خادم للنوع البشرى ، والمسلمون فى كل قطر إمّا مشغولون بحرب الاستقلال والتحرير ، أو عاكفون على دراسة القانون الاسلامى ، وبالجملة فإن هذا وقت العمل ، لان الاسلام كما أعتقد ينقد اليوم على محك العصر الحديث ، ولعل التاريخ الاسلامى لم يشهد فترة مثل ما يشهدها اليوم (١) »

والتدوين الجديد للفقه الاسلامى لا يعنى ابتكار قانون جديد يحتاج إلى وضع مبادىء

---

(١) إقبال نامه ج ١ ص ٥٠ — ٥١ .

جديدة ، أو ظهور شيء لا وجود له "، حيز الوجود ، إن الفقه الإسلامي ثروة غالية للقانون ونموذج عال للذكاء الإنساني وجهوده ، يثير الاستغراب ، ولا يوجد له نظير في ذخائر العالم القانونية ، إنه يحتوى على جزء كبير للحياة ومعظم أحوال العصر القديم وظروفه ، وليست حاجة اليوم إلا أن تستنبط للمسائل الفرعية من أصول الفقه الإسلامي وكلياته التي تنبع من القرآن والسنة ، وذلك لتحقيق مطالب الحياة المتطورة الحاضرة ، وتقديم حلول لمشكلاتها الحديثة .

ولتقدير قيمة الفقه الإسلامي وذخيرته التشريعية نقدم مقتطفاً من مقدمة كتاب « المدخل الفقهي العام إلى الحقوق المدنية » للأستاذ مصطفى أحمد الزرقاء ،أستاذ الحقوق المدنية والشريعة الإسلامية فى كلية الحقوق بدمشق ، وهو يتحدث حول انطباعات رجال القانون الغربيين نحو التشريع الإسلامي ، فى الندوة التي عقدتها شعبة الحقوق الشرقية للبحث فى الفقه الإسلامي فى كلية الحقوق من جامعة باريس ، باسم : « أسبوع الفقه الاسلامي » .

إنه يقول :

« عقدت شعبة الحقوق الشرقية من المجمع الدولي للحقوق المقارنة مؤتمراً للبحث فى الفقه الإسلامي فى كلية الحقوق من جامعة باريس تحت اسم « أسبوع الفقه الإسلامي » برئاسة المسيو (Milliot) أستاذ التشريع الإسلامي فى كلية الحقوق بجامعة باريس ، ودعت إليه عدداً كبيراً من أساتذة كليات الحقوق العربية وغير العربية وكليات الأزهر ، ومن المحامين الفرنسيين والعرب وغيرهم ، ومن المستشرقين ، واشترك فيه من مصر أربعة أعضاء : اثنان من جامعة فؤاد ، وعميد كلية الحقوق فى جامعة ابراهيم ، وأحد أعضاء هيئة كبار العلماء عن الأزهر ، واشتركت فيه أنا مع الأستاذ الدكتور معروف الدواليبي عن كلية الحقوق السورية .

وقد حاضر الأعضاء فى خمسة موضوعات فقهية من الحقوق العامة والخاصة (المدنيــة والجنائيــة والاقتصادية) ومن تاريخ التشريع ، عيّنها مكتب المجمع الدولى للحقوق المقارنة قبل عام ووجهت الدعوة للمحاضرة فيها ، وهى :

(١) إثبات الملكية . (٢) الاستملاك للمصلحة العامة . (٣) المسئولية الجنائية .
(٤) تأثير المذاهب الاجتهادية بعضها فى بعض . (٥) نظرية الربا فى الإسلام .

وكانت المحاضرات كلها باللغة الفرنسية ، وخصص لكل موضوع يوم ، وعقب كل محاضرة كانت تفتتح مناقشات مهمة مع المحاضر ، وبين المؤتمرين تطول وتقصر بحسب الحاجة ، وتسجل خلاصتها .

وفى خلال بعض المناقشات وقف أحد الأعضاء ، وهو نقيب محاماة سابق فى باريس فقال :

« أنا لا أعرف كيف أوفق بين ما كان يحكى لنا عن جمود الفقه الإسلامى ، وعدم صلوحه أساساً تشريعياً يفى بحاجات المجتمع العصرى المتطور ، وبين ما نسمعه الآن فى المحاضرات ومناقشاتها مما يثبت خلاف ذلك تماماً ببراهين النصوص والمبادىء » .

وفى الختام وضع المؤتمرون بالإجماع هذا التقرير الذى نترجمه فيما يلى :

« بناء على الفائدة المتحققة من المباحثات التى عرضت أثناء «أسبوع الفقه الإسلامى» وما جرى حولها من المناقشات التى تخلص منها بوضوح :

١ — أن مبادىء الفقه الإسلامى لها قيمة (حقوقية تشريعية) لا يمارى فيها .

٢ — وأن اختلاف المذاهب الفقهية فى هذه المجموعة الحقوقية العظمى ينطوى على ثروة من المفاهيم والمعلومات ، ومن الأصول الحقوقية ، هى مناط الاعجاب ، وبها يتمكن الفقه الإسلامى أن يستجيب لجميع مطالب الحياة الحديثة والتوفيق بين حاجاتها .

يعلنون رغبتهم فى أن يظل أسبوع الفقه الإسلامى يتابع أعماله سنة فسنة ، ويكلفون مكتب المؤتمر وضع قائمة للموضوعات التى أظهرت المناقشات ضرورة جعلها أساساً للبحث فى الدورة القادمة .

ويأمل المؤتمرون أن تؤلف لجنة لوضع معجم للفقه الإسلامى يسهل الرجوع إلى مؤلفات هذا الفقه ، فيكون موسوعة فقهية تعرض فيه المعلومات الحقوقية الإسلامية وفقاً للأساليب الحديثة » .

بارقة الأمل :

ولكن الطبقة المثقفة الجديدة التى تحتل اليوم مركز القيادة ، لثقافته العصرية وكفاءاته الحديثة تحمل من سلامة التفكير وصلاحية قبول الحق نصيباً غير منقوص ، بالرغم من علاتها وطبيعتها الخاصة ، بل قد تفوق هذه الطبقه فى عزمها وقوة إرادتها واعترافها بالحقيقة بعض الطبقات الأخرى وتمتاز عنها . إن أفراد هذه الطبقة عندما يؤمنون بمبدأ يرون من الواجب عليهم أن يستنفدوا كل طاقتهم فى تبليغه ونشره ، ويستفرغوا فيه جهودهم وقوتهم إلى آخر مدى ، فيها كثير ممن يحبون الإسلام ويؤمنون به كمبدأ وعقيدة ، وقد منحت هذه الطبقة جماعة المسلمين رجالا غيارى ، صائبي الفكرة ، بعيدى النظر ، متفانين فى خدمة الإسلام ، مجاهدين فى سبيله ، وكم من حركات إسلامية قامت على أكتاف الأبطال والقادة الذين ينتمون إلى هذه الطبقة .

وفى الشرق الأوسط لم يظفر السيد جمال الدين الأفغانى ، والشيخ محمد عبده والشيخ حسن البنا بخيرة رجالهم إلاّ من هذه الطبقة ، كما أن الهند منذ بدء حركة الخلافة إلى الحركات الدينية المعاصرة نالت أفضل رجالها وأقوامها إرادة من هذه الطبقة نفسها ، فإذا قام اليوم دعاة الدين بتبليغ رسالة الاسلام إلى هذه الطبقة بكل اخلاص ونزاهة ، ونجحوا فى تثقيف عقليتهم بثقافة الاسلام وإقصاء بذرة الفساد التى بذرتها

الثقافة الغربية فى عقولهم ونجحوا فى إشعال شرارة الايمان التى لا تزال كامنة تحت الرماد ، نشأ فيها رجال أفذاذ متفانون فى حب الاسلام أمثال الشاعر محمد إقبال والزعيم محمد على ، وسيكون ذلك اكتشافاً مدهشاً ، وبالتالى ساراً لدعاة الاسلام .

ولتغيير الوضع العالمى وإحداث ثورة على الأوضاع السائدة فى العالم الاسلامى ، يجب على دعاة الدين أن يوجهوا عنايتهم وجهودهم إلى هذه الطبقة ، فلم يبل العالم الاسلامى بالردة الفكرية إلا بسوء تفكير هذه الطبقة وانحرافها ، وبذلك اتجه العالم الاسلامى اليوم من الفكر الاسلامى الخالص إلى التفكير الغربى الخالص ، وصار الجمهور بيد القيادة اللادينية كالقطعان من الضأن والغنم ، وعلى إصلاح هذه الطبقة المثقفة يتوقف انصراف الأقطار الاسلامية من التفكير الغربى إلى الفكر الاسلامى الصحيح .

ولا داعى إلى اليأس والتشاؤم ، فإن هذه الطبقة كما وصفها محمد إقبال :

« إن إقبال ليس يائساً من مزرعته الخَرِبة ، إنها إذا تندّت وابتلّت قليلا[1] أتت بحاصل كبير » .

---

(١) يشير إلى أن هذه الطبقة المثقفة — الثقافة الجديدة التى كان أحد أفرادها — إذا رزقت حظاً من الايمان والحنان ، وقوة العاطفة ، ورقة الشعور ، مع ثقافتها العصرية وقوة الارادة ، وحب الواقع ، لكان لها شأن عظيم ، ومثلت دوراً رائداً فى خدمة الاسلام ، ولانهاض الأمة .

الموقف الثالث

إذن فما هو الموقف الثالث ، وما هو الموقف العادل الذى يجب أن يقفه العالم الإسلامى تجاه هذه الحضارة الغربية ؟ .

إنه لا يمكن تحديد موقف العالم الإسلامى تجاه الحضارة الغربية حتى نعرف طبيعة الأمة الإسلامية ، ومركزها فى هذا العالم ، ثم نعرف موقفها من هذه الحياة التى تصوغ الحضارات ، وتشكل المجتمعات والمدنيات .

مركز الأمة الاسلامية ورسالتها :

إن الأمة الإسلامية هى صاحبة الرسالة الدينية الأخيرة ، وهذه الرسالة هى التى تسيطر — ويجب أن تسيطر — على جميع مواقفها ، وتصرفاتها ، مركزها مركز القيادة والتوجيه ، والحسبة على العالم ، والقرآن يعلن بقوة وصراحة : « كنتم خير أمة أُخرِجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهَوْن عن المُنكَر ، وتُؤمنون بالله » ، فلا يجوز أن يكون مكان هذه الأمة فى مؤخر الركب وفى صف التلاميذ والحاشية ، وأن تعيش على هامش الأمم وترضى — من القيادة والتوجيه ، والأمر والنهى ، والخلق والإبداع — بالتقليد والتطبيق ، والخضوع والإطاعة ، فلا يكون موقفها الصحيح إلا موقف الحر الكريم ، القوى الإرادة ، المستقل التفكير ، الذى يأخذ — إذا اضطر واحتاج — من حوله بإرادة واختيار ما يطابقه ويلائمه ، وما لا يرزؤه فى شخصيته وتفوقه وامتيازه ، وثقته بنفسه ومركزه ، وينبذ ما لا يلائمه ويضعف شخصيته ومركزه ويفقده امتيازه ويدمجه فى غيره ، ولذلك نهيت هذه الأمة عن التشبه بقوم فى شعارهم وشاراتهم[1] .

---

(١) قال العلامة الحسين بن محمد عبد الله الطيبى (م ٧٤٣ هـ) فى كتابه الكاشف عن حقائق السنن المحمدية « شرح مشكاة المصابيح » فى شرح حديث « من تشبه بقوم فهو منهم » الذى أخرجه =

وهى أمة ذات هدف معين فى الحياة ، ورسالة كاملة فى العالم ، وحضارتها وثقافتها ، وكفاحها ، وإنتاجها ، وكل ما يتصل بها من حركة ونشاط خاضع لعقيدتها وغاياتها ورسالتها ، فلا قيمة عندها لفلسفة تقول : «العلم للعلم» و «القوة للقوة» و «الاكتشاف للاكتشاف» ، وكذلك ليس من مهمتها بسط السيطرة على الإنسان أو على الأكوان ، وتسخير الطاقات البشرية ، أو القوى الطبيعية والفلكية لإثبات قوتها أو تقرير فتوحها المادية والعلمية ، فإن ذلك عندها ضرب من العبث ، ونوع من الأنانية المتضخمة ، والقرآن يتلو عليها ويضبط اتجاهاتها وطموحها بقوله : «تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يُريدون علواً فى الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين[1]» .

المؤمن القوى العليم الصالح المصلح :

إنما يسمح لها الإسلام بالكفاح فى سبيل الحياة والطبيعة والعلم — وقد يحث عليه — لصالح البشرية وللغايات الكريمة إلى حد الضرورة ، وقد ضرب الله لها مثلا فى القرآن : «بالإنسان القوى العليم الصالح المصلح الذى يسخر القوى الكونية والمادية ، ويملك أعظم مقدار من الأسباب والوسائل ويوسع فتوحه ومغامراته ، وهو فى كل ذلك ، وفى أوج قوته وسلطته وسيادته ، وتسخيره للقوى والأسباب ، مؤمن بربه ، خاضع له ، مؤمن بالآخرة ، ساعٍ لها ، مقر بضعفه ، رحيم بالإنسانية وبالأمم الضعيفة ، حامٍ للحق ، يستخدم كل قوته وجهوده ومواهبه ، وجميع وسائله وذخائره لخدمة الإنسانية ، وتكوين المجتمع الصالح ، وإعلاء كلمة الله ، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة

= أحمد وأبو داوود « هذا عام فى الخلق والخلق والشعار ، ولما كان الشعار أظهر فى التشبه ذكر هذا الباب » . قال العلامة نور الدين على بن سلطان محمد الهروى المعروف بملا على القارى (م ١٠١٤) فى المرقاة : « قلت بل الشعار هو المراد بالتشبه لا غير ، فإن الخلق الصورى لا يتصور فيه التشبه ، والخلق المعنوى لا يقال فيه التشبه بل هو التخلق» (ص ٤٣١ ج ٤) .

(١) القصص ٨٣ :

الناس والسادة إلى عبادة الله ، سيرة مثّلها سليمان بن داود فى عصره ، ومثّلها ذو القرنين فى عصره ، ومثّلها الخلفاء الراشدون والأئمة المهديون فى عصورهم[١] » .

الحياة كمرحلة عابرة ووسيلة للآخرة :

أما موقفها من هذه الحياة ، فهو موقف من لا يراها الغاية الأسمى والمَثَل الأعلى ، وسدرة المنتهى فى السعادة والتقدم ، إنما ينظر إليها كرحلة « عابرة » لابد من اجتيازها ، وكوسيلة للوصول إلى الفوز الأكبر ، والحياة الدائمة ، والعيشة الراضية ، إن القرآن يقرر — بكل وضوح وقوة — قصر هذه الحياة الدنيا ، وتفاهتها وتضاؤلها فى جنب الآخرة ، فيقول مثلا : « فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلاّ قليل[٢] » ويقول : « وما هذه الحياة الدنيا إلاّ لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون[٣] » ويقول : « اعلموا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم ، وتكاثر فى الأموال والأولاد ، كمثل غيثٍ أعجب الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفرّاً ، ثم يكون حطاماً ، وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا إلاّ متاع الغرور[٤] » .

ويقرر كذلك — فى وضوح وقوة — أنها قنطرة إلى الآخرة ، وفرصة للعمل ، فيقول : « إنّا جعلنا ما على الأرض زينةً لها لنبلُوَهم أيُّهم أحسن عملا[٥] » . ويقول : « الذى خلقَ الموتَ والحياة ليَبلوكم أيكم أحسن عملا ، وهو العزيز الغفور[٦] » . ويقرر أن الآخرة خير وأبقى ، فيقول : « وما الحياة الدنيا إلاّ لعبٌ ولهو وللدّار الآخرة خيرٌ للذين يتقون أفلا تعقلون[٧] » ، ويقول : « وما أُوتيتم من شىء فمتاعُ الحياة الدنيا

(١) تفسير سورة الكهف للمؤلف «المسلمون» المجلد السادس عدد ٤ .

(٢) براءة ٣٨ . (٣) العنكبوت ٦٤ . (٤) الحديد ٢٠ .

(٥) الكهف ٧ . (٦) الملك ٢ . (٧) الانعام ٣٢ .

وزينتُها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون(١) »ويذم ويشنع على من يؤثر الدنيا — هذه الفانية العارضة السقيمة الناقصة — على الآخرة الباقية الخالدة ، الواسعة الصافية من الأكدار ، الخالية من الأخطار ، فيقول : « إنّ الذين لا يَرجون لقاءنا ورَضوا بالحياة الدنيا واطمأنُّوا بها ، والذين هم عن آياتنا غافلون ، أُولئك مأواهم النّـار بما كانوا يكسبون(٢) » ، ويقول : « منْ كان يُريد الحياة الدنيا وزينتها نُوفّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يُبخسون ، أُولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلاّ النار ، وحبطَ ما صنعوا فيها وباطلٌ ما كانوا يعملون(٣) » ، ويقول : « وَوَيْل للكافرين من عـذاب شديد . الذين يستحبُّون الحياة الدنيا على الآخرة ، ويصدُّون عن سبيل الله ويبغونها عوَجاً أُولئك فى ضلال بعيد(٤) » ، ويقول : « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون(٥) » ، ويقول : « فأعرض عمَّن تولّى عن ذِكْرنا وَلَم يرِد إلاّ الحياة الدنيا ، ذلك مَبلغُهُم منَ العلم ، إنَّ ربّك هو أعلم بِمن ضلّ عن سـبيله وهو أعلم بمن اهتدى(٦) » ويقول : « إن هؤلاء يحبون العاجلة ، ويذرون وراءهم يوماً ثقيلا(٧) » ويقول : « فأما من طغى ، وآثر الحياة الدنيا ، فإن الجحيم هى المأوى(٨) » .

ويمـدح من يجمع بين الدنيا والآخرة مع إيثـار جانب الآخرة على جانب الدنيا ، ومعرفة قيمتها وفضلها والحرص عليها ، فيقول : « فَمِنَ الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وما له فى الآخرة من خلاق ، ومنهم من يقول ربَّنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنـة وقنا عذاب النار(٩) » ، ويقول على لسان نبي الله موسى : « وا كتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هُدْنا إليك(١٠) » ، ويمدح خليله ابراهيم عليه

---

(١) القصص ٦١ .
(٢) يونس ٧ — ٨ .
(٣) هود ١٦ .
(٤) ابراهيم ٣ .
(٥) الروم ٧ .
(٦) النجم ٢٩ — ٣٠ .
(٧) الإنسان ٢٧ .
(٨) النازعات ٣٧ — ٣٨ — ٣٩ .
(٩) البقرة ٢٠٠ — ٢٠١ .
(١٠) الأعراف ١٥٦ .

الصلاة والسلام فيقول : « وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين[١] » .

وخير ما يمثل موقف المؤمن من هذه الحياة ، ويحدده بدقة ومقدرة ليست فوقها دقة ومقدرة ، هو الجملة الحكيمة المأثورة عن رسول الله ﷺ : « إن الدنيا خلقت لكم وإنكم خلقتم للآخرة[٢] » ، فالمسلم يجمع بين الانتفاع بمرافق الحياة وأسباب الدنيا واستخدامها كشىء خُلِقَ لأجله وسخر له ، وبين السعى للآخرة والكفاح لها كغاية خُلِقَ لأجلها ، فهو ينظر إلى الدنيا وقواتها ووسائلها كمطية ومركب لا كراكب ومتصرف ، وكمملوك ورقيق لا كمالك وسيد ، ووسيلة لا كغاية ، وينظر إلى الآخرة كغاية ينتهى إليها ووطن يلجأ إليه ، فيجمع عليه همته ويرهق له قواه ويحث إليها مطيته ، وذلك مثل النبوة الذى مثله الرسول ﷺ إذ قال : « مالى وللدنيا وما أنا والدنيا إنما أنا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها[٣] »

وقد تجلت هذه النفسية القرآنية ، أو النظرة القرآنية إلى الحياة فى حياة النبي ﷺ وتعاليمه وسلوكه ، وكلامه وعواطفه ، وأمانيه ودعائه ، وسره وعلنه ، وتجلت كذلك فى حياة الصحابة الذين تربوا وتكونت سيرتهم وعقليتهم فى حضانته وتحت إشرافه ، ومن كان على نهجهم وعلى غرارهم من التابعين والمؤمنين من هذه الأمة ، بحيث قد صار ذلك طابعاً لحياتهم ، ومزاجاً لا ينفك عنهم ، وأصبح من الحقائق التاريخية التى لا يمارى فيها .

وهنا تتعارض الأديان السماوية ، وتعاليم النبوة ، أو مدرسة النبوة — إن صح التعبير — مع الفلسفات المادية ، والتفكير المادى الذى يلح على أن هذه الحياة الدنيا

---

(١) النحل ١٢٢ . (٢) رواه الطبرانى فى الأوسط .
(٣) رواه احمد أوالترمذى .

هى كل شىء ، وهى المنتهى ، ويبالغ فى تمجيدها وتقديسها والاحتفاء بها ، والحرص على ترفيهها وتزيينها .

حضارة ثائرة على القيم الدينية والروحية :

وقد كان من المصادفات الأليمة المحزنة ، والمآسى الفاجعة للبشرية أن الحضارة الغربية قد ولدت وترعرعت فى عصر قد ثار على الدين وأسسه من الإيمان بالغيب وغير ذلك ، وفى أمة قد ثارت على الذين تزعموا الدين واستغلوه لشهواتهم وأنانياتهم ، واشتد غضبها عليهم لسوء سيرتهم وهمجيتهم ووقوفهم فى سبيل التقدم وحرية العقل والعلم ، فترافق نشوء الحضارة والصناعة والاتجاه المادى العنيف ، الاتجاه إلى تنظيم الحياة على أسس مادية خالصة ، وقطع صلة المجتمع والبشرية عن فاطرها ومصرف هذا الكون ، وكل ذلك اقتضته سلسلة الأسباب وطبائع الأشياء ، ووضع أوروبا الخاص ، فشبت هذه الحضارة واختمرت وهى المسيطرة على القوى والأسباب ، قد بلغت الغاية فى التقدم والصناعة وعلوم الطبيعة حتى استطاعت أخيراً أن تهدم المساحات والأبعاد ، وتتجاوز الكرة الهوائية ، إلى غير ذلك من الفتوح فى دائرة العلوم الطبيعية والفلكية(١) » .

سيطرة « المادية » على قادة التجديد فى الشرق الاسلامى :

وقد انتقلت هذه النفسية المادية إلى قادة حركات التجديد ، وبالأصح التغريب فى الشرق الإسلامى وتواضعوا — من عهد « كمال » إلى عهد « جمال » — على الافتتان بالتقدم المادى ، واتخذوا القوة والرفاهية إلهاً يقدس ويعبد ويكفر بغيره ، ويضحى على أنصابه بكل القيم الخلقية والروحية ، وماليست له قيمة مادية ، وحسب القارىء أن يقرأ خطب هؤلاء الزعماء القوميين والقادة السياسيين ، وما يكتبونه بين آونة وأخرى ، وما يدلون به من تصريحات ، وما يتخذونه من إجراءات رسمية وخطوات

---

(١) منقول من تفسير سورة الكهف للمؤلف المنشور فى « المسلمون » المجلد السادس « ١٣٧٧ هـ » عدد ١ – ٢ – ٣ – ٤ .

عملية ، وما يعاملون به الأحزاب التي تفكر غير هذا التفكير ، وتسير غير هذه السيرة ، وتنتقد هذه الاتجاهات ، وحسبه أن يقرأ مشاريع الحكومة والخطط المستهدفة ومجالات النشاط والحركة والحماسة فى الدوائر الرسمية ، يراها مقتصرة على ترفيه البلاد وتقويتها مادياً ، ورفع مستوى الحياة ، ولمجاراة الشعوب التي لا تعرف غير المادة والمحسوسات حقيقة ، ولا تعرف غير القوة إلهاً ، ولا تعرف غير التقدم المادى والرفاهية الدنيوية هدفاً وعرضاً ، ولا تعرف غير مجموعة الأفراد الذين تربط بينهم رابطة قومية أو معاهدة سياسية — مجموعة بشرية ، تستحق الاحترام والاهتمام ، إن هذه هى النفسية التي جرت على العالم الشقاء والبلاء فى كل زمان ، وهى العقلية الضيقة السقيمة التي حاربتها الأديان ، وجاء يمحوها الإسلام ، وإن احتضان قادة بلد إسلامى لهذه الفكرة والعقيدة المادية الضيقة نكسة عظيمة فى التفكير لا تدل إلا على ضعف الإيمان وسوء التربية ، وسقوط الهمة ، وقصر النظر ، وشقاء هذه البلاد أولا ، وشقاء العالم الإنسانى ثانياً .

إن الاحتفاظ بالشخصية الإسلامية ، ومركز هذه الأمة فى العالم ، ومعرفة رسالتها والإيمان بقيمتها ، والضغط على قيمة الآخرة وما بعد هذه الحياة — من سعادة وشقاء وجنة ونار — والتركيز على الجانب الخلقى والروحى من الحياة ، هو الخط الفاصل الذى يشكل الحد الفاصل الرسمى بين الحضارتين ، حضارة يوافق عليها الإسلام ، ويتحمل مسئوليتها ، ويباركها ، وتتجلى فيها الشخصية والأصالة والاتباع ، وحضارة يتبرأ منها الاسلام ويخسر فيها المسلمون ، وتتجلى فيها العبودية والرضوخ والاستسلام ، والعبادة التي لا تعرف إلاّ تقليد الببغاوات ، ومحاكاة القرود .

اهمية الحضارة فى حياة الأمة :

والحضارة عميقة الجذور فى أعماق النفس الانسانية وفى مشاعر الأمة وأحاسيسها وتجريد أمة من حضارتها الخاصة التي نشأت تحت ظلال دينها وتعاليم شريعتها ، وكان فى صياغتها نصيب كبير للذوق الدينى الخاص ، وطابع هذه الأمة الخاص ، مرادف

لعزلها عن الحياة وتحديدها في إطار العقيدة والعبادة والطقوس الدينية الضيق ، وفصل حاضرها عن ماضيها وأثر هذا التحويل كان عميقاً دائماً في حياة الأمم والمجتمعات البشرية، فإنها ذابت تدريجياً في بوتقة الأمم التي اقتبست منها هذه الحضارة بمعانيها الواسعة ،وكان انسلاخها عن العقيدة التي بقيت متمسكة بها سهلا .

وليس المقصود من إبراز ناحية خطر الحضارة الغربية واقتباسها على الشخصية الاسلامية وكيان الأمة المسلمة هو تحريم الاستفادة من الحضارة الغربية في مرافق الحياة واقتباس بعض ماتوصل إليه العلم والصناعة والاختراع في الغرب من وسائل تسهيل وترفيه ، وإغلاق الباب على مصراعيه ، فإن ذلك لا يقوله عاقل فضلا عن مطلع على روح الدين وتعاليمه ، والاسلام لم يزل ولا يزال واسع الأفق متفتح القلب والنظر في الاستفادة بكل ما يصلح وينفع ، ولكن مفهوم الحضارة الغربية في هذا المقال هو أوسع من اقتباس الآلات والمخترعات والتجارب المفيدة في الحياة العامة ، إنها تشمل الأفكار والقيم والمفاهيم والمثل وصبغ الحياة كلها بالصبغة الغربية والتخطيط المدني الشامل واقتباس أساليب الحياة التي لا تتفق مع تعاليم الاسلام ومعاييره في الطهارة والنظافة والاعتدال والاقتصاد والوقوف عند الحدود التي رسمتها الشريعة الاسلامية ، ويعسر على المسلم معه التأدب بآداب الشرع والعمل بالسنن النبوية الكثيرة ، ويبتعد بها عن الحياة الاسلامية التي عاشها الرسول والصحابة والتابعون لهم بإحسان ابتعاداً كلياً ، وتضفي على الأمة شخصية أجنبية لا تعرف فيها إلا بالأسماء الاسلامية أو بالأزياء التي لا تزال بعض الشعوب العربية أو الاسلامية محافظة عليها ، أو عندما يرتفع صوت الأذان من منائر مساجدها ، أو عندما تدخل في المساجد على قلة عدد الداخلين في بعض البلاد وكثرتهم في بعضها ، فلا يربطها بالاسلام إلا خيط رقيق من عقيدة وتقاليد دينية ، اذا انقطع هذا الخيط — لا سمح الله بذلك — انقطع كل شيء .

وأعتقد أنه من الميسور جداً الجمع بين التسهيلات المدنية والاستفادة بالآلات

والمخترعات وما وصل إليه العلم الحديث ، وبين ما تمتاز به الحضارة الإسلامية من جمال وبساطة وجدية وعناية بالطهارة والنظافة والابتعاد عن الاسراف والتبذير والاغراق فى المظاهر الخارجية ، إذا وفقت الحكومة الاسلامية والمجتمعات الاسلامية للتخطيط المدنى المستقل ، البعيد عن التقليد الأعمى والارتجالية ومركب النقص ، وإذا توافر عندها الذكاء والأصالة والايمان بفضل التعاليم الاسلامية والحضارة الاسلامية التى تنبثق عنها وتقوم عليها ، والاعتداد بشخصيتها ، وكان هذا التخطيط أجمل وافضل وأكثر جلبا للأنظار واستهواء القلوب،وأبعث على الاحترام والتقدير، ويؤم هذه المدن عدد من السياح بل من من قادة الفكر ورواد العلم أكبر من العدد الذى يؤمها الآن من المتنزهين ، وربما يكون هذا الطراز الجميل الأصيل من المدنية باعثاً لكثير من الأقطار الغربية على تقليد بعض هذه الجوانب واقتباسها وعلى الأقل على التفكير فيها وتقديرها ، كما كان الشأن مع الحضارة الاسلامية الأندلسية التى كان لها تأثير عميق فى الحضارة الغربية وفلسفتها وآدابها .

ولكن مع الأسف الشديد لم يوفق لذلك قطر واحد من الأقطار الشرقية والغربية العربية والحكومات الإسلامية ، ولم تكن عند أحدها جراءة كافية تحملها على مجرد هذه التجربة ، وكانت النتيجة أن أصبحت هذه الأقطار كلها نسخة ناقصة من المدنية الغربية وصورة شاحبة لها ، لا تسترعي اهتمام الغربيين ولا تحرك فيهم مشاعر الاجلال والاحترام ، وإنما يقولون إذا زاروا هذه المدن متفرجين أو مشاهدين : « بضاعتنا ردت إلينا »

محنة ذكاء وقوة ارادة :

إن التصميم الحضارى محنة ذكاء ،وعصامية وعبقرية ، وقوة إرادة ،وفقه دين ،ليس مجرد عملية نقل وتطبيق ،وتعديل وتحسين ،إن الإسلام قد حدّ حدود الحلال والحرام ، وحرم تخطى هذه الحدود ، وأفسح المجال بينها للتمتع الكريم النزيه ، فى غير إسراف

وإجحاف ومس بحقوق الآخرين وحظوظهم ، ومن غير تعرض لخطر الوقوع فى الإثم والفحشاء والتبذير ، والحياة التى لا تليق بالذكور الرجال ، والكرام الأقوياء ، وهذه هى الروح التى تسيطر على أحكام اللباس والطعام والعشرة والاجتماع والمتعة واللذة ، وحث على مراعاة المصالح ، والتجنب من المضار والمفاسد ، وإعداد الممكن المستطاع من وسائل القوة والدفاع ، واقتباس الصالح النافع من العلوم والحكمة ، بشرط أن لا يكون ذلك على حساب مقومات الشخصية والكرامة القومية — الإسلامية — وبشرط أن لا ينشىء ذلك فى الأمة شعوراً بالنقص ، وقصوراً فى الثقة ، وروح اندفاع سريع متهور إلى تقليد الآخرين ، والتشبع بروحهم ، وإجلال حياتهم وتقديسها .

نعومة حرير وصلابة حديد :

إنها أساس حضارة تملك نعومة الحرير وصلابة الحديد ، نعومة الحرير فى مسايرة للمقتضيات والحاجات والحقائق ،غير مفترضة ولا مختلفة ، وغير متخيلة ولا مبالغاً فيها ، وصلابة الحديد ، وثبات الجبال على حدود العقيدة والأخلاق ، إنها مفتوحة العقل والضمير ، منشرحة الصدر ، لاقتباس العلوم النافعة التى نشأت وتكونت فى جانب بعيد فى هذا العالم ، واقتباس النظم والأساليب التى لا تمس جوهر الدين ولا تغير وضع الأخلاق .

الافادة من الغرب ومجالها :

وأحلى هذا الفصل الذى يحدد موقف العالم الإسلامى من حضارة الغرب وثقافته بقطعة جميلة من كتاب : « الطريق إلى مكة » للأستاذ محمد أسد ، فقد بدا فيها الاتزان والحصافة الفكرية ، وهى تحدد — بلباقة فائقة ومقدرة كبيرة — الخط العادل المتزن الذى يجب أن يسير عليه العالم الإسلامى فى الإفادة من الغرب ، وتبنى الوسائل الحديثة . يقول محمد أسد :

« إن عالمى الإسلام والغرب لم يكونا يوماً أقرب أحدهما من الآخر ، كما هو اليوم ،

وهذا القرب هو صراع ظاهر وخفى ، ذلك أن أرواح الكثيرين من المسلمين والمسلمات لتنفضن رويداً رويداً تحت تأثير العوامل الثقافية الغربية ، إنهم يتركون أنفسهم ، يبتعدون عن اعتقادهم السابق بأن تحسين مقاييس المعيشة يجب أن لا يكون سوى واسطة لتحسين أحاسيس الإنسان الروحية ، إنهم يسقطون فى وثنية « التقدم » نفسها التى تردى فيها العالم الغربى بعد أن صغروا الدين إلى مجرد صلصلة رخيمة فى مكان ما من مؤخرة الأحداث ، ولذلك تراهم يصغرون مقاماً ولا يكبرون ، ذلك أن كل تقليد ثقافى ، بخلاف الخلق والإبداع لابد أن يحقر الأمة ويقلل من شأنها .

أنا لا أعنى أن المسلمين لا يستطيعون أن يفيدوا كثيراً من الغرب ، وبخاصة فى مجال العلوم والفنون الصناعية ، ذلك أن اكتساب الأفكار والأساليب العلمية ليس فى الحق « تقليداً » ، وبالتأكيد ليس فى حالة قوم يأمرهم دينهم بطلب العلم حيثما يمكن أن يوجد ، إن العلم لا غربى ولا شرقى ، ذلك أن الاكتشافات العلمية ليست إلا حلقات فى سلسلة لا نهاية لها من الجهد العقلى الذى يضم الجنس البشرى بكامله ، إن كل عالم يبنى على الأسس التى يقدمها له أسلافه ، سواء كانوا من بنى أمته أو من أبناء أمة غيرها ، وعملية البناء والإصلاح والتحسين هذه تستمر وتستمر ، من إنسان إلى إنسان ، ومن عصر إلى عصر ، ومن مدنية إلى مدنية بحيث إنما يحققه عصر معين أو مدنية معينة من أعمال علمية جليلة لا يمكن مطلقا أن يقال أنها « تخص » و « تعود إلى » ذلك العصر أو إلى تلك المدنية ، فقد يحدث فى مختلف الأزمنة والعهود أن تسهم أمة ما ، أمضى عزيمة وأشد همة من غيرها ، بنصيب أكبر فى صندوق المعرفة ، ولكن الجميع مع الزمن يشتركون ، وبصورة شرعية صحيحة فى هذه العملية ؛ لقد جاء حين كانت مدنية المسلمين أقوى وأمضى من مدنية أوروبا ، فنقلت إلى أوروبا كثيراً من الاختراعات الصناعية والفنية ذات الطبيعة الثورية ، وأكثر من هذا : مبادىء « تلك الطريقة العلمية » نفسها التى يرتكز إليها العلم الحديث ، والمدنية الحديثة ، ومع ذلك فإن اكتشافات جابر بن حيان الكيمياوية لم تجعل من الكيمياء

علماً « عربياً ». كذلك لا يمكن أن يقال أن الجبر وعلم المثلثات هما علمان « إسلاميان » مع أن الأول منهما بسطه الخوارزمي ، والثاني البتّاني ، وكلاهما كانا مسلمين تماماً ، كما لا يستطيع أحد أن يتكلم عن نظرية الجاذبية « الانكليزية » مع أن صاحبها كان إنكليزياً ، كل هذه الأعمال العلمية العظيمة هي ملك مشترك بين الجنس البشري كله ، وإذن فإن المسلمين إذا تبنوا ، كما هو من واجبهم أن يفعلوا ، الطريق والوسائل الحديثة في العلوم والفنون الصناعية ، فإنهم لا يفعلون أكثر من اتباع غريزة التطور والارتقاء التي تجعل الناس يفيدون من خبرات غيرهم ؛ ولكنهم إذا تبنوا — وهم في غير حاجة إلى أن يفعلوا ذلك — أشكال الحياة الغربية والآداب والعادات والمفاهيم الاجتماعية الغربية فإنهم لن يفيدوا من ذلك شيئاً ، ذلك أن ما يستطيع الغرب أن يقدمه لهم في هذا المضمار لن يكون أفضل وأسمى مما قدمته لهم ثقافتهم نفسها ومما يدلهم عليه دينهم نفسه .

ولو أن المسلمين احتفظوا برباطة جأشهم وارتضوا الرقي وسيلة لا غاية في ذاتها ، إذن لما استطاعوا أن يحتفظوا بحريتهم الباطنية فحسب ، بل ربما استطاعوا أيضاً أن يعطوا إنسان الغرب سر طلاوة الحياة الضائع[1] » .

الفراغ الأكبر والعبقري المطلوب :

إن الفراغ الهائل الأكبر في العالم الإسلامي هو إلى الحاجة ذلك العبقري العصامي الذي يواجه الحضارة الغربية بشجاعة وإيمان وذكاء ، ويشق له طريقاً خاصاً بين مناهجها ومذاهبها ، وبين فضائلها ورذائلها ، طريقاً يترفع فيها عن التقليد والمحاكاة وعن التطرف والمغالاة ، غير خاضع فيها للأشكال والمظاهر ، والمفاهيم السطحية ، متمسكاً بالحقائق وأسباب القوة ، وباللباب دون القشور .

---

(١) الطريق إلى مكة للاستاذ محمد أسد « ليوبولد سابقاً » ص ٣٧٤ — ٣٧٦ .

العبقرى العصامى الذى يشق له ولبلاده وأمته طريقاً مبتكراً ، ويجمع فيها بين الإيمان الذى اختص به الأنبياء والرسل ، والدين الذى أكرمه الله وأمته به عن طريق محمد ﷺ ، وبين العلم الذى ليس ملك أمة ولا بلد ولا عصر ، يأخذ من الدين الدوافع الخيرة التى هى أعظم قوة وأغنى ثروة فى خدمة الإنسانية وبناء صرح المدنية ، والغايات الرشيدة الصالحة التى لا يوحيها إلا الدين السماوى والتربية الدينية السليمة ، ويأخذ من الحضارة الغربية الآلات والوسائل القوية الكثيرة التى أنتجتها وتوصلت إليها فى سيرها العلمى الطويل وفى جهادها المتواصل الشاق ، ولم ينتفع بها الغرب لإفلاسه فى هذا الإيمان وفقره فى هذه الدوافع الخيرة ، وفى هذه الغايات الصالحة ، بل أصبحت تستخدم فى شقاء الإنسانية وتقويض أركان المدنية أو لغايات تافهة لا قيمة لها .

العبقرى العصامى الذى يعامل الحضارة الغربية — بعلومها ونظرياتها واكتشافاتها وطاقاتها — كمواد خام ، يصوغ منها حضارة قويه عصرية مؤسسة على الإيمان والأخلاق والتقوى والرحمة والعدل فى جانب ، وعلى القوة والإنتاج والرفاهية وحب الابتكار فى جانب آخر ، ولا يعامل الحضارة الغربية كشىء قد تم تكوينه وتركيبه وختم عليه فلا يؤخذ إلا برمته ولا يقبل إلا على علاته ، إنما يأخذها كأجزاء ، يختار منها ما يشاء ، ويركب منها جهازاً يخضع لغاياته وعقيدته ومبادئه ونظام خلقه وما يكلفه به دينه من منهج خاص للحياة ، ونظرة خاصة إلى الدنيا ، وسلوك خاص لبنى النوع ، وسعى خاص للآخرة ، وجهاد دائم « حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » . جهازاً مؤسساً على الإيمان بنبوة محمد ﷺ وأنه المثل الكامل ، والامام الدائم ، والقائد المطاع ، والنموذج المتبع والسيد المحبوب ، والخضوع لشريعته كدستور للحياة ، وأساس للتقنين ، والدين الوحيد الذى تنال به سعادة الدنيا والآخرة ولا يقبل الله سواه .

العبقرى العصامى الذى يأخذ من علوم الغرب ما تفتقر إليه أمته وبلاده ، وما ينفع عملياً وما ليس عليه طابع غرب أو شرق ، إنما هى علوم تجريبية تطبيقية ، وينفض عن كل ما يأخذه من الغرب غباراً لصق به فى القرون المظلمة وفى عصر الثورة على الدين ،

وفى حالة توتر أعصاب وقلق نفوس يأخذ العلوم المفيدة مجردة من روح الالحاد والعداء للدين ومن النتائج الخاطئة ، ويطعمها بالإيمان بفاطر الكون ومدبره ، ويستنتج منها نتائج أعظم وأوسع وأعمق وأكثر سعادة للإنسانية مما توصل إليه أساتذتها الغربيون .

العبقرى العصامى الذى لاينظر إلى الغرب كإمام وزعيم خالد ، وإلى نفسه كمقلد وتلميذ دائم ، إنما ينظر إلى الغرب كزميل سبق ، وكقرين تفوّق فى بعض العلوم المادية والمعاشية ، فيأخذ منه مافاته من التجارب ويفيض عليه بدوره ما سعد به من تراث النبوة ، ويعتقد أنه إن كان فى حاجة إلى أن يتعلم من الغرب كثيراً ، فالغرب فى حاجة إلى أن يتعلم منه كثيراً وربما كان ما يتعلمه الغرب منه أفضل مما يتعلمه هو من الغرب ، ويحاول أن ينهج — بذكائه وجمعه بين حسنات الغرب والشرق وقوى الروحانية والمادية — منهجاً جديداً يجدر بالغرب تقليده وتقديره ، ويضيف إلى المدارس الفكرية والمناهج الحضارية مدرسة جديدة تستحق كل عناية ودراسة وتقليد واتباع .

هذا هو العبقرى العصامى الذى لايزال مفقوداً فى صفوف القادة والزعماء فى العالم الإسلامى على كثرتهم وتنوعهم ، وهذا هو العملاق حقاً الذى يبدو فى جانبه القادة المقلدون المطبقون صغاراً متواضعين كالأقزام .

وإنها أعظم تجربة وأبعدها أثراً ، ليس فى محيط شعب أو بلد ، وليس فى محيط العالم الإسلامى فحسب ، بل فى محيط العالم ، وفى محيط الإنسانية كلها ، وإن التاريخ شاخص ببصره إلى من يقوم بها فى الأقطار الإسلامية والعربية ، ممسك قلمه ليسطر له سطور الثناء والإجلال ، ويقلده الزعامة الحقيقية ، ومركز التجديد فى العالم الإسلامى ، والعبقرية والعصامية فى التاريخ الإنسانى .

خاتمــــة البحث

إنها حقيقة — مهما كانت مرة وأليمة — أن العالم الإسلامى فقد الثقة بنفسه ، وجهل ذاته ومعنوياته بصورة عامة ، حتى إن الأقطار الحرة المستقلة فى هذا العالم الإسلامى الواسع — بما فيها الدول التى كانت مستقلة منذ قرون وأجيال وما تأخرت فى الاستقلال — ظلت عالة على الغرب علمياً وعقلياً ، كبلاد متأخرة أخرى نشأت فى العبودية والخضوع ، وشبت على العبودية والخنوع ، قد يقوم رؤساء هذه الدول وزعماؤها أحياناً بمواقف تستحق الإعجاب فى المجال السياسى ، ويجازفون فى بعض الأحيان بمستقبل البلاد ، ويغامرون — أو يقامرون — بحياة الشعوب ، ولكن لا يبدو منهم — فى نفس الوقت — أى ثقة بالنفس وحرية فى الاختيار ، وملكة نقد حر وحكم عادل على الأشياء يرجى من أى فرد بلغ رشده ، وعرف يمينه عن شماله ، مع أنه من المقرر المعلوم فى فلسفة التاريخ أن العبودية الفكرية والحضارية والتربوية أدهى وأمر وأعمق وأرسخ من العبودية السياسية ، وأن الشعب الظافر المنتصر المحب للواقع يبقى فى غنى عن الاستعباد السياسى واستعمال القوة ، إذا نجح فى الاستعباد الفكرى والعقلى والحضارى .

فى هذه العقود الأخيرة من القرن العشرين التى اكتوت فيها الإنسانية بنار حربين عالميتين ، وهى على أبواب حرب كونية ثالثة ساحقة ماحقة ، والتى أصبح فيها إخضاع دولة سياسياً وعسكرياً ، والتحكم فى رقابها من غير إذن أهلها شاقاً وعسيراً بل شبه المستحيل ، بدأت الدول الكبرى تميل إلى النفوذ الفكرى والحضارى أكثر من النفوذ العسكرى والسياسى ، ولم تكن فى هذا المجال قوة أو دعوة تتحدى سيطرة الغرب الفكرية والحضارية ، وتواجه وحدته الأساسية والنظرية ، وتعرقل مسيره الحثيث إلا

شخصية العالم الإسلامى المستقلة الأصيلة ، ودعوته الدينية والخلقية ، وفلسفته فى الحياة .
ولكن العالم الإسلامى — لأسباب وعوامل تاريخية قدمناها فى كتابنا : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ » — لم يتشجع على مواجهة طاقات الغرب الفائضة المتدفقة ، مواجهة الند للند ، فإن الطبقة التى تربعت على عرشه وملكت زمام أمره كانت تعيش كما كتبنا فى الباب السابق — على هامش الغرب ، بل كانت — فى تعبير أصح — طفلا رضيعاً حملته مرضع الغرب ، وغذته بلبانها ، وتكون لحمه ودمه — معنويا وعقليا — من لحم أمه (الغرب) ودمها ، أضف إلى ذلك محاولة الغرب لإضعاف وازع العقيدة والإيمان فى شعوب هـــذه الدول ، وتدمير الأخلاق الفاضلة ، ولنسف تقاليد المجتمع الكريمة ، والقوة الباقية للتغلب على الشهوات والإغراءات - التى تجرد عنها الغرب منذ أمد بعيد — استخدم فيها أساليب ووسائل تبدو بريئة سخية أحيانا ، آثمة مجرمة بعض الأحيان ، فحاول البلوغ إلى أهدافه البعيدة عن طريق إعانة اليونسكو ورعايته ، والاستعانة بالخبراء الأجانب فى التربية والتثقيف والإعلام ، وبالمدرسين الأوروبيين ، وعلى التربية والتعليم الغربيين ، وعن طريق تلك الموجة العارمة الصارمة من كتب وصحف ومطبوعات ، التى تبذر بذور الشبهات ، وتثير الشهوات ، والتى امتدت وطغت كالسيل الجارف الطاغى ، فى جميع أنحاء العالم الإسلامى ، وأراد أخيراً أن يشل جميع قواه ، ويخدر طاقاته بتعميم التلفزيون فى كل منزل وأسرة ، بل فى كل شقة وغرفة ، باسم رفع مستوى المعيشة وإفاضة النور والبهجـــة ، والمتعة على الحياة ، إنه يقيد — بعض الأحيان — مساعداته السخية لهذه الدول المتأخرة الصغيرة بشروط ، ويطالب هذه الحكومات بتغييرات وتحسينات تتكفل بتطوير المجتمع وطبيعة الجماهير المؤمنة بسهولة وبراعة .

وموجز القول : إن الغرب أحاط بهذه الدول — رغم بعده عنها — إحاطة السوار بالمعصم أو الهالة للقمر ، وافتعل حولهـا أوضاعا جعلت هـذه الدول المستقلة تحت

رحمة هذه الدول الغربية الكبرى ، من غير أن تستعمل تلك الأساليب القديمة البالية للإخضاع والاحتلال .

لقد أبدى قادة هذه الدول — وفيهم من يلهج لسانه بالإسلام ، وفيهم من يتزعم إنشاء كتلة إسلامية ، وجبهة إسلامية عالمية — إيمانا وتسليما بهذه التغييرات ، أو « التحسينات » ، ونشاطا وتحمسا فى تنفيذها ، وتطبيقها على المجتمع والحياة ، لا يسبقهم فيه الغربيون أنفسهم ، وأن أساليبهم فى قبول المخططات الأمريكية أو السوفييتية للتربية والتعليم والسماح لخبرائها وعلمائها بوضع خطة دقيقة مدروسة لتطوير عقلية هذه الشعوب وطبيعتها ، والأخذ بكافة الأساليب لتعميم التلفزيون وتسهيل سبله ، واستيراده برمته وعلى علاته ، وإدخاله فى كل أسرة مسلمة ، وتوفير جميع الفرص والوسائل لبعض تلاميذ المستشرقين النجباء الأوفياء ، لإثارة الشبهات والفوضى الفكرية فى المجتمع الإسلامى ، وتقوية الاتجاه الخطر إلى الرفاهية وأسباب الترفيه والتسلية ، ومباهج الحياة وزخارفها ، وتشجيع التبرج والسفور ، والتعليم المختلط ، وصناعة الأفلام والإشراف عليها ، كل ذلك يثير الشبهات فى نفوس كثير من الناس ، إنهم أصبحوا عملاء ، — لا قدر الله ذلك — بشعور أو من غير شعور لهذه الدول الكبرى ، وانساقوا معها فى أهدافها الهدامة ، أو لعلهم يريدون أن يجردوا شعوبهم المسلمة وجماهيرهم المؤمنة عن هذه الغيرة الدينية ، والشعور الخلقى ، وعن التمييز بين الخير والشر ، والحياء والخلاعة ، الذى يحول — أكثر الأحيان — بينهم وبين إباحيتهم الفردية وعبوديتهم للغرب ، والذى يمكنه أن يتحول فى وقت ما ، فى صورة انتفاضة دينية ، وحركة إسلامية ، ويمثل خطراً لسلطة هؤلاء القادة والحكام . ويبدو أن هذه العملية — عملية التغيير والتطوير — إذا استمرت عدة سنوات أخرى ، وأتيحت الفرصة للعناصر الهدامة ووسائل التدمير أن تعمل عملها بحرية وانطلاق ، فإنها تؤثر فى هذا الجيل الجديد ، الذى يقبل على كل طريف لذيذ تأثيراً بالغا لا يترك له أى مجال لمواجهة تيارات التغريب والتجدد ،

أما النشء الذي ينشأ في هذه البيئة والذي يخلف الجيل المعاصر فإنه سيشب على السمع والطاعة ، ولا يعرف معنى المعارضة ، بل إننا نخاف — وقد بدت طلائعه وظهرت بوادره — أن تقع الطبقة الأرستقراطية والفئة الحاكمة في هذه البلاد فريسة ذلك الجذام الخلقي الذي مسخ الغرب وشوه صورته ، ثم لا ترى على وجه الأرض مجتمعاً سليماً كريماً تناط به الآمال في تطهير العالم الروحي والخلقي ، ويعتمد عليه في إنعاش الإنسانية مرة ثانية .

أما الغرب فإنه لا تصح نيته ولا تصلح طويته — أبداً — إزاء العالم الإسلامي ، إنها نتيجة طبعية ورد فعل طبعي لتاريخه الطويل الذي امتدت عليه ظلال الحروب الصليبية الكثيفة ، وطبع بطابع الصراع الطويل العنيف الدامي بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية .

إن حب الواقعية والعقل العملي يحكمان بأن العالم الاسلامي وحده يستطيع أن يتحدى سيطرة الغرب ويبرز على وجه الأرض كقوة أو كتلة مستقلة تقـــوم على أساس فلسفة خاصة أصيلة للحياة ، ودعوة عالمية للبشرية ، إنها نتيجة الشعور بقيمة تلك الذخائر والوسائل الطبيعية والمواد الخامة التي تفيض بها أرض العالم الاسلامي ، والتي تملك أهمية كبيرة حاسمة للسيطرة الصناعية والتجارية والسياسية للغرب ، وقد يقتضي ذلك ضعف الطبيعة البشرية أيضاً ، فإن الانسان إذا أصابه داء أو لحقه عار يتمنى — بعض الأحيان — أن يصاب به الآخرون ، يبتلون بذلك ، ويحب أن يستوي هذا وذاك ، ولو على الداء والعار ، ولا يتغلب على هذا الضعف والعيب إلا الذين استقر — بفضل النبوة وتأثيرها — حب الإنسانية في سويداء قلوبهم ، وتغلغل الايمان وخشية الله في أحشائهم ، وذلك ما فقده الغرب — مع الأسف — منذ زمن طويل . إن تاريخ عهد الاستيلاء الغربي وانتصاراته يدل بكل وضوح على أن جميع هذه الدول التي وقعت تحت نير الاستعمار الأوروبي التصق

بها ذلك الداء الخلقي الذى رافق الغرب حيثما حل وسار ، وقد حاولت القوى الاستعمارية الغربية — على حد تعبير بعض المؤلفين الغربيين — إثارة الفوضى الخلقية والشبهات العقلية فى البلاد الشرقية ، تحت خطة مدبرة مرسومة محكمة ، فإن الغرب المسيحى مهما كان متشككا فى المسيحية ، ومهما وصل بتنوّره الفكرى وتحرره العقلى عن العقائد المسيحية إلى حدود الزندقة والالحاد ، ولكنه مسيحى متصلب متزمت بالنسبة للعالم الاسلامى ، والشعوب الاسلامية ، إنه يسالم اليهود ويتفاهم معهم فى هذه الناحية مع أنهم من ألدّ أعداء المسيحيين ، وعريقون فى العداوة والبغضاء ، ويؤثرهم على المسلمين بكل صراحة وجلاء ، وفضلا عن هذا التعصب الدينى الذى نشأ فى حضانته ورضع بلبانه ، وأصبح من طبيعته وشيمته أنه أحرص على مصالحه وأغراضه قبل كل شىء ، وقد جربنا مراراً وتكراراً أنه كلما وقع صدام بين دولة إسلامية ودولة غير إسلامية ، وقف — دائماً — مع الجانب الآخر ، وساعده من وراء حجاب حيناً آخر ، وقد أزاحت نكبة ٥ حزيران ١٩٦٧ م الستار عن هذه الحقيقة ، وتقرر أنه لا يجوز لأى شعب إسلامى أو دولة إسلامية أو هيئة إسلامية أن يثق بصداقة كتلة غربية أو شرقية ، بل ينبغى له — فى مثل هذه المراحل الحاسمة — أن يثق بقوته ، ويعتمد على مواعده ووسائله بعد الثقة بالله ، والاعتماد عليه .

أما بخصوص قادة العالم الإسلامى وزعمائه فيجب عليهم أن يعرفوا أنهم مهما جنوا من منافع شخصية لهم ، ولمن يأتى بعدهم وراء هذه السياسة ، سياسة التجدد والتغريب ، والتقليد الأعمى ، وإثارة الفوضى والتبلبل الفكرى فى الشعوب المسلمة ، فإنها تلحق الأمة بخسارة فادحة فى المجموع وبصورة دائمة ، وتهزّ أركانها وجذورها ومقوماتها هزّاً عنيفاً تبقى آثاره ونتائجه لعدة قرون وأجيال .

إن هذه الشعوب — رغم جميع معائبها وجوانب الضعف فيها — لا تزال تحمل تلك العاطفة الفياضة الجياشة من الإيمان والحنان ، والتضحية والإيثار ، والطاعة والانقياد ،

والحب والاخلاص ، التى لا توجد فى أى أُمة مادية على ظهر الأرض ، إن جماهير هـذه البلاد الإسلامية رغم جهلها المؤسف وتأخرها المؤلم خامات بشرية ممتازة يصنع منها نماذج إنسانية جميلة ، وطراز رفيع من البشر ، إن أكبر قوتها الإيمان والاخلاص ، والبساطة والحماس ، وهذه القوة لعبت دوراً خطيراً فى التاريخ ، وصنعت العجائب ، وأتت ببطولات ، وخوارق تدهش لها العقول ، وهى التى أنقذت هـذه الدول الإسلامية وأمسكت بيدها فى كل وقت عصيب ، ولحظة حاسمة ، فيجب علينا — بناء على مجرد حب الواقعية والحقيقة — أن نقدر هذه القوة الكبرى حقّ قدرها ، ونعتبرها أضخم رصيد ، وأمضى سلاح ، وأقوى وسيلة ، للمحافظة على سلامة البلاد ، وأداء أى واجب كبير ودور خطير على مسرح العالم ، ولـكن هذه القوة الشعبية الإيمانية نفسها بدأت تنفض تحت تأثير التجدد والتغريب ، وبدأ فى هذه الشعوب سرطان خلقى لا ينفع فيه الدواء والعلاج .

وبالنظر إلى تفوق الغرب فى مجال الصناعة والعلم الذى لا ينكر ،ولا يسمح بإنكاره وغض البصر عنه العقل والدين ، ولا هو بالمتيسر الممكن ، يقف العالم الإسلامى بين طريقين : فإما أن يقبل — مسحوراً ، مسلوب الإرادة والتفكير — فلسفته عن الحياة ، ونظرته إلى الكون ، وعقائده وأفكاره المابعد الطبيعية ، ونظرياته الاجتماعية والعمرانية ، وفكرته عن الأخلاق ، وأسلوبه ومنهجه فى الحياة برمته ، وبما فيه من غث وسمين ، ويصهر وجوده وشخصيته فى بوتقته صهراً كاملا ، ويندمج فى تياره الحضارى اندماجاً كلياً ، إن هذا الطريق — فضلا عن أنه يعنى ردة عامة شاملة ، وانتحاراً روحياً ومعنوياً ، وخيانة بالإنسانية التى ارتبط مصيرها بهذه الأمة — جهاد لا طائل تحته ، وسعى لا مبرر له ، وهو لا يؤدى إلاّ إلى صراع عقلى ، وقلق روحى ، وضياع المواهب الإنسانية ، والطاقات البشرية ، إنه تدمير صرح مشيد مكتمل البناء ، وإزالته من الأساس ليقام على أنقاضه وركامه بناء جديد ليس له مواد خام ، ومواهب بناءة ،

ولا يسمح به الجو والبيئة والمجتمع ، ولا صلة له بالماضى ، وكلما بدت محاولة فى هذا المضمار فى أى دولة إسلامية أخفقت ، وكلما خفّ هـذا الضغط الصناعى وغير الطبيعى عن الشعوب ، ووجد الناس فرصة لإبداء رأيهم وما يحبون وما يكرهون ، خلعوا هذا اللباس الفضفاض الذى لم يفصَّل على قامتهم ، ولم يتلاءم مع طبيعتهم ، وذلك ما نراه الآن فى تركيا ، وسنراه عما قليل فى مصر وسوريا .

هذا هو الطريق الأول ، أما الطريق الثانى فهو أن نستفيد من الغرب فى مضمار العلوم والصناعة والأبحاث العلمية والفنية التى لا تقوم إلاّ على التجارب العملية ، والحقائق العلمية ، وعلى الجهد الإنسانى فحسب بكل حرية وسعة صدر ، ثم نضع هذه العلوم والوسائل — بفهم واجتهاد وذكاء — فى خدمة تلك الأهداف السامية التى منحتها لنا النبوة الأخيرة والكتاب الأخير ، ودعانا بخير أُمة وآخر أُمة على وجه الأرض ، إن هذا الجمع بين الوسائل والغايات الذى حُرمه الغرب والشرق على السواء ، فأصبح الغرب محتكراً للوسائل الجبارة القاهرة ، مفلساً كل الإفلاس فى الغايات النبيلة الصالحة ، وأصبح الشرق (الإسلامى) مقتنعاً بالغايات الرشيدة الصالحة ، مفلساً فى الوسائل الجبارة القاهرة ، الغرب يستطيع أن يفعل كل شىء ، ولكنه لا يريد ذلك ، أو فى تعبير أدق لا يعرف الطريق إليه ، والشرق يحب أن يفعل الكثير ، ولكنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً — هذا الجمع الصالح المتزن العادل يستطيع أن يغير وجه الأرض ، ويأخذ بيد الإنسانية من طريق الانتحار والهلاك إلى طريق السعادة الخالدة ، والفوز المبين فى الدنيا والآخرة ، إنها تكون مأثرة عظيمة خالدة تحول تيار التاريخ ، واتجاه الإنسانية ، وإنها لا تتم إلاّ بيد هذه الأمة التى حملت تراث النبوة الأخيرة ، وحافظت على رسالتها وأمانتها ، فيجب أن يكون هتافنا فى الوقت الحاضر والعالم المعاصر ، هتاف ترتج له الجبال ، وتهتز به أوكار الفساد ، هو — كما يقول إقبال — : « إن العالم أصبح خراباً يباباً بقسوة الغرب وفظائعه ، فيا أيها الرجل الذى بنيت الحرم قم وابن هذا العالم » .

لقد تقدمت دولة فتية طامحة فى الشرق ، اليابان ، وقامت بهذه الخطوة والإقدام فى إطار ضيق محدود ، وعلى مستوى منحط من وجهة النظر الإسلامية ، إنها استفادت من الغرب فى مجال العلم والصناعة استفادة وصلت بها التلميذة إلى درجة المعلم والأستاذ ، وأصبح من العسير التمييز بينهما ، وحافظت — فى جانب آخر — على معتقداتها وخصائصها الحضارية وتقاليدها ، ولكن معتقداتها الدينية — من سوء الحظ — لم تكن تتلاءم مع العصر الحديث ، ولم تكن فيها ناحية لخدمة الإنسانية ، ولم تكن تحمل رسالة عالمية ، إنها كانت مجموعة تقاليد بالية عتيقة حرصت عليها هذه البلاد وتمسكت بأذيالها ، ولا تزال متمسكة بها بقوة إرادتها وصلتها العميقة الراسخة بالماضى ، ولكن الوضع فى العالم الإسلامى يختلف عن وضع هذا البلد كل الاختلاف ، فعنده دين وشريعة ودستور ، لا اعتبار فيه للقديم والجديد ، وعنده حضارة قامت على الحقائق الخالدة ، إنها شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، ولذلك فإن هذه البلاد الإسلامية سوف لا تواجه صعوبة فى إيجاد التفاهم والتعاون بين تلك العلوم والصناعات ، وهذه الحقائق والغايات ، وتستطيع أن تحصل بهذه العملية على نتائج مدهشة تحيط بالعالم كله ، وتشمل البشرية بأسرها ، وتتقدم بها على اليابان التى مارست هذه العملية فى نطاقها الضيق المحدود فلم تأت بالنتائج السارة المرجوّة ، إن هذه المحاولة العملية فى اليابان وفى أى بلد تقليدى يشبه اللعب بالزجاج والحديد ، والنار والبترول ، ولكن لا تناقض بينهما عند المسلم ، فإنه يرى أن الصراع أو الاصطدام بين الدين الصحيح والعلم الصحيح مستحيل ، وضرب من المحال ، وأن الحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها فهو أحق بها ، العبرة فى الوسائل — عنده — بالغايات التى سخّرت لأجلها واستخدمت فى سبيلها ، إنه يرى أن كل قوة وكل علم ، وكل أداة فعالة ووسيلة ناجحة خلقت لخدمة الدين وصلاح الإنسانية ، وإن واجبه أن يمنح تلك العلوم والوسائل والآلات محلها اللائق ومكانها الصحيح ، ويجعلها أداة للبناء بدلا من التدمير ، ولكن هذا العمل الكبير يحتاج إلى ذكاء متوقد وشجاعة فى التفكير ، ونصيب وافر من إيمان وإخلاص

يقاوم كل نزعة تقليدية ، وكل شعار مزوّر ، وكل هتاف فارغ ، وكل مصلحة شخصية أو حزبية ، ويتغلب عليها ، ويقدم له قادة العالم الإسلامى كل نصيحة وإيثار تتطلبه هذه التجربة ، وبذلك ينالون — كنتيجة أو كنحة — مكانة فريدة من الحب والولاء فى بلادهم لا ينالونها من أى طريق آخر ، وبالتالى يصلون — وتصل بلادهم — إلى درجة الهداية والإمامة ، وقيادة النوع الانسانى التى لم يحلموا بها .

إن الحضارة الغربية أشرفت على الانهيار ، وآذنت بالأفول والزوال ، إنها لا تعيش ولا تواصل سيرها بمجرد قوتها الذاتية ، وجدارتها للحياة والبقاء ، بل لأنه ليست فى هذا المجال — من تعاسة الحظ — حضارة تحل محلها وتسد فراغها ، إن جميع الحضارات المعاصرة والقيادات الحديثة اليوم لا تعدو نوعين ، إما هى مقلدة جامدة وصور باهتة للحضارة الغربية ، وإما هى ضعيفة هزيلة ، مريضة سقيمة ، منسحبة منهزمة ، لا تستطيع أن تواجه هذه الحضارة أو تقف معها جنباً إلى جنب ، فإذا قامت هذه الدول الاسلامية ، والعالم الاسلامى بصورة عامة لسدّ هذا الفراغ الذى سيحدث بعد نهاية هذه الحضارة وانسحابها عن مسرح القيادة رُدّ إليه منصب قيادة الجنس البشرى ، وتوجيه الشعوب المعاصرة مرة ثانية ، المنصب الذى لا يفوّض إلاّ إلى أمة فتيَّة قوية أبية تحمل كل عناصر البقاء والاستمرار والتقدم والازدهار : سُنة الله فى الأرض ، « ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

فلينظر هؤلاء القادة والحكام ما هو أولى لهم وأجدر بشأنهم ، التمسك بأذيال الغرب والوقوف على بابه كالشحاذين ، أم منصب قيادة الانسانية وهداية الشعوب الضالة التى لا كرامة — بعد النبوة — مثل هذه الكرامة ؟ ذلك المنصب العالى السامى الذى تتلاشى عنده جميع هذه الألقاب والشارات ، والشمارات والهتافات والمناصب الرفيعة ، والحياة الناعمة المريحة ، والاغراءات المادية والجنسية ، إنها سلعة غالية لا يخسر بها المشترى ، ولو ضحى بنفسه مائة مرة .

فهل هنا — فى مساحة العالم الإسلامى الكبير — بلد إسلامى يقوم لهذا العمل الضخم ، العمل الحاسم الفاصل الذى لا يساويه عمل فى هذا العهد الحديث فى الاتساع والعمق ، والشمول ، وفى النتائج والآثار ، والثمرات والخيرات ، وفى تغيير التيارات وتقويم الاتجاهات ، وإصلاح الحضارات والمدنيات ، العمل الذى لا تجدر أمامه نهضة الغرب ، وثورة فرنسا ، والشيوعية والماركسية بالذكر فضلا عن الإشادة والتنويه ، إن هذه الثورات القديمة تبدو كعبث الأولاد أو طفـرة من طفـرات الشباب بالنسبة إلى جراءة هذا العمل وذكائه وسحره وتأثيره ، إن هذه التجربة تعطى هذه الدول التى تقوم بها ، والعالم الإنسانى كله مجالا بكراً جديداً فسيحاً للتفكير والعمل ، وطريقاً مأموناً مستقيماً إلى السلامة والأمن ، هذا العمل لا تستحقه ولا تجـــدر به ، ولا تنجح فيه إلا الشعوب التى عاشت فى حوزة الملـة الإبراهيميـة ، واعتزّت ببشارة تـكميل الدين وختم النبوة ، إن رسالة السماء تهتف بهؤلاء القادة والزعماء قائلة مجلجلة :

« وجاهدوا فى الله حق جهاده ،هو اجتباكم ،وما جعل عليكم فى الدّين من حرج ، ملّة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ، ليكون الرسول شهيداً عليـكم وتـكونوا شهداء على الناس ، فأقيموا الصّلاة ، وآتوا الزكاة ، واعتصموا بالله ، هـو مولاكم ، فنعم المولى ونعم النصير » .

الفهـرس

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع

رقم الإيداع ١٩٧٧/٣١٣٠